المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي

تأليف:

الشيخ الصغير بن يوسف

(المتوفى سنة 1177 هـ/ 1763 - 1764 م)

المجلد الثاني

تقديم وتحقيق

الدكتور أحمد الطويلي

فيشتروا بها لحم البقر للقديد، القنطار من لحم البقر بريال أو أقل من لحم الأراخ، ويأخذون مطر الزيت بثلاثة أرباع وثُمُنْ، ويرتاحون من العولة، فإذا قدم الزّمل من الجريد ووصل بوسديرة اجتعت الناس من كل محل قريبا أو بعيدا، يشتري ذلك الخياط سفساري وما يكفيه هو وعياله وأولاده كسوته وكسوتهم، وتمكث محلة الترك في سوق بوسديرة ما يقرب من الشهرين» (ج 1، ص 41).

وهكذا يتابع محمد الصغير بن يوسف أخبار مواطنيه بباجة ويقدم لنا جزئيات طريفة ذات دلالات مهمّة اجتماعيا واقتصاديا، خاصة منها معلومات تاريخيّة وثائقيّة عن بعض المباني المعمارية التّاريخيّة في باجة منها البرج وباردو باجة، وكان البرج في العهد الحسيني خاليا من أي سلاح وكان سجنا. أما باردو باجة فكان ينزل فيه الباي حسين بن علي أربعين يوما من المحلّة يفصل في النوازل، «يدفع الظلّمات ويرفع الخطيات» كما ينزل فيه الباي محمد مع محلّته يقضي بين الخصوم، وكانت باجة محطة لمحلة الصيف تأتي لاستخلاص المجبي من أهل «إفريقية» ويتم البيع والشرّاء بمناسبة حلول المحلّة «فتربح أهل الأسواق والصنايعيّة».

ومن اهتمام محمد الصّغير بباجة وبأبنائها تقديمه لنا أخبارا عن أشهر الشّخصيّات الباجيّة في عصره الذين كان لهم صيت في العاصمة إذ تولّوا فيها المناصب العليا.

ومن جهة أخرى يعج كتاب «المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي» بالأخبار المتعلّقة بالبلاد التّونسية من «النخلة إلى الدخلة» كما يقول، وهذا الكتاب هو بحق منجم للحياة الاقتصادية والاجتماعيّة والدينية والثقافية والعلمية. وتكمن قيمته في أنّ المؤلّف التزم فيه بالتّثبت في رواية الحدث والتحرّي في الإتيان بالخبر.

مناقب الشيخ عاشور العيّاط

قالوا : من مناقب هذا الشيخ : أنّه يأخذ رطلا من زيبق أو أكثر وياتي حانوت الصّايغ فيأمره أن يحطّ بوطا[1] كبيرا في النار ويبعث[281] الشيخ يشتري له رطلا من الزّيبق أو أكثر فيحطّه قدامه في البوط وينفخ عليه بالكير، ثمّ يأخذ قرطاسا من راسه ويحطّ على ذلك الزيبق قبل وصول النار إليه قدر الحمصة من ذلك القرطاس، والنّاس تنظر إليه، ثمّ يسوق بالكير عليه، ومن عادة الزّيبق إذا مسّه النّار طار من حينه وصار دخانا صاعدا في الجوّ، فمن شمّ رايحته هلك. وأمّا الزواق[2] الذي يحطّه الشّيخ فلا يقدر يصير دخانا وإنّما يبقى [يغلي] في البوط ويبكبك[3] حتى يعلم الشيخ أنه انقلب فضة فعندها يخرج البوط من النار ويلقيه يبرد، فإذا برد فرّغه من البوط وإذا ذلك القطعة سواء كانت كبيرة أو صغيرة انقلبت فضة خالصة لينة من أعلى الفضّة فيعطيها لصاحبه أو خديمه، ويقول له :

(1) البوط: معرب من الفارسية وهي بُوتقة أي وعاء يذيب فيه الصائغ معدنه.
(2) الزواق والزاووق : الزئبق.
(3) يبكبك عامية، يحدث صوتا من الغليان.

اذهب واعط هذه الفضّة للدلال في الصّاغة[1] ولا تبيعها إلا بكذا وكذا، فيمشي الرّجل ويعطي القطعة للدّلال، فإذا دار بها الدّلال على المعلمين عرفوها وقالوا : هذه فضّة عاشورية، ورغبوا فيها، وزادوا في ثمنها إلى أن ينتهي الثمن إلى ما قاله الشّيخ عاشور، فيسلّم فيها ويقبض المال، ويأتي للشّيخ عاشور فيقول : ما فعلت في القطعة؟ فيقول له الصّاحب أو الخديم : بعتها بما قلت لي، وهذا المال عدده كذا وكذا. فإذا كان في تونس أخذه الشّيخ من عند الخديم ومضى به ولا يعلم أحد أين صرفه أو وضعه. وأمّا إذا كان في نابل فيخرج القطعة من تحته ويبعث بها أحدا إلى تونس فيبيعها بالثمن الذي أوصاه به سواء كان المال من أربع أو خمسة ماية أو أقل أو أكثر[2]، ثمّ يرجع إلى الشّيخ بنابل فيقول له الشّيخ : على سلامتك أين الأمانة التي أعطيتك؟ فيقول له : يا سيدي بعتها، وهذا مالها في طرفي [282] معدود محسوب، فتارة يقف الشّيخ ويقول لحامل المال : اذهب معي. فيذهب معه حتّى يخرج من باب بلد نابل، ويأتي الشيخ إلى زبلة[3] هو والرجل، ويحفر الشيخ بيده في الزّبلة. فإذا اغراقت الحفرة في الزبلة ألقى فيها ذلك الدراهم، ثمّ يغطيها بالزّبل ويبول عليها الشّيخ سيدي عاشور ويرجع هو والذي معه ويتركها، فإذا فارقه الرّجل رجع الرّجل

(1) في الأصل : الساغة، أي في سوق الصاغة.
(2) زائدة في ص.
(3) الزبلة : القمامة.

إلى مكان الحفرة [ويحفر] فلم يجد له أثرا ولا يقف له على خبر، ولو حفر أذرعة كثيرة لم يجدها، فيرجع المفتّش خايبا، ومن أمر الدّراهم متعجبا.

وتارة إذا قدم عليه الذي بعثه يبيع القطعة الفضّة بتونس، وكان ذلك الرجل يعرف أحوال الشيخ، فإذا قدم عليه بالدّراهم في طرف برنوصه[1] ويقف على الشّيخ يقول له : هذه الدراهم. فيقول له الشّيخ : أمّنها عندك حتى نستحقّ بها، فيرجع بها الرّجل ويصرفها في حوايجه. فإذا كاشف عليه الشّيخ وأنّه نفقها كلّها، فيلاقيه الشّيخ سيدي عاشور ويقول له : يا فلان جب لي ذلك الدراهم التي أمّنتها عندك. فيصكّه[2] ويجحده، ويقول للشّيخ عاشور : ما أعطيتني دراهم ولا أمّنت عندي أمانة، وأنت صاحب مال حتّى تؤمّنه عند النّاس؟ فعندها يغضب الشّيخ عاشور ويمسك الذي أمّنه ويجرّه من مكان إلى مكان ويعيّط[3] عليه والنّاس تضحك من فعله حتى يضجر الشّيخ عاشور من العياط والحمق، ثمّ يطلق الرّجل ولا بقى يسأله عن الدراهم أصلا.

وأمّا الذي لا يعرف أحواله ويؤمّن عنده الدّراهم فإذا لاقاه بعد حين، قال لذلك الرّجل : إيتني بالأمانة التي عندك فيذهب

(1) أي البرنس.
(2) يصكّه : أي ينكره، والصك بالعامية، ركل الدواب.
(3) يعيط : أي يصيح عليه ناهرا.

إلى داره ويأتيه بها في طرفه فإذا جاءه بها قال [له] : اذهب معي، فيذهب معه إلى الزّبلة فيحفر لها كعادته ويبول عليها ويرجع [283] هذه أحد مناقبه.

ومن كراماته أنه إذا سمع به أحد أنّ الشّيخ يعمل صنعة الكيميا فيرحل إليه من بلاده إلى نابل، ويلتقي بالشّيخ ويتبعه أيّاما ويخدمه فيكاشف عليه الشّيخ ويقول : يا ولدي قد ضيعت نفسك وأنت تتبع فينا، اذهب واخدم على روحك، مالك في هذا الأمر الذي تطلبه منّي نصيب. فإذا ثقل على الشّيخ عاشور طرده.

ومن كراماته أنّ الأمير حسين رحمه اللّه بعث إلى الشّيخ سيدي عاشور إلى نابل فأتاه إلى باردو اجتمع به سرا، فقال له: يا شيخي ويا أستاذي، أعلمك أنّ مرتب العسكر قد ثقل علي كثيرا، وأريد منك يا سيدي أن تعلّمني مماّ علّمك اللّه من صنعة الفضّة، وترفع عنّي هذا الحمل الثقيل، ولك الثّواب الجزيل. فأجابه الشّيخ عاشور بأنّ الذي نعلمه ليس عندي إذن في تعليمه، وهو مقتصر عليّ فقط. فألحّ عليه الباي حسين وتهجّم عليه وتوسّل إليه. فلماّ أعياه أمره قال للباي حسين : ابعث من ياتي إليك بزوج طناجر عنابي[1] وابعث اشتري كذا وكذا من العقاقير، ويكونان في كاغطين مقرطسين[2] قدر هذا، فبعث

(1) نسبة إلى عنابة بالجزائر.

(2) مقرطس : ملفوف بالكاغظ.

الباي حسين بمن أتاه بما أمر به الشّيخ ووضعه بين يديه. فلماّ رآهما الشيخ عاشور قال للباي حسين : ايتيني بكانونين وعمرّهما بالفحم وآتي بهما وحط الكانونين واحد قدامي وواحد قدامك. ففعل ما أمره به الشّيخ سيدي عاشور وحط كانونا قدامه وكانونا قدام الشّيخ وحط على كل كانون طنجرة وشعلّ تحتها الفحم ثم قال الشّيخ سيدي عاشور للأمير حسين رحمه اللّه : افتح القرطاسين وانظر ما فيهما، هل هما شيء واحد أم لا. ففتح الأمير حسين القرطاسين ونظر ما فيهما فوجد الذي في هذا في هذا، فقال له : يا سيدي الشّيخ، هما شيء واحد لا يزيد بعضهم على بعض. فقال له : الق ما في كاغط في طنجرتك بيدك والق [284] الكاغط الآخر بيدك في طنجرتي وسدّ على رأسي الطنجرتين بالعجين، واحكم سدهما فإذا حضر العجين واردت أن تسدّ رأس الطنجرتين اعلمني.

ففعل الأمير حسين ما أمره به الشّيخ سيدي عاشور. فلماّ أراد أن يسدّ بالعجين أعلمه فكشف عاشور الغطا عن الطنجرتين وبصق في هذه وفي هذه، ثمّ رد غطاءهما على رؤوسهما وتركهما يغليان مدّة حتّى علم الشّيخ انعقادهما فقال للباي حسين : اكشف عن طنجرتي والق ما فيها. ففعل الباي حسين وفرّغ طنجرة الشّيخ بيده وإذا به صوبّت قطعة واحدة فضّة خالصة عاشورية. ثمّ قال للباي حسين بن علي نورّ اللّه ضريحه : ألـق أنت ما في طنجرتك. ففعل والقى ما فيها

وإذا به صوب الذي ألقاه بعينه لم يتبدل ولم يتغيّر، كما حطّه عقاقير وجده عقاقير. فقال له : ياخي حسين الأمر بيد الله لا بيدي ولا بيدك، ولو كان عندي إذن لعلّمتك. فبهت الباي حسين من هذا وعذره، وأيّس من تعليمه الصنعة. قال له : «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[1].

ومن كرامات، الشيّخ سيدي عاشور رحمه الله ونفعنا به آمين[2] أنّه يدخل الحمام ومعه الجماعة ويدورون بالحوض مملوأ ماء فيبصق فيه الشيّخ وإذا بالماء انقلب سلطاني[3] فيكمّش[4] منه الشيّخ ويريهم السلّطاني وهو في يده. فإذا رأته الجماعة كمّشوا من الحوض فرحين فينقلب في أيديهم ماء، فيطلق لهم الشيّخ عاشور الفص بفمه[5] ويضحك عليهم حتّى يتحشّمون.

ومن كراماته وكشفه الصّحيح أنّ أهل نابل بنوا له زاوية[6] وجعلوا على المكان الذي يدفن فيه قبّة عظيمة بنوا أركان القبّة ولم يعقدوا القبّة ولم يتمّوها وهو حي فتمالوا أهل نابل على انعقاد القبّة واتمامها والشيّخ عاشور يضحك عليهم [285] فلمّا عقدوا القبّة طاحت القبّة من فوق. فقال لهم الشيّخ :

(1) قرآن : سورة الجمعة، الآية 4.
(2) من رحمة الله إلى آمين زائدة في ص.
(3) سلطاني : عملة عثمانية كانت رائجة في تونس.
(4) يكمش يده منه : يقبض عليه بيده.
(5) اطلق الفص : أحدث صوتا كالضراط من فمه.
(6) الزاوية موجودة يتبارك بها الناس وهي زاوية سيدي عاشور.

لا تنعقد إلاّ عند قصّ راسه، وعزّة الله لا تتم القبّة وأنا مدفون تحتها إلاّ في زمن قص راسه فعندها تنعقد فيسألوه النّاس فيقولون : من هذا الذي متوقّف انعقاد القبّة على قص راسه؟ فيقول لهم الشيّخ عاشور : الذي هو هو، وعند تمام الوعد تعلمون من هو، ما عندي إذن في كشفه.

ومات الشيّخ في دولة الأمير حسين[1] رحمه الله ودفن بذلك القبّة المعينّة له[2]، فإذا عقدوها وأتموّها طاحت[3] إلى أن وقع ما وقع على الباي حسين سامحه الله. وانتقل إلى القيروان ووقع في الحرب وابن أخيه حين تولّى تونس ودام ذلك الحرب خمس سنين كما يأتي بيانه ان شاء الله تعالى في محله.

وكان في العام الخامس عندنا بباجة[4] وكان في هذه النوبة رجال كوارغلية من العسكر في قصبة باجة، وكان الفصل من الرّبيع زمن الخص، وكان في هذه النوبة بباجة رجال كوارغلية طاح طريقهم في هذه النوبة وفيهم بعض رجال معهم بعض معرفة وعقل بهي وكانوا في السّابق لمّا اجتمعت بهم بباجة وقعت المعرفة بيننا وهم من كوارغلية نابل الأحرار.

فما نقلت من كرامات الشيّخ في هذه الأوراق فهو عنهم

(1) توفي حسين بن علي في ماي 1740.
(2) أي زاويته بنابل.
(3) طاحت : سقطت.
(4) في الأصل : نوبة من العسكر في قصبة باجة وكان الفصل زمن الربيع زمن الخص.

منقول، فهم عندنا بباجة قايمون مع النّوبة، وإذا الخبر ورد عليهم : نعلمكم أن قبّة سيدي عاشور العيّاط انعقدت وتمّت وجاءت من أحسن القبب، وعلي باشا بتونس وحسين بن علي بالقيروان لم يقتل أحد منهما، ويونس ولد الباشا محاصر للقيروان في زمن الرّبيع وقت الخص، فتعجّبوا كوارغلية نابل من ذلك وكادوا أن يكذّبوا الشّيخ عاشور فيما قال لهم : وكنا قبل إذا اجتمعت أنا وإيّاهم ويذكرو لي هذه المقالة كنا نظنوها المعني والموعود بقص رأسه هو علي باشا أو ابنه يونس. فلم تمض إلا أيّام قليلة وورد علينا [286] خبر أخذ القيروان وهدمها وخلايها، وأنّ يونس لحق عمّه قريبا من القيروان وذبحه وقصّ راسه وأتى به إلى محلّته، ثمّ بعثه إلى تونس مع جثته كما ياتي في موضعه إن شاء اللّه تعالى، فعندها علمت أهل نابل أنّ مقالة الشّيخ عاشور ومكاشفته إنّما هو على راس حسين بن علي رحمه اللّه وقصه وانعقاد القبّة بعد قصّ راسه بزمان قريب واللّه أعلم.

ومن مكاشفة الشّيخ عاشور الصحيحة أنّ الشّيخ الصّغيّر داود لمّا اشتهر ببلاد القبلة وصارت داره بنابل كعبة المحتاج والمضام والطالب، لم يفرغ بابها من النّاس وكثرتهم ودوابّهم وهداياهم من كل مكان. وكان للشّيخ الصّغير داود ولدان واحد اسمه علي معه بعض الطلّب، وواحد هو ولد أخيه معه غفلة[1]،

(1) أي معتوه.

وقلة همّة. وكنت رأيته بتونس في المدرسة الحسينية. فقال لي من كنت جالسا معه والرجل [واقف] بقربنا فقال لي صاحبي : أتعرف هذا الواقف بإزاينا؟ قلت له : لا أعرفه. قال لي : هذا ولد الشّيخ أخي الصّغير داود النابلي هو اليوم يتكفّف[1] النّاس بتونس بعد العزّ والرّفعة والدّلال والمال والوجاهة. فتأمّلت منه كثيرا فإذا هو في حالة غصّة وثياب رثة سبحان المعزّ سبحان المذلّ. وأمّا ولده علي الذي فيه قابلية أظنّه مات في حياة والده الشّيخ الصّغير داود أو بعده بقليل وليس عندي تحقيق في وفاة الشّيخ الصّغير داود هل توفّي في آخر أيّام حسين بن علي أو توفّي الشّيخ لمّا دخل الباشا علي تونس سامحه اللّه. وأظن واللّه أعلم أنّه لم يمت إلاّ في دولة علي باشا بتونس، وأنّه بعث إليه، وأتاه فلم ينتقم منه كالحاج يوسف برتقيز، وأظنّ واللّه أعلم أنّه صادره بالمال، ومن وقف على هذه الجملة يعذرني لأنها طالت المدة، وبُعد القرية من القرية وكان ولد الشّيخ الصّغير داود [287] المسمى علي لم يرض بأفعال الشّيخ عاشور العيّاط وكان يستنقصه كثيرا وتارة يسبّه ولا له شغل إلاّ بالشّيخ عاشور. وفي كلام قدسي : «من عادى لي وليّا آذنته بحرب»[2]. فإذا أكثر على الشّيخ عاشور مشى الشّيخ عاشور إلى قريب باب دار الشّيخ الصّغير داود

(1) أي يتسول الناس يعيش من السؤال، فهو شحات، ومتسوّل.
(2) من حديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة.

وهي غاصّة بالخلق، واقف وقاعد، وقريب ومباعد، فيقف الشيّخ قبالة باب الدار، ويقول وهو في حاله : دار الصغّير خالية، وعزّة الله لا بد أن يسكنها نصراني. وكان الأمر كما قال الشيّخ عاشور. توفي الشيّخ الصغّير وتوفّي ولده وأخذ الباشا علي ماله ودياره وأملاكه وسوانيه وغراساته، منها السانية العظيمة الشان قريبة من البلد ياتي ذكرها إن شاء الله.

وبقي بعد الشيّخ ولد أخيه الأغفل الذي قدّمنا ذكره، وكانت دار الشيّخ أتى مملوك إليها من تونس حديث عهد بإسلام، فسكن في دار الشيخ الصغّير داود كما كاشف عليه الشيّخ عاشور، نفعنا الله به آمين، وكرامات الشيّخ كثيرة ومناقبه غزيرة ولكن هذه الجملة من كراماته سمعتها من كوارغلية نابل فكتبتها هنا كما تراه.

ومن أحوال الشيّخ عاشور أنّه دايم مدوّرا براسه المغارف الكثيرة. ومن أحواله أنّه يدخل القهوة بنابل فيشرب الخمسين والستين فنجالا قهوة والمائة وأكثر. ثمّ يبولها كلّها، وكان إذا أخذه الحال زهق وعيّط وقال : يا أهل نابل لم بقيتم ترون كذابا مثلي؟ قيل، وكانت له أربع نسوة كلّ واحدة منهن ببيتها وعليها اللّباس البهي، والغالي من الحليّ. والشيّخ يرقد في سقيفة داره على زنبيل مقطّع، نفعنا الله به آمين والله أعلم.

[رجوع إلى خبر الشيّخ الصغّير داود :]

رجعنا إلى ما كنا بصدده إلى التعريف بالشيّخ الصغّير داود. ولمّا [288] بلغ المكان العليا عند الأمير حسين باي في آخره بتونس أراد الشيّخ الصغّير داود أن ينشي سانية عظيمة ذات أشجار مختلفة الثّمار، قريبة من البلد. فاختار رملة قريبة من البلد وأراد أن يغرسها كما قلنا. ففزعت أهل نابل وغيرهم إلى ذلك الرّملة ونقلوها إلى أدوار السّانية إلى أن وصلوا بالحفير ونقل الرّمل إلى التراب الحيّ وقاسوها، وعلى المساحة ذرعوها، فلمّا أتمّوها تخموها. ثمّ فزعت إليها أهل نابل بالغراسات العزيزة الحلوة اللذيذة وحفروا أبيارها وشقوا أنهارها وسقوا أشجارها حتّى عرّقت ثمّ أينعت ثمّ أورقت ثمّ أغصنت ثمّ طالت ثم حملت[1] ثمّ أوضعت ثمّ أثمرت ثمّ أطعمت ثمّ عزت وفي المهاوي أهلكت بزينتها وتمايل أغصانها وترنّم بلبالها وصوت مايها في سواقيها وشكوى دوالبها وكثرة دموعها من كثرة أنينها، فحنّت لها الأشجار فرمت ثمارها وأسقطت أوراقها وحزنت على جاراتها. فلمّا رأت جاراتها ما فعلت بأنفسها لأجلها وعلمت عطشها من كثرة حرقة قلبها ونزعها لباسها وقد أثّرت الشمس في قشور أغصانها رقّت إليها حتّى كثر نحيبها ليلا ونهارا، صيفها وخريفها، وكثر بكاؤها حتّى أجرت دموعها في سواقيها، وسقت جاراتها مما حلّ بها لأجلها حتّى روتها، وأزالت

(1) في أ: حالت.

عطشها. فلما روت من دموع جاراتها فتحت أكمام أزهارها، ثمّ غطّته بأوراقها، وطالت أغصانها، وتمايلت على جاراتها. فقالت لها جاراتها: الخير، بالخير والبادي أكرم، جزاء وفاقا، والسّاعي أظلم، وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان.

ولمّا تزيّنت هذه الجنّة وتحلّت بالحلي المهمّة طار ذكرها في الآفاق، وحنّ إلى رؤيتها ودخولها كل معتني ومشتاق، [289] إلى أن بلغ خبرها إلى ناشيها، وتكرّر عنده الخبر وتعاود فركب من حينه وتبعته أولاده وبعض خدمه إلى أن وصلها، فدخلها بالأهل والولد. فلمّا أعجبته قال: ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا، لا بدّ وهذه السّانية لعقبي وعقب عقبي إلى قيام الساعة، لا يملكها أحد. فلمّا سمعت منه السّانية هذا الهذيان الغالي قالت له: قد أجابك لسان حالي، لا يغرّنك تمايل أغصاني ودلالي، وطعمك ثمرتي وغناؤك بما لي. لا بدّ أن نخرج عن ملكك وأنت حي أو ميت، ويملكني محمد بن محمد الدولاتلي المنتشالي فيشتريني بثمن بخس، ودراهم عدد نحس، إذا دخل في سعدك النّحس، وهلا فعلت فعل الرّجال، كما فعل أبو طلحة الأنصاري[1] الكثير بالمدينة المال، لمّا أعجبته بيدها وما فيها من غناء وشبع الأولاد والعيال استرجع واستغفر ربّه

(1) أبو طلحة الأنصاري: هو زيد بن سهل بن الأسود النجاري الأنصاري، صحابي، من الشجعان الرماة في الجاهلية والإسلام كان من كبار الأنصار. شهد العقبة وبدرا وأحدا والخندق وغيرها. وفي الحديث: لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل. توفي سنة 34هـ/654م.

وقال: هي صدقة على الأقارب والآل، ولكنّ يا شيخ غرك عزك وسلطانك سوف ترى حين يشمت بك عدوك وجيرانك، «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون»[1]. فمن ذلك الوقت صار الشّيخ الصّغير داود في المحن والفتن وكان أمر اللّه قدرا مقدورا.

[اخبار علي شعيب:]

ومنهم الثالث بعد الصّغير داود رحمه اللّه في المرتبة، الشّيخ العالم والكامل الفاضل قاضي القضاة، سيدي علي شعيب[1] نسبا الباجي لم ياتك قاض مثله لا في ما مضى ولا فيما هو آت، وقد نبّهه اللّه في حكمه بالفراسة الكاملة الصادقة، فلا يكاد يخفى عليه من الدّعاوى المحقة والباطلة، هو الألمعي الذي يظنّ كل الظّن كان سمع أو قد رأى، وعلت منزلته عند الأمير حسين سامحه ربّ العالمين، واغتبط الباي حسين بقاضيه علي شعيب، حتى لا [290] يختلج في صدره ريب، ومن سعى إلى الباي حسين فيه بعيب، كذّب وانتهر السّاعي وقال له: اذهب، فأنت عليه تكذب، وإنّ قاضينا علي شعيب سالم في اعتقادنا من العيب، وقد ذكر الحاج حسين خوجة جامع كتاب «بشاير أهل الإيمان» طرفا صالحا في أول عمر الشّيخ علي شعيب ولم يستوف بقية عمره، وما جرى له وأظنّ أنّ صاحب الكتاب قد انتقل إلى رحمة ربّه قبل الوقعة والفتنة واللّه أعلم.

(1) قرآن: الشعراء، 227.
(2) علي شعيب: انظر بشاير أهل الإيمان: ص 259 ـ 260 وابنه ابراهيم: ص 149 ـ 150.

وقد اشتهر الشيخ قاضي القضاة علي شعيب بالأحكام المصيبة في مملكة تونس بين البعيد والقريب، وكان رزقه الله ولده ابراهيم فأقرأه القرآن، وعلّمه علم المعاني والفقه والبيان، فصار آية زمانه، وعالم وقته، لا قياس في العلم به أحد، لا من قرب ولا من بعد. وساد وشاخ وأبوه حيّ حريص على نفع الطالبين للعلم، أولي الذكاء والفهم، وأكثرهم حضر تونس فانتفعوا بتعليمه وتخرجوا كثيرا على يده اذا قرر أجاد، وإذا صدر افاد، وكان الشيخ ابراهيم شعيب متقشفا في لباسه وثيابه، لا يعبا بما زانه ولا بما شانه، وكانت طلبته على ذلك يلومونه.

ولمّا رحل الشيّخ علي شعيب من مسقط راسه قرية باجة بأمر الباي حسين لما سمع بعلمه وفضله، وكان استقضاه سابقا بباجة، فلما قدم على الباي حسين ولاّه قضاء المحال وباردو وما ورى بابه، فأتى بكلّ حكم صايب غير سقيم، وإذا جاء وقت خروج الباي حسين، سامحه ربّ العالمين، خرج معه القاضي علي شعيب لنفوذ الأحكام بين الناس ونصر المظلوم [وقمع الظلاّم] فخفّف على أميره وسلطانه كل أمر ثقيل بما يشفي الغليل ويبري العليل، وخصوصا في محلّة الصيّف، وتجتمع وتتلاقى أصحاب الدّعاوي والشكوات جبال وبحيرات. فإذا دخلت النّاس المتخاصمون [291] إلى الباي حسين ووقفوا بين يديه صرفهم كلّهم إلى القاضي علي شعيب فيقعد لفصل الأحكام بين الأنام، فمن كثرة الخلق يجلسون قدام القاضي ويدورون به من كلّ ناحية صفوفا بعد صفوف،

وهو يلتفت ساعة إلى ورايه وساعة إلى أمامه وخلفه، وساعة إلى قدامه من الصبّاح إلى قريب الزّوال، لا يلحقه تعب وليس عنده ملال، حتى يقضي بين ذلك الصفوف من النساء والولدان والرجال، والأمير حسين رحمه اللّه معيّن له كلّ يوم من حوانبه حانبة يقف بين يديه، فإذا احتاجه خدّمه في الأمور المتعبة الشاقة، وإذا أتوه المتخاصمون في الأمور العادية من عمّالهم الظالمين متظلّمون أمر ذلك الحانبة الواقف بين يديه أن يدخل على الباي حسين ويبلغه ما أمره به القاضي، ما فعلته الظالمون بالمظلومين، فإذا وصل الخبر إلى الأمير حسين سامحه اللّه، وكان الغالب عليه العدل، فعند وقت سماعه يرسل الحوانب ياتونه بذلك الرجل ويقف بين يديه الظالم والمظلوم، ويفصل بينهم بحكم ما فيه عليه لوم، وإن كانت قضية عادية غميضة عويصة ووصلت إلى القاضي علي شعيب صبر حتّى يتلاقى بالباي حسين في بيته فيقصّ عليه ما وقع من المشكلات والعوايص العادية في قانونه، ويشرح له مشكلات ذلك القضايا، وما أحاط بالرّعية من الخساير والمقاتل والبلايا، فيزداد عند الأمير حسين عزاً ورفعة ومكانة وغبطة، ثمّ يشاور الباي حسين القاضي علي شعيب كيف الخروج من هذا الأمر المرعي، حتى نصل إليه بوجه شرعي، ففي الوقت يستخرج [292] له من المشكلات المرخصات، ما هو جامع بين الشرع والعاديات، فيمضي حكمه، ويسمع قوله، ويزيل عنه خوفه، وتحسن عاقبته، فيزيد الباي حسين في إكرامه ويخلع عليه من لباسه.

وكان الشيّخ علي شعيب وما هو فيه من المعرفة يجل كثيرا قاضي تونس ومفاتيها، وإذا اجتمع معهم تملق لهم ومدحهم وأعلى منزلتهم ويقول لهم : ما أنا الا عبدكم وخديمكم وأنتم الأعلام السادات، أولو الفضل والكرامات، فيعجبهم قوله، ويكرمونه ويعلمون بفضله سلطانه. فإذا بالغوا في مدحه عند أميره قالوا له : من قوّة سعد سلطانك أن رزقك اللّه قاضيا علي شعيب في دولتك وأيامك، فيزداد الباي حسين رحمه الله به غبطة ومحبّة ورفعة، ودام مع أميره الباي حسين على تلك الحال، إلى أن فرّق بينهما بالحياة الكبير المتعال.

وكان الأمير علي باشا في أيامه التي قضاها بدار رمضان باي بتونس يتظلّم كثيرا من الحاج يوسف برتقيز، ومن الشيّخ القاضي علي شعيب، ويشتكي لمن جالسه ما كان سبب تغيير قلب عمّي حسين إلاّ هاذين الرّجلين، وأخرجني من باردو وحبسني في هذا الغار النتين، ولا يعلم بي أحد من أحبابي هل أنا حيّ أم من المدفونين الميتين، ويتوجع، وتارة يتهلّع، ويتوعدهما بالتّعذيب والقتل، إن يسرّ اللّه لي وفتح عني هذا القفل، ويرزقني اللّه لحل هذا القفل المفتاح، وهو اللّه الرحيم الفتاح إلى أن خرج الباشا علي إلى وسلات ثمّ ذهب إلى وجق الجزاير كما تقدّم، ومكث في الجزاير ما مكث، ونصره بالعسكر والقوم ابراهيم خوجه[1]، والتقى هو وعمّه وكانت الدايرة على عمّه كما ياتي. وكان الشيّخ علي شعيب مع الباي حسين في ذلك المحلة بخبايه ومؤنته وخدامه.

(1) إبراهيم خوجة : انظر ج 1 ملاحظة 84 ص 284.

ولما سافرت أنا الفقير إلى ربه محمد بن محمد بن يوسف في تلك المحلّة لأنّي نازل إذاك في الراتب وأنا في خباء في الدور [293] وأقمنا بهذه الدار المسماة سمنجة[1] ستة عشر يوما، فإذا ضاق خاطري امتلا قلبي ذهبت إلى خبايه في الوسطية فيفرح بي كثيرا ويسخف على حالي ويتندّم على خروجي في المحلّة، ويقول : لو أتيتني قبل خروج المحلّة ما كنت تركتك تخرج في هذه المحلة. ويحدّثني إلى أن أذكر لك حكاية في حقّ رجل خرج على سلطانه ذكرتها في أول هذه الورقات. ولمّا وقعت الكسرة[2] على المحلّة وهرب الباي حسين وهربت النّاس وتفرّقت، وكلّ واحد أو جماعة قصد الذي هداه اللّه له، فمنهم الشيّخ علي شعيب لمّا خرج من المحلّة راكبا فرسه، هاربا بنفسه، قصد تونس. فلمّا بعد عن المحلّة تلقته خيل فقلعوه وسلبوه، ثمّ تأمر فيه واحد من ذلك الخيل فعرفه فردّ إليه سلبه وركّبه فرسه وشيّعه إلى أن بلغ مامنه، ثمّ سار ذلك الرجل وولّى لاحقا إخوانه وستر اللّه الشيّخ علي شعيب كما ستر غيره، ودخل مدينة تونس. وقصد داره واجتمعت به أولاده وعياله وفرحوا بسلامته وقدومه، فارتاح قليلا وخرج من داره وقصد دار الحاج يوسف برتقيز[3] ببير الحجار،[4] فاجتمع به فوجده كأنّه ما له علم بكسر المحال، لم يخمّم[5] في

(1) سمنجة : من ولاية زغوان.
(2) الكسرة : يعني الانهزام.
(3) يوسف برتقيز : انظر : ذيل بشائر أهل الإيمان، ص 257 ـ 259.
(4) حي بتونس قرب نهج الباشا.
(5) يخمّم : عامية : يفكّر.

الهروب ولا خطر له ببال، فغلّطه وخرج من عنده وقصد داره ودخل بيته وأخذ ما وجد من ماله ثمّ تحزّم وأسرج فرسه وودّع أولاده وعياله فقالوا له : كيف تترك الأولاد والعيال، ونحن بعدك أضيع من عيلة ليس لهم مال ولا رجال؟ فسكت عنهم وسقطت دموعه على لحيته، وقال لهم : الذي فرقنا عسى أن يجمعنا، وعليكم السّلام وركب فرسه ونكر لباسه وخرج من تونس عشية قدومه، وخرج من تونس داخل الليل، غايبا على نفسه من كثرة ما حلّ به من الويل، ولا زال سايرا ليله ونهاره متحذرا عدوه [294] إلى أن بلغ إلى عرش نفزة وكان بهذا العرش أنسابه فلم يقصد دوارهم ولا نزل عندهم لعلمه أنّهم ليس لهم قدرة على المنعة إذا أتاه من يطلبه. وكان الأمير كمن عليه فقصد دوار الشيخ الضيّف ولد فرج بن بوقرة وهو راس وشيخ عرش نفزة، ونزل في بيت الضيف لما فيها من المنعة، وهذا عرش نفزة. كاد الشيخ علي شعيب أن يعبدوه دون رب العزة، ولا قول إلاّ قوله، ولا فعل فيهم إلاّ فعله، فلمّا قدم على الشّيخ الضّيّف ونزل في بيته فرح به واستبشر بقدومه وتشرّف بحلوله، وكان بلغهم خبر الكسرة وهروب الأمير حسين إلى القبلة ودخول الباشا علي لتونس فقال الشّيخ علي شعيب : يا شيخ الضيف هل تمنعني مما نخاف أو نرحل من عندك ونلحق بروؤس الأجراف[1]؟ فأجابه الشّيخ الضيف بقوله : إذا رأيت راسي وروؤس إخوتي وموت رجال قبيلتي

(1) الجرف : ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض، والطرف الذي في حاشية النهر الذي أكله الماء فإنه يسقط كل ساعة طرف منه، والجرفة : الجبل من الرمل.

فعندها إليك وإلى اللّه، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه، هوّن الأمر عليك، وروّح على نفسك، ونحن مماليكك وخدامك. فلمّا سمع الشّيخ علي شعيب هذا الكلام من الشّيخ الضّيّف وإخوته وبني عمه دعا لهم بخير وشكر فضلهم وحلّ فيما بينهم وصار يتشوّف إلى الأخبار اللّيل والنهار.

وأمّا الباشا علي سامحه اللّه لمّا دخل باردو وتمكّن من كرسي تونس أوّل ما سأل عن الحاج يوسف والشّيخ علي شعيب فاخبروه أنّ الحاج يوسف برتقيز دخل زاوية الشّيخ الولي الصالح سيد أحمد بن عروس[1]، هووأولاده وعياله، فبعث إليه وطمّنه وعاهده أن لا يضره فخرج من الزّاوية. وأخبروه أنّ الشيخ علي شعيب لمّا رجع من الخطرة[2] دخل داره ثمّ ركب فرسه عشية وخرج وهرب ولا قدروا عليه أين ذهب، فتلهّف الباشا على فواته ومنعه من يده، وعضّ أنامله، وصار يسأل عليه إلى أن بلغه خبره أنّه عند الشيخ الضّيّف بنفزة متمنعا [295] في بيته، فمن قوة غيظ علي باشا على الشّيخ فحين بلغه هذا الخبر عيّن حانبة وكتب له الأمر فيه تملقات ومغالطات وتقرّبات وأيمان كاذبات للشيخ الضّيّف والشّيخ علي شعيب وأمر الباشا علي في أمره أن يقدم ليجدّد له أمره ويشيّخه وعلى أبناء عمّه يرفع قدره، ويأتي معه بالشّيخ علي شعيب ويقدم علينا به الضّيّف لأجل أن يخبرني ما

(1) سيدي أحمد بن عروس : من أولياء تونس، توفي في 8 صفر 868هـ/1463م انظر عنه كتابنا «الضوء المبين في التعريف بأولياء تونس الصالحين» ص 91.
(2) الخطرة : المعركة.

سبب هروبه منا، وتغيّب وجهه عنّا. فلمّا وصل الحانبة إلى بيت الشّيخ [الضيف] وعلم أنّه ارسله الباشا علي أكرمه غاية الإكرام، وسيّب له أنعاما بلا قيود وضعاين بلا جلود، وزاده في خدمته حتى يشكره بين يدي مخدومه واستخلى بالشّيخ علي شعيب وقال له : هذا كلام من هذا الرّجل يحسبه الظمآن ماء وهو سراب بقيعة[1] لا يجد إلاّ على من يحصل في الدويرة، والحاذق لا يصغي لهذا الكلام. ثمّ التفت إلى الحانبة وقال له : سلّم لنا على الباشا واذهب بسلام، فركب الحانبة ولا زال سايرا إلى بلغ باردو وأخذ الاذن على الباشا ودخل عابرا ووقف بين يديه وأخبره أنّ الشّيخ الضِيف وجدته مريضا، ولما قرا الأمر استعذر وأمرني بالرّجوع، ووعدني أنّه إذا فاق من مرضه يقدم علينا أولّ الشهر، وخاف الحانبة من الباشا، إذا أخبره بالواقع، لحمه على العصا يتلاشى.

فلمّا سمع الباشا هذا الكلام منه جدّ عليه[2] وصار يترقّب في قدوم الشّيخ الضِيف والشّيخ علي شعيب. ولما علم الشّيخ علي شعيب تمكّن الباشا علي من البلاد خاف على نفسه أن يضربه بالرّصاص بعض الأوغاد، مخلص الشّيخ الضِيف بالإقامة عنده وصار يترقّب ويترصدّ إلى بعض الأماكن يسفر له إلى أن وجد الشّيخ علي شعيب مسلكا للانتقال فركب فرسه وسار وحده راخفا[3] عنان فرسه كأنّه يوسّع في خاطره

(1) اقتباس من القرآن : النور، 39 : أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.
(2) أي صدّقه.
(3) راخفا : مخففا.

إلى أن بعد عن النزلة ووجد من القوم غفلة، فجدّ في مسيره ملتفتا إلى ورايه داعيا إلى ربّه متوسلا [296] برسوله صلى الله عليه وسلّم إلى أن دخل وسط وشتاتة، فستره اللّه، ودخل إلى عرش ماكنة فعندها علم أنّه قد خلّصه الله من هذه القايلة وجميع ذلك الأعراش من الجبالية يعرفونه وإذا لاقوه قبلّوا يده.

فمازال الشّيخ يخرج من عرش إلى عرش إلى أن بلغ إلى عرش نهد، وهو في غاية المنعة ليس هذا العرش رعية لا لتونس ولا للجزيرية، فوصله الشّيخ علي شعيب، وستره عن أعين النّاس عالم الغيب، وقصد بيت لشيخ نهد، وكان في السّابق يسمع بالشّيخ علي شعيب وأنّه هو القاضي الكبير عند حسين باي، فلماّ دخل بيت الشّيخ قال له صاحب البيت، وظنّه ضيفا كساير الضياف : اقعد يا ضيف مرحبا بك. فجلس الشّيخ علي شعيب بإزاء الرّجل وحدّثه، وصاحب العلم ظاهر. فلماّ سمع كلامه كبر عنده وأنصت له ثمّ أخبره : أنا الفقير إلى ربه عالم الغيب، القاضي علي شعيب، فقام وقبّل يده ورفع منزلته وزاد إكرامه وأقام عنده مدّة ثمّ إنّ الشّيخ تزوّج ابنته واستحوذ على عرش نهد وصار قاضيهم ومفتيهم ولا يقضون شيئا إلا بحضرته ومشورته واطمان بحلوله بينهم بنفسه. ولما سمع به بعض أقاربه من باجة رحل إليه من باجة ووصل إليه فتأنّس به الشّيخ علي شعيب بمعاشرته له في هذا الجبل، وخلص الشّيخ من الوحل.

وقيل إنّ الشّيخ الضّيف النفزي لما بعث إليه الباشا الحانبة وكان ذلك الوقت وقت الخريف وردّ الحانبة خايبا،

ومكث الشّيخ علي شعيب رحمه الله في بيته إلى زمن قرب الصيف وخروج المحلة إلى وطن باجة خاف على نفسه الشّيخ الضيف وخاف على الشّيخ علي شعيب وعلى نقص حرمه ربما إذا وردت المحلة إلى قريب نفزة ومن اللازم أن يأتي الشيخ الضيف مع مشايخ نفزة الآخرين فإذا صار بين يدي خليفة المحلة ربما أمسكه رهنا حتى ياتيه بالشيخ علي شعيب ميتا أو حيًا. وإذا لم يأته به ربما قتله [297] أو سجنه وكان الأمر كذلك كما يأتي قريبا.

فلمّا فكّر الشّيخ الضّيف في هذه الأمور وخاف على نفسه وعلى الشّيخ، فلمّا جنّ اللّيل وتعشى الشّيخ والشّيخ وكان قرب حرّ الصّيف، فخرجا من البيت واتصل الحديث بعضه ببعض، وجاءت بينهما اتفاقية ما فكر فيه هذا فكر فيه هذا حتّى وصلوا إلى حديث خروج المحلة من تونس، وقد قرب وقتها ومجيئها لخلاصها، فتكلّم الشّيخ علي شعيب، ومن قوّة فطانته وفهمه كاد أن يطلّع على الغيب كما قدمنا وبدا الشيخُ الشيخَ الضيفِ بالكلام الذي ذكرناه آنفا قاله الشيخ للشّيخ الضيف فلم يرد على الشيخ علي شعيب جوابا وطاطا برأسه ونظر إلى الأرض حياء من الشيخ ومن غفلته من عنده. فلما رآه الشّيخ علي شعيب على هذه الحالة ولم يبد له جوابا ولا مقالة قال له : يا شيخ الضيِف ليس هذا وقت حشمة ولا خفاء كلمة، قم ودبرّ علي إلى أن توصلني إلى من يمنعني ونامن عنده على نفسي فقال له : يا سيدي ما رأيت جبلا وعرشا يصلح بك

ونأمن فيه عليك إلا عرش نهد وشيخه رجل من خيار الرّجال والنّاس، فإذا حصلت في بيته أمنت من الخوف والباس، وعلمت أنك من أهل الخلاص، فقال له الشّيخ علي شعيب : من تمام معروفك وصلني إلى بيت هذا الرّجل وعرّفه بي، وهو لا بدّ عنده طرف من خبري ويكون ذلك بحضرتك ووقوفك. قال له الشّيخ الضيف : إن كان ولا بدّ من ذلك فخمل[1] رجالك واركب على فرسك ونتستّر من الشامتين والكارهين بالمسير في اللّيل، فركبا من وقتها، ودخلا في ستر الظّلام، لا علم بهما أحد في البيت إلا من هو فايق من [298] المنام.

وجداً في السّير من عرش إلى عرش، ومن جبل إلى جبل، ومن غابة ووعر إلى غابة ووعر، إلى أن وصلا إلى جبل نهد وعرشه في النّهار، وهذا الشّيخ الضيف في تلك الأعراش والجبال إلى حدادة[2] عمالة تونس من تلك الناحية عندهم له صيت عظيم، وذكر شايع فخيم، أشهر من «قفانبك»[3]، ولازالا سايرين في جبل نهد إلى أن وصلا إلى بيت الشيخ النّهدي فلما رآهما قادمين إلى بيته وقف هو وإخوته وتشوّفا إليهما من بعد ونظر البدوي صحيح، فعرفوا الشّيخ الضيِف النفزي تحقيقا فاسرعوا إليه إلى أن وصلوه ولم يعرفوا الفارس الذي معه فنزل إليهم وسلموا عليه وفرحوا بمجيئه وتحيّروا في قدومه،

(1) خمل : أعدّ ونظم، وهنا : أخفْ.
(2) حدادة : حدود.
(3) قفانبك : من أول بيت من معلّقة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول وحومل

فلمّا فرغوا من سلامه قال لهم الشيخ الضيف : كبّوا على الشيّخ القاضي علي شعيب وسلّموا عليه. فسلّموا على الشيّخ وهنّوه بالسّلامة ورحبّوا به وساروا إلى أن وصلوا بيت شيخ نهد وأكرمهما غاية الإكرام ومكثا في بيته ثلاثة أيام تمام الضيافة، ثمّ حلّت بينهم النشدة[1] والمسايلة : فأخبر الشيّخ الضيّف شيخ نهد بمقام الشيّخ وإنّي كنت به بخيلا على غيري والآن خفت عليه من هذا السلّطان. وكما تعلم نحن من رعيتّه وتحت طاعته وربما يحصل ضرر لي وله، وكذلك الشيّخ طلب منّي هذا ففكرت في الأعراش فما وجدت له محلاّ وجبلا وعرشا مانعا إلاّ عندك، وأنا نعلم أنك من الرّجال الملاح، وتحبّ أهل الفلاح، فاشكر اللّه على نعمتك الذي أتاك بهذا الشيّخ إلى بيتك، وحلوله بين أهلك وولدك، وهو أمانة اللّه عندك فاعرف يا شيخ حقّ من وصلك ويا ليته لم يخرج من تونس ولم يقصدني، ويا ليته حين قصدني وحلّ في بيتي لم يخرج من بيتي، فقال له شيخ نهد : جزاك اللّه خيرا فيما بلغت وما [299] فعلت قد وصل الشيّخ إلى بيتي وأنا إن شاء نزوّجه ابنتي، ويقيم مقامي ويرث تركتي، فهو الإمام وأنا المأموم، وهو الغالي وأنا رخيص السوّم، فهذا تمام معروفك يا شيخ الضيّف فما بقي عليك عار ولا لوم، فقم وسر بسلام، وهذا آخر تمام الكلام. وقيل إنّ الشيّخ الضيف لم يسر معه بنفسه وإنّه لمّا خاف عليه بعث معه من يثق به إلى أن وصلّه إلى بيت شيخ نهد وعرّفه به ورجع.

---

(1) النشدة : السؤال.

وأمّا الشيّخ الضيف لم يربح من هذه الفعلة وورد عليه الشيّخ علي شعيب كأنّه شعلّ في بيته شعلة، وحلّت في صدر الباشا علي هذه العملة فصار إذا جاءت محلة الصيّف وبعث فيها ولده وصاّه بالانتقام من الشيّخ الضيّف، فتارة يسجنه وإذا احتاج إليه أطلقه، ثمّ في المحلة الأخرى ليسجنه فإذا عصى عرش نفزة أطلقه إلى أن سار الباشا يطلع بنفسه في محلة باجة، فتارة يسجنه وتارة يطلقه إلى أن سجنه في حبس باجة فمكث فيه عامين أو أكثر. ثم كانت فيه منيته، ومن السجن ميتا خرجوه. كلّه بسبب الشيّخ علي شعيب الذي لم يقدم عليه به، ويبلغ فيه غرضه وينتقم فيه انتقامه كما فعل بصاحبه الحاج يوسف برتقيز بعد تعذيبه بضرب العصا خنقه، يا لله العجب محبان متعاشران متصاحبان، هذا حصل وهذا هرب وهذا ستره اللّه، وهذا كشفه اللّه، واللّه علاّم الغيوب.

ولما علم علي باشا أنّ الشيّخ علي شعيب حصل عند نهد تيقّن أنّه فاته وتخلّص من شبكته فنفخ وتنهّد وقال : منع مني القاضي الملحد. وأمّا الشيّخ علي شعيب لما حلّ في عرش نهد نفق عليه من مخبيّاته وعلومه فصار كعبة لمن قرب ولمن بعد، واغتبط شيخ نهد به وخاف أن يرحل من عنده فزوّجه ابنته واتخذه إمامه ومقري أولاده، وقاضي عرشه، [300] وطال الزمان، وتفرّقت الإخوان، ثم رحمهما الرحمان، ولحقهما أخوهما محمود كما ياتي في محلّه إن شاء اللّه تعالى، والشيّخ علي شعيب ينهّد، فاقدا الأهل والمال والجاه والولد.

ولمّا اجتمعت الاخوة بمدينة الجزاير، واتخذوها دارا وعشاير، ووصل خبر كل واحد من أصحاب أبيهم إليهم، ووصل خبر الشيّخ اليهم، أنـّه تمنّع بشيخ نهد، وأنهّ زوّجه ابنته فرحوا بسلامته من علي باشا واتصلت ساعة بعد ساعة بينهم الأوراق، واشتاقوا كلهم إلى التلاق، لما بين والدهم وبينه من العهد والوثاق، فقدّر الخالق الرزاق، على ما قيل ان رجلا من أقارب دولاتلي الجزاير قتل نفسا وحكم عليه الشرع بقتله، وتعذّر[1] الدولاتلي في موته وصار يسأل عن العلماء لأجل أن يحكمُوا له بالديّة لا بالقتل، فلما جاءه محمد باي مسلما كعادته رحمه اللّه سأله الدولاتلي : هل تعلم أحدا من العلماء الأفاضل بوجق تونس نبعث لعلي باشا يرسله إلينا عسى أن يكون عنده فتوى في عتق هذا الولد قريبنا لأنّ أمّه قد أعيتنا، ومن كثرة البكاء بين عيالنا حرصتنا، سيدي محمد هل تعلم أحدا ناتي به من بعيد أو قريب؟ قال له محمد باي[2] : هذا أمر في حكمي، لا تحتاج إلى علماء تونس، ولا إلى علي باشا ولا يونس، ابعث أمرك إلى باي قسنطينة يبعث إلى قايد عنابة أمره، فإذا وصله بعثه إلى عرش نهد وهو قريب من بلد العناب ومع أمرك أمرين من عندي واحد إلى شيخ نهد وواحد إلى قاضي والدي، فهو هارب من علي باشا ومن قتله، كما فعل بغيره، وتمنع منه بهذا الجبل، فارسل إليه يأتيك على عجل، فإن

(1) تعذر عليه : صعب وامتنع.
(2) هو محمد الرشيد باي، سيتولى الحكم من أوت 1756 إلى 12 فيفري 1759 سنة وفاته، وكان أخوه علي يشاركه في الحكم.

لم يخلصه هو من القتل بعلمه الفاضل الأجل، فما على غيره عمل. فقال الدولاتلي : [301] سيدي محمد قم في هذه الساعة واكتب إليه وعجل بالأمر وآتي به محلولا ليكتب كاتبنا على نمطه. فقام المرحوم محمد باي ووصل إلى محله وأخذ الكاغط وكتب أمرين، واحدا إلى قاضي والده، والآخر إلى شيخ نهد، وشكر صنيعه وما فعله من الخير بقاضي والده بعد الشكر والتمجيد إلخ، وإنه يا شيخ نهد تركب معه إلى أن توصله إلى مأمنه، وبعث بالكتابين محلولين إلى الدولاتلي فأمر كاتبه أن يكتب أمره إلى باي قسنطينة كما قدمناه، فكتب الكاتب وختمه وطواه وإلى الدولاتلي بين يديه القاه، فمن حينه وصله[1]، ركب الخيل أو بعث في البحر، الله أعلم.

ووصلت الأوامر في أقرب وقت ومدة[2] إلى باي قسنطينة فركّب من حينه وبعث الأوامر إلى قايد عنابة فركب بهم الخيل ووصلوا الأوامر إلى عرش نهد فبلغوهم إلى شيخ نهد فلما حصلت الكواغط في يده أتى بهم إلى الشيّخ علي شعيب ففكهم سراً[3] وقراهم فتبسّم ضاحكا وأخبر الشيّخ بما فيه الأوامر، فتمرغ شيخ نهد في التراب كأنه حصان حامر[4]، وبكى واستوجع وقال : قد ذهب عني الخير. فقال له : يا صهري، ومن الشدايد نصيري، والحمد لله صرت والدا لصغيري، والله ما في علمي

(1) ساقطة من ص
(2) في أ : مديدة عوضا عن وقت ومدّة.
(3) فك الرسالة : فضّها.
(4) فرس حامر : فرس قد بشم من أكل الشعير.

أني نرحل من عندك الآن يأتي آخر عمري، ولكن يا صهري هذا أمر ليس في مقامي ولا تأخيري، فجهزني وعجل بمسيري، وأمانة الله عندك زوجتي وصغيري. فلما أيس الشيّخ من مقامه أعطاه مركوبه وسار معه إلى أن بلغ مأمونه إلى أن بلغ قسنطينة واستراح بها أياما قلايل، وركب معه باي قسنطينة الخيل وطووا المراحل، وقطعوا المنازل، كأنّهم على جناح طاير، إلى أن وصلوا مدينة الجزاير، فسبقت بخبره إلى محمد باي البشاير، فاسترقبه إلى أن وصل الشيخ علي شعيب إلى داره فلما تراءيا بالأعيان، فاضت العيون بالدمعان، وسلما بعضهم على بعض، وبعد وقوفهم جلسا على الأرض، وأدوا أيام الضيافة ثم حلّت المسايلة فحكى محمد باي صورة قتل الولد النفس [وحكم عليه الشرع بالقتل والحبس والدولاتلي متراخ في أمره لأنه بعض من أحبابه، فبقي الدولاتلي] متلهّفا [302] على طالب علم ربما يجد عنده فتوى في عتق الولد ويعطي في دية المقتول ولو الفا، فقال القاضي الشيّخ علي شعيب : ارسل إلى من يأتيك بالوثايق التي فيها صورة قتل الولد، فبعث محمد باي نورّ اللّه ضريحه، واسكنه أعالي الجنان وفسيحه، إلى من بيده الوثايق فجاؤوه بالوثايق، فأخذها الشيّخ علي شعيب يتأمل فيها ومن محمد باي القلب يرجف وخافق، خوفا أن لا يخرج من هذه المضايق، فتأمل فيها طويلا ثم التفت إلى محمد باي وقال له : هل تعلم في هذا البلد من عنده من الكتب كثيرة العدد؟ فقال له محمد باي : نبعث ونسأل

عن ذلك. ولمّا قدر اللّه بتيسير الأمور، وتسهيل كل أمر معسور، سأل محمد باي على من عنده الكتب الكثيرة فاخبروه أن دار فلان فيها خزنة من الكتب كثيرة، فبعث إلى متولي ذلك الخزنة فأتاه على عجلة وقعد بين ايديهما. فلمّا استراح خاطبه الشيّخ علي شعيب : هل تعرف ما في هذه الخزنة من الكتب؟ قال له : نعم. قال : هل في هذه الكتب الكتاب الفلاني للشيخ الرباني؟ قال له : نعم. قال له: عجلّ وقم واتيني به من غير تأخير قدم، والشيّخ علي شعيب عالم بما في هذا الكتاب، وما فيه من السؤال والجواب، وما يحيط عليه من الفتاوي في فك الأرقاب، فقام الرجل من عنده وفي أقل من ساعة دخل عليه وحطه بين يديه فأقامه الشيخ ونظر فيه ومحمد باي ينظر إليه، فقلب أوراقه، وتأملّ أبوابه، ونظر فصوله إلى أن وجد قضيته والشيّخ عالم بها قبل مجيئته، فحطّ الكتاب من يده وجعل لسان الكتاب أمارة على قضيته، ولم ينطق لمحمد باي بحرف، وسكت عنه. ومن عادة الشيخ إذا كان غالبا تدرك(؟) على المرتجية فصنع هذا الصنيع مع محمد باي حتّى خلاّ منه القلب يرجف، فقال له : يا سيدي لولدك اعطف وارأف[1]. فقال له : ان أردت [303] قضاء حاجتك فعجل لي من الدراهم بألف على جهة المباسطة، لما بينهما من الألفة والمفاكهة، ثم قال له : اخبر الدولاتلي اليوم الفلاني يجتمع المجلس عنده ويتحاكمون قدامه. وكان قبل ذلك بلغ الدولاتلي قدوم الشيّخ،

(1) ساقطة من ع

وفي المدينة أمره وعلمه اشتهر، فكلّ من كان مقدّما رجلا في هذه القضية تأخر، وإلى ورايه قهقر، وفي خصامه قصر، «كأنهم حمر مستنفرة [فرّت من قسورة[1]»، فلما جاء اليوم الذي يطلع فيه محمد باي رحمه اللّه إلى دار السلطان، يسلم على حاكم الزمان، لا سامحه اللّه الزمان. حيث يخدم المخدوم ويسطو عليه بالقهر والطغيان، طلع محمد باي وتلاقى بالدولاتلي وأخبره بصورة الحال وما الأمر إليه يولي، ففرح الدولاتلي بهذا الكلام، واستبشر واستنور وجهه ، ورموا الوثايق قدام المجلس، مضمونهم أن هذا الولد قتل النفس. ولما وصل الخبر إلى أمّه أن ولدك نصبوا عليه المجلس ارتاعت وطلعت إلى أن وقفت بين الناس ناظرة إلى ولدها، إما أن يأمروا بقتله أو يردّوه إلى الحبس، أو في هذا المجلس يخلص، فترددت الوثايق بين القاضي وشهوده وحكموا على الولد بقتله، فعندها تكلم الشيخ علي شعيب وجادلهم، وفي القضية باحثهم، فانكروه وقالوا له : هذا أمر ليس فيه مخلص، أفدنا إن كان عندك فيه نص، فأخرج لهم الكتاب من تحت ثيابه، وأمرهم بالنظر في فتاويه واحكامه، وهذه القضية ليس فيها الديّة، وإذا صلصل البازي فلا ديك يصرخ، وإذا زهر الأسد فلا سامع ينفخ، وسكت كل من حضر في المجلس وحكم الشيخ علي شعيب بالدية على الولد حين اتهموه بقتل النفس.

(1) قرآن : المدثر، آية 50و 51، ومن هنا إلى آخر الفصل ساقط من ص.

فلما سمعت والدة الولد بخلاص ولدها على يد القاضي علي شعيب زغرتت، وبنجاة ولدها من الموت فرحت، ووصل الخبر إلى عيال الدولاتلي زغرتوا وفرحوا بما أوتوا وانفرق المجمع كل منهم يقول : القاضي علي شعيب حكمه مصيب، من غير عيب ولا ريب.

وزاد محمد باي رحمه اللّه رفعة في مدينة الجزاير وخصوصا عند الدولاتلي لما كان في هذه القضية حاير، وأمر للشيخ علي شعيب بأثاث ودار، وبعثت إليه والدة القاتل بالدرهم والدينار، فحل الشيخ بمدينة الجزاير وسكنها. ولما استوطنها قال لمحمد باي : أنت لها، أنت لها، أريد منك أن تستلطف بالدولاتلي وتذكر له مصيبة عيالي في مدينة تونس وضنكها، وتفرقت العيلة، وتشتت حالها من كثرة ما حل بها، وأريد من فضلك واحسانك أن تخبر الدولاتلي بحالي وحال عيالي يبعث لعلي باشا الذي بظلمه لا يتحاش، يرسل إلي زوجتي وبناتي، ومن هو حي معهم ياتي. فرق له محمد سامحه الله ووعده بقضاء حاجته وتبليغه مراده.

فلما جاء اليوم الذي يقابل فيه الدولاتلي طلع إلى دار السلطان واجتمع بالدولاتلي كعادته وزاد مجابرة في مكانته فتحدّث معه ثمّ بأمر الشيّخ علي شعيب أخبره. فمن ساعته أمر كاتبه أن يكتب إلى علي باشا سامحه اللّه كتابا مؤكّدا حين وصول الكتاب إليك : ارسل إلى مدينة الجزاير عيال الشيخ علي شعيب ولا تخلف له بمدينة تونس بنتا ولا ولدا، وجهزهم بما

يحتاجون إليه وإن أردت ودنا ومحبّتنا هذا الأمر لا تتراخى عليه.

فلماً كتب الكاتب الكتاب ختمه وطواه، وإلى الذي عينه للمسير به أعطاه، فسافر بالمكتوب متكّلا على علام الغيوب، إلى أن وصل إلى باي مدينة قسنطينة، وأخبره السيّار بحرص وصول هذا الكتاب إلى علي باشا ليقضي ما في مضمونه. فأرسل باي قسنطينة الكتاب مع بعض السيارة، وأمره أن يجدّ في السير من غير زهدة، فسار السيار طالبا وجق تونس، إما أن يتلاقى بالباشا أو بولده يونس. وجدّ في سيره، كما وصاه به أميره إلى أن وصل باردو. أخبروا الباشا بقدوم السيار، فأذن له بالدخول، وظهر في وجه الباشا الغيار، فدخل عليه السيار، وأعطاه المكتوب، ففكّه وقراه. فلما علم ما فيه إلى ورايه القاه، وأمر وكيله على تنزيل السيارة فسار بالسيار وأنزله بالمكان المعدّ له.

ولما قام علي باشا من بيت الملك دخل دار العيال، وتلاقت به كبيرة مامية أم أولاده، فأخبرها بمضمون ما ورد عليه من دولاتلي الجزاير أن نرسل إليه عيلة علي شعيب كبيرها وصغيرها، وأنّى لي بجمعها؟ قالت له : أنا أكفيك هذا الأمر المهم، وأشرح بالك من هذا الغم.

ومن ساعتها احضرت من عندها من العجايز خدامها، أن يطلعوا إلى تونس ويسألن عن دار زوجة علي شعيب وعيلتها وبناتها وأولادها.

فسرن إلى تونس، وسألن عن المرأة وعيالها، فما ردّ عليهم أحد خبرها، وداروا في المدينة وارباضها حتّى أيسوا من لقايهم، وطاح عليهم الليل، فباتوا في تونس، ومن الغد أخبروا المشايخ بما يفتشن عليه. فكل المشايخ بعث خدامه ينشدون ويفركسون حتى كادوا أن لا يقفوا لهم على أثر، وليس عند أحد عليهم خبر. فرجعوا إلى مشايخهم، وأخبروهم أنهم لم يجدوهم، ولعلهم ماتوا ودفنوهم، فانتهرتهم مشايخهم وبعثوا مكانهم غيرهم فبعد الاياس رجعوا وفتشوا الربوطات وخراب ديار المدينة فوجدوهم في بعض الديار خايفين مستخفين في أشد ما يكون من ضيق الحال، وقلة المال، فرجعوا إلى مشايخهم وبشروهم أنهم في المحل الفلاني. فأخبر الشيخ العجايز بالدار الذي فيها زوجة علي شعيب وعيلتها وأنهم في الدريبة الفلانية في المحل الفلاني، فرجعن إلى باردو. وكانت زوجة الباشا قد استبطتهم. فلما قدمن عليها نهرتهم وصبرت إلى أن دخل الباشا علي دار العيال فأخبرته بأنّي بعثت العجايز إلى تونس ففتشوا عليهم فما وجدوهم، وأعلمته ببقية خبرهم فقال لها الباشا : ابعث إليهم واخبرهم انهم باعثهم إلى الجزاير فيجهزوا أنفسهم ويخملوا حوايجهم. ففي اليوم الفلاني يكون سفرهم فبعثت العجائز كبيرة مامية إلى تونس ووصلوا إلى الشيخ وأخبره أن يرسل معهم أحدا من يوصلهم إلى الدار التي فيها عيلة علي شعيب، فبعث معهم من وقفهم على الدار، فلما وصلوا إلى الدار دقوا الباب ففتحوا لهم فسألوا عن زوجة

الشيخ علي شعيب فراعهم ذلك وخافوا وضجوا بالبكاء، فقالت لهم العجائز : لا باس عليكم، نحن قدمنا إليكم نبشركم وبما يسركم لا تخافوا ولا تبكوا، ان السيدة كبيرة مامية تسلم عليكم وتبشركم بأنّ الباشا علي باعث بكم إلى مدينة الجزاير لتجتمعوا براجلكم، فقالت لكم السيدة : جهزوا أرواحكم، وخملوا حوايجكم، واقضوا مآربكم، ففي اليوم الفلاني يكون من تونس خروجكم، وإلى الجزاير مسيركم.

فلما سمعت زوجة الشيّخ علي شعيب هذا الكلام قالت للعجايز : وبماذا نجهز أرواحنا والله ما نجد درهما نشتري به خبزا أو إداما، ومع هذا كيف يتركنا نسافر من له علينا دين ومن له عندنا سلف فعيشت به هذه الأيتام، والصبر لله على ما حكمت به الأيام، ويا اخوتي، ادخلن البيوت، وانظرن هل تجدن فيها ما يباع أو أثاث أو متاع، ونحن بالشرّ جياع، فدخلت العجايز البيوت، ونظروها فما وجدوا فيها الا الفار يلعب في نواحيها، فرقوا إليهم، وذرفت دموعهم من عيونهم، وقالوا : قبح اللّه الزمان الذي لاهله غدار خوان، كأن هذه العيلة ما خدموهم خدم ولا وصفان، وخرجوا من عندهم، وإلى زوجة الباشا بلغوا خبرهم، وكيف ضيق حالهم، وضنك معيشهم.
قيل : لما سمعت كبيرة مامية هذا الخطاب، قالت : قبحه الله الزمان، المفرّق بين الأقارب والأحباب. وفي ساعتها قيل بعثت إليهم بمائتين ثنتين ريالا وملبوسا كثيرا وقمحا وشعيرا وزيتا عسيرا. وأخفت على الباشا هذه الصدقة، ولما دخل عليها

الباشا امرت العجايز أن يقفن بين يديه ويخبرونه بما وجدن عيلة الشيّخ علي شعيب لما هم فيه وما هم عليه.

قيل لما سمع الكلام أمرهم بمال وطعام وادام، ووصلن العجايز الأمانة من عند السيدة إلى الزوجة والأيتام، ووصلهم من عند الباشا ما أمر به مع بعض الخدام، فاستروحوا بهذا الخير، فرحوا وخلصن رقابهم من الذي سلفهم وداينهم، وجهزوا أرواحهم في كلّ ما يستحقونه وباتوا تودعهم الحراير، لأنهم مسافرون إلى مدينة الجزاير. فلما جاء اليوم الذي أمرهم به الباشا علي باتوا على تخميل يرتقبون الركوب على البغال والخيل فأتاهم الخديم إلى باب الدار وقال لهم : اخرجوا وتوكلوا على العزيز الجبّار، فخرجوا كلهم وقصدوا المحل الذي علي باشا سامحه الله عين لهم فوجدوا الخيل والبغال، فركبوا وساقت بهم الرجال، متوكلين على الكبير المتعال، وجدّوا بالعيال المسير، من غير راحة ولا تقصير، إلى أن بلغوا إلى قسنطينة، وارتاحوا من الغصة والغبينة. فأكرمهم باي قسنطينة في النزول، وبعث إليهم بالشايح والمبلول.

ولما استراحوا من التعب بعث إليهم باي قسنطينة : كونوا على أهب. فلما قضى باي قسنطينة مآربه بعث إليهم فركبوا خيله وأبغاله وساروا قاصدين مدينة الجزاير، داعون الله أن يسترهم من المعاير، إلى أن وصلوا إلى مطلبهم، واجتمعوا بشيخهم، وفرحت العيلة باجتماع الأحباب، وخلوصهم من الشرّ والأوصاب، واستوطن الشيخ علي شعيب

مدينة الجزاير، وتزوج فيها ببعض الحراير، ولحقته من بلده باجة كل من في قلبه حاجة، وبلغوا بناته، فزوّجهم لرجال بلده باجة، وجعلهم أصهاره إلى أن قدر اللّه الملك الحي بتولية المملكة ولدي حسين بن علي فتوفي الشيخ علي شعيب قبل تملكهم مملكة تونس بمدة قريبة. وكان خروج الشيخ علي شعيب من تونس سنة سبع واربعين [1147] وملكوا البلاد بقدرة الملك الحي محمد سامحه الله وعلي باي سنة تسع وستين ومائة وألف [1169]. فمدة اقامته بنفزة ونهد والجزاير إما عشرون أو واحد وعشرون سنة، وقضى الله له في سابق أزله أنه لم يبلغه ما يترجاه ولم يوصله إلى ما يتمناه. وأما ولده وبناته ومن بقي من عيلته بلغوا أمنيتهم، ورجعوا إلى مدينة تونس وردّ اليهم أملاك الشيّخ بأجمعها المرحوم محمد باي بمساعدة أخيه علي باي، فهم اليوم يتصرفون فيها ببيعها وكرايها، وبقي على الشيخ علي شعيب أوزارها وأثقالها. وباقي علينا ذكر ولده المسمى ابراهم، هكذا اشتهر اسمه بين الناس. والا الأصل الاسم ابراهيم، ولكن من كثرة هذا الاسم على الألسنة حذفوا منه الياي ليخف في الذكر، فمن قال ابراهم وأحرى أن يكون عجيبا لا يقدر ينطق تمام الاسم لما فيه من الثقل. قال ابراهيم :

واعلم أن ولد الشيخ علي شعيب ابراهيم، وله ولد آخر يقال له أحمد. فأما ابراهيم فكان عالم زمانه، والفايز بالتحقيق على أقرانه، المنفرد بالتقرير، المعلوم بالتحرير، ساد وأبوه

حي واشتهر بالحلم في الآفاق، وتشوف إليه كل مشتاق، وما عسى أن أقول في حقه وهو المشهور بالعلم، والذكا والفهم، وهو صاحبي ووالده صاحب أبي. ولما قدر الله تعالى الملك العلي بالخروج من تونس على حسين باي كما يأتي بيانه ان شاء ربنا وربه، كما تقدم بعضه، وتفرقت أصحابه منهم الشيخ علي شعيب المتقدم ذكره بقي في الدار بعده ولداه ابراهيم وأحمد وتلهف الباشا علي كثيرا على خلاص الشيخ علي شعيب من شبكته، فقال له بعض الأعداء : عليك بولده وحياة قلبه فإذا ربطته في السجن فإذا سمع به عساه يحن فيرجع إليك فأوقعه في المحن. وكان بعض المحبين للشيخ ابراهيم شعيب حاضر لهذا الكلام فقال في نفسه : تطلع إلى تونس وبلغه الكلام.

فلما وصل إلى داره نادى ولده وكان من جملة طلبة الشيخ ابراهيم وقال له : اذهب إلى دار شيخك وقل له : رجليك اليك فإنه قد وشى بك عند من يريد قتل أبيك وأنت مأخوذ في مكانه. فإذا سمع بك والدك عساه أن يرجع إلى علي باشا ومحاينه. فاستعجل الولد في خطاه إلى أن بلغ الشيخ ابراهيم وهو في الدار فسارّه ما به إليه أبوه القاه، فتنكر الشيخ ابراهيم وخرج من داره وخلف أولاده وعياله وأخوه ليس عنده تحقيق وأظنه تحصّن بزاوية، وكانت بمدينة تونس طلبة حظّ أكابر كل منهم مونس، وفيهم من هو محب للباشا، وفي الفتنة في محبته لا يتحاشى. فلما سمع الطالب الولد بتحصن الزاوية الشيخ

ابراهيم شعيب بلغ إلى والده خبر شيخه فقال : نسعى في قبول الباشا عليه ونخلصه ولا يبقى عليه ريب، فسعى بجده واجتهاده واتخذ معه عاضدا وردا في خلاص شيخ ولده ورصدوا وقتا لمكالمة الباشا علي في حق الشيخ ابراهيم بن الشيخ علي.

فلما جلست الجماعة في مجلس علي باشا وتحدّثوا عنده وخرجوا من بحث إلى مناسبة بحث إلى أن وصلوا في البحث إلى الشيخ علي شعيب فساعدوا الباشا علي في خاطره وقالوا له : هو صاحب عيب وأي عيب، فانبسط علي باشا لهذا الكلام المهم، ثم عطفوا وقالوا للباشا : يا خسارة فيه ذلك عالم الاعلم صاحب الذوق والفهم معاذ الله أن يكون ذلك الفرد من نسلهم. قال لهم علي باشا : ومن ذا قالوا له ولده ابراهيم، فأبوه وأقاربه بريء منه وهو بريء منهم.

وأطالت الجماعة في حقه مدحهم. فقال لهم علي باشا : ما لنا عليه دالتان وقالوا له : لما خاف منك وهو محب فيك فبلغه توعدك فتحصن في زاوية ولا زالوا يحكون له في الذروة والغارب إلى أن قال : اطلعوا لتونس واقصدوه أين هو، فإني أمنته في كل ما أنا فيه أبوه طالب، وهو بريء من هذه المعايب. فلما انفصل المجلس وطلعت المحبون إلى تونس بعثوا للشيخ ابراهيم للزاوية وقالوا له : اخرج فقد آذنا لك من الباشا الأمان، وارجع إلى دارك واطمان. فلما بلغه الخبر رجع إلى داره وفيها استقرّ.

ولما انفشى هذا الخبر، بين الناس واشتهر، وسمعت به أكابر وسادة، قام وقعد وعبس ونكس الشيخ محمد سعادة، وكان بينه وبين الشيخ علي شعيب حقايد وضغاين في الصدور، في دولة الأمير المغرور. فلما تغلب علي باشا على البلاد تقرب عنده الشيخ محمد سعادة، وتمكن منه حتى كاد أن يكون في عنق الباشا قلادة.

فلما استخلى معه علي باشا، وكان قد قال له : إني في محبتك لا تتحاشى، قال له : إن فلانا وفلانا وفلانا المحبين فيك لم تفطن لما صنعوا معك وصاروا من كان عدوك يتخذون عنده يدا لأمر ما جدع قصير أنفه[1] وهم حابون عزلك، ورجوع الغير إلى ملكك. وهذا علي باشا رحمه اللّه له حالات لا يبقى فيها على ثلاث كلمة تغله وأخرى تضله كأنه فيه بعض طيش، قبل أن يخرج كلامه يبطش، وقبل أن يحكم حكمه يخدش ويخبش، فلما سمع هذه المقالة من الشيخ محمد سعادة غضب على أحبابه الأولين وقال : ما أظنهم الا لي خائنين يحبوا عدوي ويكرهوني وولدي.

وكان أحد الأحباب للشيخ ابراهيم شعيب حاضرا لهذا الكلام فانخنس، من ذلك المجلس، وبعث إلى الشيخ ابراهيم بعض الناس وقال له : قد تقلدوك فاغرب فإن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك أو يسجنوك حتى يأتي أبوك.

فلما وصل النذير إلى الشيخ ابراهيم شعيب تلحف قطعة

(1) مثل يضرب لمن يحمل نفسه على مشقة عظيمة لنوال بغيته.

قديمة من لحاف، وخرج على ما قيل وقصد الكاف، وأما الباشا علي رحمه الله لما قال له سعادة ما قال تغيب ذلك اليوم وثانيه ثم ترهدن ولم يبعث حوانب، وإنما بعث للشيخ ابراهيم بوابا ووصاه وقال له : قل له قولا لينا ولا تخشى إن المعظم يأمر بك علي باشا.

وكان الشيخ ابراهيم قريبا أن يصل الكاف. فلما وصل البواب إلى الدار دق الباب فخرج له أخوه أحمد، وما عليه حرص ولاناشد. فلما رآه البواب قبل يده وقال : قل لأخيك الشيخ ابراهيم ان بواب الباشا واقف بالباب لتذهب معه إلى باردو ولا تجعل في قلبك شيئا ولا تخشى.

والبواب رسول الرضى لارسول الغضب عند علي باشا، فقال له أحمد : والله لنا يومين أو ثلاثة ما رأيناه لا صباحا ولا عشا، وان اردت ادخل الدار وفركسها وفتشها واختبرها. فقال له البواب : ما بهذا أمرني الأمير، ولا نقدر أن نسعى لنفسي في أمر ضرير، فأرجع بسلام. ورجع إلى الباشا وأخبره فزاد على الشيخ ابراهيم حنقه وغضبه واستلغاه عسى أن يأتوا به فيبلغ فيه مناه.

وأما الشيخ ابراهيم شعيب وصل إلى قرب الكاف، فما لقي من يركن اليه ولا من يمنعه مما يخاف. قيل انه تنكر ورجع، ومن الخوف قلبه انصدع، إلى أن دخل مدينة تونس متنكرا لابسا كبوطا[1] متلثما بشملة[2] حمرا وقصد دار من يعتمد عليه

---

(1) الكبوط : المعطف من الفرنسية Capote.

(2) الشملة : غطاء للرأس طويل يلفه الرجل على رأسه وحول رقبته عند الخروج في أيام الشتاء الباردة وتكون من الكتان بيضاء اللون أو بيضاء بخطوط ومربعات داكنة. انظر معجم الكلمات والتقاليد الشعبية بصفاقس لعلي الزواري ويوسف الشرفي.

من طلبته ومحبيه الأكابر فدخل إلى سقيفة ذلك الدار وهو على تلك الهيئة وجلس على الدكانة. فلما خرج بعض الوصفان وجده جالسا على الدكانة قال له : ما تريد يا ذا المهانة؟ قال له : كلم له سيدي فلان، فرجع الوصيف إلى داخل الدار وقال لسيده : وجدت رجلا طالبا[1] جالسا في السقيفة، فسألته ماذا تريد قال : كلم لي سيدك. فخرج الشاب من بيته إلى أن وصل السقيفة فانكر على الجالس قعوده على المنيفة. فقال له : ما تريد أيها الرجل، وبالمسألة عجّل. فكشف له عن وجهه اللّثام، وقال له : قد آتاك من خانته الأيام، فلما عرفه طالبه قبل يده وبادره بالسلام، وقال له : ادخل معي البيت ليس هذا محل الكلام، فدخل معه إلى بيته، ودموع طالبه على لحيته، وقال : هذا شان الزمان في حق الفاضلين، يرفع قوما ويضع آخرين، ولكن شيخي وأستاذي وسيدي هوّن على نفسك فقد امنت خوفك افديك بنفسي وولدي، والله أعلم بالغيب.]

---

(1) أي متسولا.

ذكر أكابر كتّابه

منهم الحاج بلحسن الوسلاتي وهو من بيت زاوية بجبل وسلات كبيرة شهيرة وقايد جبل وسلات لا يكون إلا من اخوة الحاج بلحسن الوسلاتي، وكان استكتبه الأمير حسين رحمه اللّه في بواكر دولته ثم جعله باش كاتب، يجلس بقربه وسعى من المال والرزق ما لم يسعه غيره، والحزم الزايد عند الباي المرحوم حسين بن علي والكلمة النافذة وقضاء الحاجة، وكان رجلا مقترا على نفسه وعياله وخدامه. قيل على ما هو عليه من وفور المال داره لا يأكلون إلا الشعير ولحم البقر، ودامت صحبته مع الأمير حسين إلى أن رأى من الباي حسين بعض ملل في جانبه، وقصر في قضاء حوايجه فاستأذنه في المسير إلى الحج فأذن له في حج بيت اللّه الحرام وتولّى مكانه باش كاتب قاسم بن سلطانة رحمهما اللّه، فأخذ الحاج بلحسن في تجهيز نفسه إلى الحج، فلما فرغ من قضاء مآربه سافر ورفع معه خادما ومملوكه اسمه الحاج محمد، ورفع بعض ماله معه في السحارات[1]. قال مملوكه الحاج محمد : إذا استحقينا في الشيء فيشتري لنا وله بالرطل وتقوم عنده القيامة إذا قلنا له

(1) السحارات أو السحاير وهي صناديق معدة لحمل المتاع في السفر.

الحاجة الفلانية ما بقي منها شيء، فما يخرج حق[1] الحاجة إلا بشق نفسه، وكأنه خرج مع الدراهم روحه، ولما حجّ ورجع وزار المدينة ودخلنا الدرّب قاصدين مصر وأظن أنا الفقير إلى ربه محمد بن يوسف [304] ان ولده الحاج أحمد رفعه معه وهو صغير وحج مع أبيه، ولما دخل الدرب، اشتكى ومرض وحضر أجله فمات في الدرب ولم يرفع معه الا بفتة[2] تكفّن فيها وواروه الرمل وتركوه مرهونا فيما عملت يداه، وتقبل ذلك الخادم والسحارات وولده وهو صغير مملوكه الحاج محمد وما خلفه الحاج محمد واستوسع في ذلك المال الطويل العريض، وصار يتحكم في ولده لأنه صغير وتسرى خادمه بعده، والدايم العزيز هو اللّه، إلى أن وصل إلى مصر الحاج محمد وقصد الصحراء في رواحه إلى تونس، ولا زال سايرا إلى أن وصل تونس ودخلها وقصد دارهم وادخل اثقالهم وسحاراتهم بعدما صرف من ذلك المال ما أراد وما علم العلم الذي في علم اللّه أنه لم يثبت له حج لو ركب البحر وقصد اسطنبول ومدينة زمير[3] أو غيرها وأعطى نصيبا من المال إلى حاكم ذلك البلاد، واتخذه ظهرا وودا، ولكن المرحوم محروم.

ولما علم به الباي حسين رحمه الله أنه رجع من الحج بمال كثير العدد يقوم بنوايب السلطنة استفتى بعض العلماء

(1) حق : ثمن (دارجة).

(2) بفتة : نوع من القماش.

(3) أزمير : Smyrne مدينة بتركيا، وهي مرفأ على بحر إيجه.

في أخذ هذا المال الكثير لأنه ما جمعه الا بأنفاسي ومصاحبتي، وهذا المال أربابه مجهولة، والآن صار في يد غير مستحقه فيصرفونه في غير موضعه، فافتاه المفتي له : خذ هذا المال وأنت أولى به تصرفه في سد الثغور، وتجهّز به المراكب في البحور، وتبني به إذا طاح السور، وكم لك من أمور، فهذا المال حلال لك. فعندها بعث الأمير حسين باي رحمه اللّه إلى الحاج محمد وكان شارفا على أكثر مال سيده وهو مفتاحه وخازنه، وطمّعه فيما يريده من جانب دار السلطنة، ففرح بوعد الباي حسين، وصار يغص ويمص، وعن مال سيده يفحص، إلى أن وصل كثيره إلى الباي حسين دفعه لخزنادار.

قال بعض من أثق بصدقه وكان خديما وصاحبا لخزنادار محمود السرايري : أمّا المال الذي وصل لخزنادار [305] السلّطاني[1] والريال الصحيح والنواصر[2] وصل عددها سبعماية الف، وأما الحلي أربعة عشر زوج خلخال ذهبا كرونة[3] عدا ما سرق من ماله وما أخذوه وأخفوه وما صرفه الحاج محمد ومن عنده أمانة برك عليها، وأما الحاصل من المال هذا العدد الذي قلته لك كنت سمعته من فم محمود السرايري وأنا جالس معه في بيته، وبعض جلسايه معه وأنا معهم وانجر الحديث إلى أن ذكر هذا العدد والخلاخل، ثم قال:

(1) السلطاني : عملة عثمانية.

(2) النواصر : ج ناصري من المسكوكات التي صاغها الأتراك بتونس.

(3) كرونة : عملة أسبانية من الفضة الخالصة روّجها الاسبان بتونس في فترة احتلالهم لها وهي عبارة عن درهم من الفضة غير مستوي الأطراف.

لا سامح الله الحاج بلحسن في الذي خلف الينا ما بقى يرى الأمير حسين خدامه الا عندهم مثل هذا المال وأكثر والله أعلم بغيبه وأحكم.

[خبر قاسم بن سلطانة :]

ومنهم قاسم بن سلطانة الباجي، رجل بلدي من أعيان بلدية باجة استكتبه الأمير حسين حين تولى مملكة عمالة تونس مبجلًا معظمًا مكروما، عند الأمير حسين نافذ الكلمة، مقضي الحاجات عويصها وسهلها، من النخلة إلى الدخلة، مشاركا للحاج بلحسن مساعدا له متواطيا هو والحاج بلحسن على قضاء الحوايج مثل دماء وخطايا يطيحونها من الدفاتر وياخذان عليها المال العظيم، فما ناله ذلك والوظايف والطرق والقيادات كذلك إلى أن كثر مال قاسم بن سلطانة وجعل مراكب في البحر يصطادون النصارى فياتونه بالغنايم العظيمة الكثيرة المال والرجال إلى أن بلغ عنده من النصارى ثلاثماية وزيادة فوقها. واشترى ذلك الدار المعروفة المشهورة في ذلك المحل قريبا من زاوية الشيخ سيدي أحمد بن عروس، ومن الجامع وهي ظهرة الجامع على الثنية المارة بابها مفتوحا إلى الشرق هي الثالثة من تلك الديار الكبار دار الدولاتلي اليوم، ودار بنت الدولاتلي قارة مصطفى في زماننا ودار ذرية شعبان خوجة ودار بن سلطانة هي الثالثة بعد دار الدولاتلي التي فيها اليوم.

ولتعلم أن ذلك الدار [306] لم تبلغ دارا أخرى ما بلغت من الفروش والعروش والمرايات التي لم تكن عند البايات والعلاجي[1] والروميات والخدم والسريات، وزوجته امرأة باجية اسمها حفصية عبدية ذات جمال وكمال، ومال ودلال، ولم يرزقه الله منها الا ولدا واحدا اسمه أحمد صاحب خلق وأخلاق، فنشا في تربية الحظايا الحذاق، ولما بلغ مبلغ الرجال زوجه أبوه ببنت ابن بلطية يدعي من جنس الكوارغلية باجية.

وأما مماليكه وأصحابه وخدامه شيء فوق العدد من غير مبالغة مني، وكان مغروما بالتجارات برا وبحرا، فيأتونه تجاره بأنفس الحوايج والغرايب وكل شيء غالي، ظريف حسن، غالي الثمن، يحسبونه له من ربح ما له، وملك من الأملاك في تونس وغيرها سواني وديار وهناشر وفنادق وديار في الحارة وطواحن كل ملك كثير النفع، قليل التبع، وسقيفة داره وعلوه جامعان لكل من أهل مملكة افريقية جريدي وجزيري ومغربي في قضاء حوايجهم.

ولما مات الحاج بلحسن الوسلاتي وانتقل إلى رحمة اللّه استخلف وظيفته الباي حسين رحمه الله قاسم بن سلطانة وجلس في محله وجعله باش كاتب، بخ على بخ، واستفرد بمملكة السلطان ولا بقي له شريك فيما هو فيه، وكانوا يتهمونه بالأولاد غفر اللّه لنا وله آمين. وطالت صحبته في خدمة أميره،

(1) العلاجي : ج علجية وهي منضدة جميلة خاصة توضع عليها تحف.

ولما ظهر محمد باي بن الباي حسين للناس واستخلفه والده مكانه على السفر بمحال العسكر كما تقدّم، ومناظرا أحواله كلها مملوكه أحمد شلبي كاهية المحال لا يخفي شيئا قليلا أو كثيرا من أمور ولده على والده، أمر باش كاتبه قاسم بن سلطانة أن ياتي بولده أحمد إلى حضرته فامتثل أمره وهو لم يريده لأنه عالم بأحوال أحمد شلبي مع والده الباي حسين رحمهما الله، فوصل مع والده الصباح ووقف بين [307] يدي الأمير حسين فقال له : قل مبروك إن شاء الله. فقال الشاب أحمد : مبروك إن شاء الله. فقال له : أنت كاتب عند سيدي محمد ولدي. فقبلّ رجله ويده وقبل أبوه قاسم بن سلطانة يدي الأمير حسين وأظهر الفرح وأعطى أحمد البشاير وسار إلى حضرة محمد باي وقبلّ يده وأمره بالجلوس فجلس بازايه مكان الكاتب فأعطاه محمد باي دواة من فضة ومركوبا كالعادة الجارية، وتقلدّ أمر الكتابة من غير اختيار منه ومن أبيه.

وكان الأمير حسين لما رزقه الله تعالى الأولاد ونشؤوا وكبروا في دولة أبيهم لم يترك أحدا من ولده يتصرف في شيء قلّ أو جلّ إلا بإذنه، وإذا استحقوا في حاجة قل ان يقضيها لهم الا بدخيل مثل الحاج يوسف وولده أحمد، قيل إنّ محمد باي أمر أن يبنى له منزها أو علوا صغيرا في داره وفي علوه فبناه وتمّ بناءه ولم يستأذن والده في البني، فلماّ سمع والده بهذا البناء بعث إليه وهدموه ولم يتركوا منه شيئا، وإذا أخذ أحد

أولاده الإذن في التفرّج والتنزّه في منوبة لم يتركهم يركبوا حتّى يركب أحمد شلبي، ويسير معهم إلى أين أرادوا، وضبط والدهم أمرهم ضبطا عظيما إلى أن صاروا ينتقصون من فعل والدهم معهم، وعاشروا والدهم على تلك الحالة إلى أن فرّق الدّهر بينهم ولله العزّ والدّوام.

ولمّا تأنّس محمد باي بكاتبه أحمد بن سلطانة كاد أن لا يفارقه ولو طرفة عين، ومهما تغيّب عنه يرسل إليه فياتيه وأبوه قاسم بن سلطانة يحذر في ولده أحمد ويقول له : ردّ بالك من شيء يهينك وإياك تحضر مع ولد الباي أو تتكلّم كلاما ينقله عنك أحد وإياك وإياك [308] خذ حذرك من أحمد شلبي أن يطلع على ضحك منك أو شيء يؤديك إلى النقص وشماتة الأعداءفينا، عليك بكاغطك ودوايتك إن أمرك بكتابة كتبتها وإلا أنت ساكت مالك حاجة في الفضول، والغدر يغلب الحذر، ولا مهرب من المقدر، وطال ما بين محمد باي وبين أحمد بن سلطانة من المجالسة والموانسة، وإذا تحابا إنسانان غاية المحبة سقط الأدب بينهما، ففي بعض الأيام وقعت سقطة من أحمد بن سلطانة وأحمذ شلبي واقف مستحضر عسّاس حبّاس حسّاس، فإن كان خيرا يخفيه، وإن كان شرا يفشيه، ولمّا تفرّق مجلس محمد باي وبلغ أحمد بن سلطانة [وأحمد شلبي] إلى تونس كعادته ودخل أحمد شلبي على الباي حسين وأخبره بما صدر من أحمد بن سلطانة وأنه وقع منه كذا وكذا فسكت ولم يرد عليه جوابا.

ومن عادة أحمد بن سلطانة أن يسبق إلى باردو قبل قدوم أبيه إلى محكمة الباي حسين ولم يدخل أحمد بن سلطانة لمجلس محمدّ باي إلا أن يدخل لمحكمة الأمير حسين فيقبلّ يده ثمّ يرجع فيدخل مجلس محمد باي، هذه عادته. ولمّا طلع النّهار ركب فرسه وسار إلى باردو قبل أبيه، ودخل المحكمة وأراد أن يقبلّ يد الباي حسين لطمه بكفّ على خدّه وقال له : ارجع إلى دارك ولا بقيت تأتي إلى هنا يا ابن كذا وكذا، وإذا مازلت ترجع إلى هنا أكسر رقبتك. فرجع أحمد بن سلطانة ودموعه تجري على خديّه، وركب فرسه ورجع فعرضه والده قاسم بن سلطانة وقال له : ما أصابك وما جرى لك؟ فحكى له ما وقع وضرب الكفّ على خدّه، وقال له : روّح إلى داركم وأنا عارف بأكثر من ذلك. فافترقا وصار كل واحد منهم إلى مقصده، ودخل قاسم بن سلطانة المحكمة وقبل يد الباي حسين وجلس في مكانه ولم يقل له الباي حسين شيئا مما وقع، ومن ذلك الوقت أخذ قاسم بن سلطانة في الانحطاط وسقوط [309] السعد وخسوف قمره، وإذا أراد الله بهلاك امرئ يجعل حتفه بظلفه، وتدميره في تدبيره، فاشترى قاسم بن سلطانة سانية في سكرة يقال لها سانية بريّش، واعتنى بها ولده أحمد اعتناء زايدا، فحركته الأقدار لما يقصرّ الأعمار، فأخذ في بناء بيت وبراطل قدامها، وجابية قدام البراطل، وأنفق فيها أموالا عظيمة، قيل أربعون ألفا وقيل ثلاثون ألفا، وجلب إليها الرّخام العظيم من برّ النّصارى والشبابك من

مصر، كأنمّا سعى في بنيها المرحوم علي باشا، وتمّت البيت والبراطل والجابية والعلي الذي فوق البيت، وسمعت بها النّاس وهرعت إليها من كلّ مكان يتفرّجون فيها، وإذا ضاق خاطر قاسم بن سلطانة أخذ إذن الباي حسين في الطلّوع إليها، وتطلع معه جماعة كبيرة أكابر يتنزّهون فيها ويرجعون إلى تونس وغيرها، يشيدون خبرها إلى أن بلغ خبرها إلى الأمير حسين رحمه الله فاشتاق إلى رؤيتها فقال لقاسم بن سلطانة : [اعمل على روحك وهي الضيافة في السانية إني أريد أن اتنزه في البيت الذي صنع ولدك بهذه السانية. فزاد قاسم بن سلطانة] كمدا على كمده، ودعا على ولده، وجهزّ ما تحتاجه الضيافة ورفع ما تستحقّه سفرة[1] السلطنة وأخبر الباي حسين قاسم بن سلطانة أنّ اليوم الفلاني نسير إلى سكرة، فسبق قاسم بن سلطانة يحضرّ الضيّافة.

ولمّا جاء اليوم الموعود ركب الباي حسين وركب معه خواصه وباش حانبة وخدامه وسار إلى أن وصل إلى سكرة ودخل السانية وجلس في البيت فرأى زخرفا لم يعرفه، وصار يتأملّ ويتعجبّ، وحضرت السفرة وأكل الخاص والعام، وحضر الطيّب والبخور، وبعدها قرأ الباي حسين الفاتحة.

وبعد أن خرجت الناس رجع يتأملّ في هذا البيت، وقام وطلع إلى العلو وتعجبّ من هذا البنيان، وهو إذاك يبني في جامعه الذي نشاه في باب الجزيرة داخل المدينة، ففهم علي

(1) السفرة : منضدة قصيرة القوائم للطعام.

بن مريقة باش حانبة عنده على الباي حسين أنّه لم يرد خسارة هذا [310] المال الكثير في بنيان هذا البيت الذي هو في غير موضعه، بل هو في الخلاء، فضحك علي بن مريقة وإذاك قاسم بن سلطانة ليس بحاضر معهم فقال علي بن مريقة : سبحان اللّه، سيدنا يبني جامعا في وسط مدينة تونس لعبادة الرّحمان، وسي قاسم بن سلطانة بنى في الخلاء بيتا لعبادة الشيطان، ما هذا إلاّ عجب! فضحك الباي حسين من كلامه، وعجبه هذا الكلام واستحسنه من علي بن مريقة وكأنّه كان في خاطره، وبلغت هذه المقالة لقاسم بن سلطانة فقال : ما أنا غرسه بل غرس ربي، فإذا أعطى لم يمن، وإذا رفع لم يحن.

ولمّا انفرق المجلس ركب الباي حسين وقصد باردو وفي قلبه شيء من خسارة هذا المال الذي صرفه في غير محلّه، وقال : لو بنى بهذا المال جامعا في تونس أو مدرسة أو شيئا يريد به وجه اللّه لكان خيرا له، وإذا نفذ القضاء عمي البصر. لو كان قاسم بن سلطانة حين سمع هذه الضربة بحربة أو رصاصة داوى جرحه، والمثل : درهمك يكرمك ولو عند عدوك، لكن «إذا جاء أجلهم لا يَستأخِرون ساعةً ولا يَستْقدِمون»[1] ثم بعد ذلك بلغ الخبر إلى الباي حسين أن ولده أحمد اشترى سانية ابن عياد في زغوان بأربعة آلاف ريال، وكان الباي حسين في هذا الوقت الذي اشترى فيه السانية أحمد بن سلطانة مضبوطا حاله في مرتّب العسكر، والحاج

(1) قرآن : الأعراف، 185 (فإذا جاء...).

سليمان كاهية رحمه اللّه يتسلّف في الدراهم من عند الناس والنّصارى، قيل إنّه بعث لقاسم بن سلطانة يسلّفه أربعة أو خمسة آلاف يعطيها للعسكر في راتبهم، وإذا جاء المال نردّها عليك : قيل إنّه قال له : ما عندي دراهم في هذا الوقت، واستعذر له بأمور باردة. قيل إنّ الحاج سليمان كاهية حكى للباي حسين ما وقع بينه وبين قاسم بن سلطانة فقال له : وهلاّ ذلك المال الكثير الذي [311] بنى بيه بيتا للشيطان كما قال علي بن مريقة عارني منه بشيء استعنت به على رواتب العسكر. وسكت الباي حسين. وقيل : لمّا صدر الباي حسين من سكرة، ودخل باردو ترجّى قاسم بن سلطانة أن ياتيه بمال جزاء تعبه لسانيته، فلم يفعل وضنّ بماله عليه، فصبر ينتظره، فما رأى منه شيئا وانتهت أيّامه، وحضر أجله، وأخذ ماله، فما بقي ينفع شيء.

قيل إنّ أحمد بن سلطانة لمّا بنى ذلك المنزه وزخرفه وزيّنه واتخذ فيه جاريتين اثنتين في غاية الجمال، ودوّر ذلك المنزه بالمرافع العظيمة شغل برّ النّصارى، وجلب إلى ذلك المرافع البلور المذهّب والتّحف والصّحاف الفرفوري[1] المذهبة الغالية الثّمن، أراد يوما أن يمدّ يده ليأخذ صفحة من تلك الصّحاف فلما أخذها سقطت من يده فطاحت على الجليز الذي هو مفروش في قاعة هذا المنزه، فلم تنكسر ولا انشقّت فأخذها، فلم يجد بها شيئا، ففكر في نفسه وقال : هذا غاية

(1) الفرفوري : خزف صيني نسبة إلى فرفور من بلاد اليابان. انظر معجم دوزي.

وقوف السعد، والنّاس قالوا : إذا انتهى الشيء إلى حدّه انقلب إلى ضدّه. ولو كان والدي يساعدني لأخذنا على أرواحنا واستعملنا الحذر، ولكن «وكان أمر اللّه قدرا مقدورا»[1]. وقيل إنّه لمّا انتهت الأيام دخلت امرأة لدار ابن سلطانة تطلب شيئا من الطعام تقتات به فقالوا لها الخدم : ياتيك اللّه،. فعاودت في المسألة فقالت لها زوجة ابن سلطانة : اعييتنا، ونهرت عليها، فقالت لها الطالبة : مالك يا سيدتي تنهري عليّ أما تعلم أنّه ملك قهّار، وفلك دوّار، وزمان غدّار. وخرجت من الدّار. فلم تمكث زوجة بن سلطانة بعد هذا الفال إلاّ أيّاما قلائل، ودار الحبل بالكرم[2].

ولما أيس الباي حسين من مال قاسم بن سلطانة عمل على سجنه وأخذه. وفي المثل : جار السبع فقري[3] [312] وقال اسكندر[4] : الويل لمن عرفناه أطرنا نومه وأسهرنا ليله، وأكثرنا خوفه، وأخذنا ماله، وقتلناه.

فلمّا جاء إلى المحكمة وجلس على عادته إلى أن فرغ الباي حسين من الحكم وقام ودخل بيت الملك، وكان قبل ذلك أمر خزنادار إذا رأيت قاسم بن سلطانة قام وأراد أن يخرج نادي عليه فإذا أتاك اطلعه للعلي عندك واسجنه فيه وابعث إلى ولده أحمد واسجنه قبل أن يطلع الخبر إلى تونس فركّب

(1) قرآن : من سورة الأحزاب، من آية 38.

(2) الكرم : ج كرومة أي الرقبة والعنق.

(3) أي فقير.

(4) اسكندر المقدوني : الملقب بذي القرنين (256ـ324 ق.م) حكم في مقدونيا. فتح بلاد الفرس وفينيقيا ومصر حيث أسس الاسكندرية. وصل إلي نهر الهندوس بالهند. وهو من أعظم الغزاة في التاريخ.

خزنادار حانبة يأتيه بأحمد بن سلطانة قبل قيام الباي من الحكم، فطلع الحانبة إلى تونس والتقى باحمد بن سلطانة وقال له : إن خزنادار قال لك، إيتيني إلى البيت حاجة عرضت له فركب فرسه وسار معه. وأمّا قاسم بن سلطانة فعرف أنّه أمر بسجنه فسقط ما بيده، وسكت وطلع للعلي، وجلس ووصل أحمد ولده للبطحة ونظره خزنادار وأمر به أن يوصلوه إلى بيت قرب الزندالة[1]، ودخل خزنادار وأخبر الباي حسين بسجنهما بعث قياد الدار والمماليك وصاحب الطّابع بالكرارط والأبغال وطلعوا إلى دار قاسم بن سلطانة وسبق قايد الدّار ودخل الدّار. فلما راوه العيال ضجّوا بالبكاء والصياح، ودخل صاحب الطابع والمماليك ومن معهم للبيوت وصاروا يخرجون الصناديق بالعدد والكتابة، ويرفعونها إلى باردو.

وبعث صاحب الطابع للنصارى التي في الطبارن[2] وإلى التي في سوانيه وفي كلّ مكان حتّى الرّومي [الذي يرفع الخبز إلى الكوشة رفعوه إلى باردو وأخرجوا من بيت أحمد بن سلطانة المراية التي ليس لها نظير حتّى تعجب منها حسين باي سامحه اللّه، وجرّوا ما في الدار ولا بقوا فيها الا ما تتغطى به النساء وما تفرشوا تحتها، وطلعوا ذلك الأسرّة المثمنة المعدة لملوك النصارى، وكذلك الكراسي المعدة للملوك، ومن الغد احتاجت حفصية عبدية زوجة ابن سلطانة من يرفع لها الخبز إلى الكوشة فما وجدت أحدا، سبحان المعز سبحان المذل.

(1) الزندالة : سجن باردو.

(2) الطبارن : ج طبرنة، خمارة. دخيل إلى العامية من الفرنسية Taverne .

ولما سمع قاسم بن سلطانة بسجن ولده وهو ليس معه وسمع بأنهم نهبوا داره بَكَم من وقته لا يقدر أن يتكلم إلا أن يكتب، وأما الكلام منع منه. وبعث اليه الباي حسين : أعطني المال فكتب في الكاغط : ادخلوا الدار واحفروا تحت الفلة وطلّعوا ما تحتها فبعث إليها الأمير حسين. قيل طلع من تحت الفلة زيرا[1] سلطاني، وصار يكتب في الكاغط ويقول : اعطوه اعطوه، وكتب في كاغط آخر : طلعوا ما في دار حمودة بوعبدة، فبعث إليه الباي حسين ودخلوا دار حمودة بوعبدة وحفروا، قيل : طلعوا منها خابية فيها ريال صحيح. واخذت العوارض قاسم بن سلطانة وضربته الورشكين[2] ومنع الطعام والشراب، فأخبر خزنادار بحال قاسم بن سلطانة الباي حسين فقال : طلعوه إلى داره، فرفعوه إلى داره وطلع إلى العلي وهرعت إليه احبابه فلم يعرف منهم أحدا، والله أعلم، انه مرض بهذا الحال خمسة أيام وتوفى وسار إلى عفو الله وأخبروا الأمير حسين بوفاته يوم مات طمعا أن يسرح ولده أحمد يحضر لجنازة والده، ويقبل عزاه فلم يأمر باطلاق ولده ففهموا عليه أنه لم يرد اطلاق ولده أحمد فلم يعاودوه، ودفن قاسم بن سلطانة ولم يحضر له ولده، والدايم هو الله تعالى.

وبعد مدّة قليلة أتى رجل من القيروان كان ساكنا في باجة وانتقل للقيروان وهو مؤدب عظيم وقاري القرآن، ناصح

---

(1) الزير : جرة صغيرة من الفخار لها عروات أربع. تحفظ فيه المصبرات وبعض الأطعمة والسلطاني نقد عثماني.

(2) الورشكين : من الورش : وهو وجع في الجوف.

لأولاد المسلمين، يدعي أنه رجل صالح ودخل على الباي حسين وقال له : جيتك بالأمانة التي أمنها عندي قاسم بن سلطانة وها هي في الزنبيل، فأمر الباي حسين رحمه الله خزنادار فأخرجها من الزنبيل وفتحها وعدها، قيل أربعون ألفا وقيل ثلاثون ألفا، والمرحوم محروم ولم يطلع عليه أحد أنه عنده أمانة، وكذلك بعث الباي حسين لأصحابه من التّجار فأخذ ما عندهم ومن أتى من تجاره برا أو بحرا أخذ ما عنده، والذي سمع به من تجاره وهو في سفره فلم يرجعوا إلى تونس وأكلوا ماله، وكثير من الناس في باجة وغيرها والجريد لم يطلبهم أحد بركوا على المال ولم يظهروه وأكلوه وضاعت لقاسم بن سلطانة أموال كثيرة. وأخذ الباي حسين مالا كثيرا وقاسم بن سلطانة في غاية البخل على ما قيل، قيل عمره كله لم يخرج زكاة قط إلا ما قل لبعض الناس يعطيهم عطاء قليلا سامحه الله.

عجيبة في حقه :

كان له فنيق[1] كبير ما يرفعه الرومي إلا بجهد، وهذا الفنيق بين يديه دايما من العلي إلى الدار فيأمر ابن سلطانة إذا استحق به فيطلعوه من الدار فإذا قضى حاجته رفعه الرومي إلى سقيفة الدار وينادي على الخادم فتدخله إلى بيت سيدها، وفي هذا الفنيق حجار مثمنة غالية الثمن وجواهر غالية الثمن

---

(1) فنيق : كيس طويل من الجلد أو القماش تحفظ به النقود ويتحزم به حفظا لما يحمله، يستعمل خاصة عند التنقل والسفر (انظر معجم الكلمات والتقاليد الشعبية بصفاقس لعلي الزواري ويوسف الشرفي، صفاقس 1998).

كبيرة، الواحد قدر قلب اللوز وأكبر على ما قيل، وفيه سلطاني كثير دبلون[1] وغيره ونواصر كثيرة، قيل فيه ما يقرب من ماية ألف. وإذا استحق بالفنيق أمر أن يأتوه به فإذا قضى حاجته أمر الرومي فرفعه فيدخله السقيفة وينادي على الخادم فتدخله البيت، هذه عادته.

وكان لولده أحمد مملوك اشتراه صغيرا مسلما ورباه وكبّره إلى أن صار شابا قويا ودار عذاره[2] فتزوج امرأة في بعض الديار والمملوك قل أن يحصل درهما في يده. ولما تزوج وطُلب خف حاله وصار يترقب في ذلك الفنيق الطالع النازل. ففي بعض الأيام نادى الرومي على الخادم لتدخل الفنيق إلى الدار وخرج وترك الفنيق في السقيفة على الدكانة والخادم في الدار في شغل، فنست الفنيق في السقيفة ولم تدخله الدار فرآه هذا المملوك مصطفى وحطه على ظهره وغطاه ببرنوصه وإذا ستر الله السارق لم ينبح عليه كلب، وخرج به ولم يفطن به أحد ووصله إلى الدار التي هو ساكن فيها، ونادى زوجته وعالج الفنيق وأخذ منه بعض الدراهم وأوصى زوجته بالاستحفاظ عليه وولى إلى دار سيده كانه ما له علم ولا خبر، ووقف في خدمة سيده أحمد في علوه، ولسيده أحمد بيت مخصوصة به هو وأصحابه ومماليكه وخدامه، فهو لا يخلط على أبيه، وأبوه لا يخلط عليه هذه عادتهم.

(1) دبلون: نقد اسباني ذهبي.
(2) عذاره: كلمة فصيحة: جانب اللحية أي الشعر الذي يحاذي الأذن.

ولما طلع قاسم بن سلطانة من باردو وجلس في بيته في العلو عرضت له حاجة في الفنيق فأمر الرومي أن يأتيه بالفنيق فصوب إلى الدار ونادى على الخادم أن تاتيه بالفنيق فدخلت بيت سيدها فلم تجد الفنيق، فنادت على سيدتها فجاءت إلى البيت وقالت لها: أين الفنيق؟ فنظروا في البيت فلم يجدوه ونظروا بيت أحمد فلم يجدوه فكثر الحس في الدار والخصام، وطلع الخبر إلى قاسم بن سلطانة بأن الفنيق لم يجدوه في البيت فنزل لا يعلم أين يحط رجليه ودخل الدار فلم يجد له أثرا، وأمر في حينه أن يأتوه بالعصي الكثيرة ووقف وهو طالع صوته يسمعه من هو خارج الدار، وقطع ملبوسه وأمر خدامه ومماليكه بضرب الخادم والرومي ضربا مبرّحا، وطلع إلى العلي وأمر بضرب النصارى والمماليك، وقعد في البيت وصار يضرب راسه إلى الأرض ويلطم وجهه، وسمعت أصحابه بواقعة الفنيق فجاؤوا من كل مكان فوجدوه يضرب براسه الأرض ويلطم وجهه ففرشوا حصيرته[1] وقالوا: لو مات ولده أحمد ما فعل هذا. اللّهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا. صدق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم، قال: لكل أمة عجل وعجل أمتي الدينار والدرهم[2]. فسمع أحمد ولده بعض الكلام فقام إلى أبيه من بيته ووقف على أبيه وهو في تلك الحالة فلامه على فعله وجعل يصبره حتى سكت، والنصارى

(1) فرش حصيرته: عبارة عامية تعني أنه صار حديث الناس ذما وذكرا للعيوب.
(2) حديث: غير موجود في كتب السنة الستة.

في الغواث من الضرب وكذلك الخدم، ثم نادى على ولده أحمد وقال له : اضرب مملوكك مصطفى مع من ضرب، فناداه أحمد بن سلطانة فأتاه فأمر بضربه فلما ضربوه قال لهم : الفنيق عندي في داري فابعثوا معي أحدا يأتيكم به، فقام أحمد بن بلطية ومعه من يأتي بالفنيق معه، وكتفوا المملوك مصطفى وذهب معهم شادين كتافه[1] إلى أن وصلوا الدار فدخلوا معه البيت فوجدوا الفنيق مفتوحا فرفعه أحمد بن بلطية، وأوصله إلى بين يدي قاسم بن سلطانة وفقد ما فيه فوجد ما ضاع منه كثير، وهرب المملوك إلى بعض الزوي وكاد أن يقتل هو وولده أحمد بسبب المملوك والله أعلم بحقيقة الحال وإليه المرجع والمآل.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده :

ولما حبس الأمير حسين أحمد بن سلطانة ومات والده وأخذ أمواله، وتشتت عياله، فبعد مدة شفعوا فيه وأطلقه وجعله كاتبا عنده. ولما اطلقه ودخل داره وراى أمه وزوجته في حالة رهينة وعيشة ضنكة رفع ما حط وتمكن منه المرض قليلا قليلا وسافر مع الباي حسين ولما رجع من المحلة رقد أياما قليلة وتوفي وسار إلى عفو الله، وترك ولده محمد صغيرا فربته جدته أم أبيه واقرأته القرآن وتعلم الخط المليح، ودخل جامع الزيتونة يتعلم العلم وكبر وكان رجلا صاحب جمال،

(1) كتافه : أي ربطه

مربوع القد، أبيض مشرب بحمرة، أخلاقه حسنة، وجاءت الجزيرية وتولى الباشا علي البلاد، ووقف يونس على ساق الجد في خلافة أبيه كما يأتي إن شاء الله تعالى، وشب محمد بن أحمد بن سلطانة وتزوج بابنة البكري[1]، وبلغ مبلغ الرجال بعث إليه يونس وجعله كاتبا عنده ثم جعله خزنادار عنده مدة ثم عزله ورده كاتبا كما كان.

ولما دخل يونس القصبة دخل معه محمد بن سلطانة القصبة، ولما هزم يونس ودخل العسكر إلى تونس، وخرج يونس وخرجت أصحابه متفرقة الا الحاج أحمد السهيلي فإنه سار مع يونس ملاصقاله، وخرج محمد بن سلطانة من تونس وحده وصار طالبا يونس ومعه شيء من السلطاني وعدّته كلها بالفضة لها قيمة، وهو رجل حضري فأخذ ثنية زغوان وعَشّتْ عليها العشية، وسمعت العرب أن يونس هرب فركبوا خيلهم ومعهم رجلهم وصاروا يلوجون[2] في تلك الأماكن هل يجدون أحدا.

ولما قضى الله بحضور أجل محمد بن سلطانة صدفة لهم فلحقوه ونزلوه من على فرسه فوجدوه لابس ذلك العدة فنزعوه لها وفتشوه فوجدوا عنده السلطاني فتحدثوا فيما بينهم وقالوا : إن أخذنا ما معه واطلقناه رجع وأخبر بنا علي باشا فنطلب في أكثر مما أخذناه ولكن نقتلوه حتى لا يفطن به

(1) البكري : إمام جامع الزيتونة، من العائلة البكرية التي تولت الامامة والخطابة بالجامع الأعظم وكان جدهم تاج العارفين البكري من أثرى المشايخ بتونس، انظر عن البكريين «إتحاف أهل الزمان» لابن أبي الضياف : ج 7 ص 67 ـ 68.

(2) يلوّج : (عامية) يبحث.

أحد، فتجهم عليهم كثيرا ان لا يقتلوه فلم ينفعه ذلك وأتوا به إلى جرف وقتلوه وستروه بالتراب ورجعوا إلى نزلتهم وقسموا ما أخذوا من محمد بن سلطانة، ولا زال محمد باي سامحه اللّه وأبوه علي باشا يبحثان على سلب محمد بن سلطانة وجرته وهل هو حي أو ميت. وشدد الباشا على مشايخ رياح في طلبه وربط من رياح مشايخهم، قيل إن الباشا بعث الحوانب مع مشايخ رياح وربطوا المتهومين بمحمد بن سلطانة فلما خافوا من العصا صاروا يفتشون إلى أن جاءوا الى جرف وحفروا التراب الذي غطوه به سالفا فوجدوا عظام محمد بن سلطانة وراسه تحت ذلك التراب وأعطوهم العدة، وأما السلطاني ضاع منه فأداهم الباشا ما نقص منه هكذا قيل واللّه أعلم، والروايات كثيرة في كيفية قتله، وقيل هو حي والله أعلم، وترك ولدا ذكرا لم رأيته ولا نعرفه.

وأما أملاك قاسم بن سلطانة اليوم كلها تتصرف فيها السلطنة، وهي أملاك عظيمة، لها قيمة، والقمح يلوح ويدور ويرجع إلى الرحاء، «والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين»[1].

(1) اقتباس من القرآن من سورة الأنبياء الآية 89 «رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين» ومن سورة الأعراف، الآية 128 : إن الأرض لله يورث بها من يشاء من عباده.

[خبر محمود السرايري الأندلسي]

ومنهم محمود السرايري الأندلسي خزنادار وهو الحاكم والمتصرّف والآخذ والتارك في مملكة المرحوم حسين باي، لا يعرف معه شيئا، وممن بالغ قال : ربما يأتي حسين باي لبيت محمود السرايري بيت خزنادار ويتكلّم معه. ويرجع أصل دخوله باردو وخدمته ووصوله إلى أن صار خزنادار ويتكلّم معه كان الخزنادار في بواكير الأمير حسين سامحه اللّه حممّد المشهور كان عند مراد باي من جملة المماليك الصغار، وهو كورغلي [313] من أبناء تونس فنشأ حاذقا لبيبا فخدّموه البايات إلى أن جعله الباي حسين خزنادار ومحمود السرايري يخدم في بيت خزنادار وهو رجل أندلسي حاذق، فما زال ينتصح ويتقرب إلى أن عرفه الأمير حسين فزاد في تنصّحه والتّحبّب إليه، فعزل حممّد من خزندار وجعل مكانه محمود السرايري خزندار وأمر حممّد أن يطلع إلى داره بتونس فطلع إلى داره وجلس فيها، ورجل مستانس بالتحكم وتقبيل اليد والكلمة النّافذة فصار في داره وحيدا فريدا، فلم يصبر على ذلك فحدثته نفسه بأن لا مطمع لأمثاله فيه فجمع بعض خدّامه وهرب في الليّل من تونس وقصد قلعة سنان إلى أن وصلها

ومكث فيها وبلغ هروبه للباي حسين فأرسل الحوانب وبعض خدّامه.

وكان بلغه أنّه في قلعة سنان فأمرهم أن يكون مسيرهم على الكاف ويرفع معهم الخيل ويسيروا إلى القلعة ويأتوه بحممدّ، فسارت الخيل إلى أن وصلت قلعة سنان فوجدوه بها فحاولوه في النزول وخوّفوه عاقبة الأمور وهو رجل هذا الأمر ليس من شانه فخاف وقال للحوانب : ان بعث الباي حسين المحرمة والسبّحة وأمّنني نزلت معكم ورجعت إلى تونس، وإن لم يبعث لي لم انزل من هنا. فبعثوا إلى الباي حسين بما قال فأرسل إليه المحرمة والسبحة، وأمره بالأمان، وتدخل على شيخ القلعة أن يكتب له كتابا يتشفّع فيه عند الباي حسين ففعل شيخ القلعة ونزل من القلعة، وساروا به إلى أن نزلوا من الكاف فدخلوه وارتاحوا. ولما أرادوا السفر إلى تونس قيل قيّدوه بالحديد وقيل لا ووصلوا به فربطه الباي حسين هو وبعض أصحابه مدّة ثمّ تشفّعوا فيه، وأطلقه وأمره أن لا يخرج من باب تونس.

وأمّا محمود السرّايري فإنّه تصرّف في هذا الطريق بحذاقة زايدة، ولم يكن عنده طمع فيما في أيدي الطّالبين، ولم يسمع به [314] الباي حسين أنّه أخذ من عند أحد شحمة[1] لا في كثير ولا في قليل، ودامت صحبته معه إلى أن انتهت أيّامه وحضر أجله، وتوفّي قبل فتنة وسلات بأيّام قريبة. وأصل

(١) شحمة : أي رشوة.

مصابه أنّ الباي حسين في محلة باجة وهو نازل بباردو، ومن عادة الأمير حسين أن لا يفارق قراءة كتب الحديث في حضره وسفره، ليله ونهاره، وكان من جملة من يقرأ بين يديه الحديث الشيخ عبد الرحمان الجامعي، أصله جاء من المغرب وسكن بتونس وهو رجل فاضل عالم شاعر، له اطلاع على العلوم. فلمّا جاء من بلاده تقرّب إلى الباي حسين فعرفه وصار من جلسايه فوجدوه عالما حاذقا فصيحا، فجعله يروي الحديث بين يديه، وإذا خرج من عنده تجتمع جماعة في بيت خزندار والنّاس على دين ملوكهم فيقرؤون الحديث ويحضر خزندار.

قيل رووا حديثا أنّ النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يطوي الأيّام واللّيالي لم يأكل فيهم شيئا، وكانت له خمسة أعنز على ما قيل، قال محمود السرايري خزندار كلاما يشين مقام النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم، فسكتت الجماعة وغضبوا وقالوا له : استغفر الله. وأمّا الشيخ عبد الرحمان الجامعي قال له : البعيد كفر ولا لك توبة، وتحرق بالنّار يا كذا وكذا، ولكن لا لوم عليك إنّك أندلسي كافر بن كافر، وقام ودخل على الباي حسين، وقال له: أنا بلّغتك ونزعته من عنقي وقلدتك، وأنا قيامي للّه لا لعرض ولا لغرض، إنّ محمود السرّايري قد كفر وهضم جانب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، قال كذا وكذا فما له إلاّ الموت : فتغيّر الأمير حسين وغضب غضبا شديدا وقال : والله إن شهد معك أحد غيرك لأقتلنّه. ووصل الخبر إلى خزندار وبعث الباي حسين للحاضرين المجلس فخلطوا في شهادتهم لأجل خزندار.

وأما خزندار فإنه دخل بيته ورقد وضربه الورشكين[1]، [315] وصار يغيب عن نفسه فأخذ الإذن من الأمير حسين أن يرجع إلى تونس، وتحقق الأمير حسين مرضه فأمر أن يركبوه الغلوسة[2] وساروا به إلى أن وصلوا تونس وانزلوه داره فمرض أياما قليلة ومات وإن كان عاير النبّي صلّى اللّه عليه وسلّم لا رحمه الله، آمين. وإن كذب عليه عبد الرحمان الجامعي فاللّه حسبه. وترك ولدا هذا حد علمي. وأما اليوم كاتب عند صاحب التخت، واللّه أعلم.

(1) الورشكين : من الورش، وهو وجع في البطن.

(2) الغلوسة : عربة تسير بالغلس، أي في ظلمة الليل، انظر : ج 1، ص 303، ملاحظة 115.

[خبر سليمان كاهية]

ومنهم الحاج سليمان كاهية مملوك محمد باي بن مراد الذي عتقه وقصد الحج وحج ورجع إلى تونس، وخدم البايات وتحبب للأمير حسين وتقرّب إليه فزوجه ابنته، وجعله كاهيته في دار الباشا، لم يظلم أحدا قط، صاحب صدقات وخيرات، وطي الجانب، [سهل الحجاب] نغور شفوق، لا يرى مثل صهره وسيّده أحدا في الدّنيا، واقف في وظيفه على ساق الجدّ مع راتب العسكر، وكان الراتب كثيرا، قيل في كل راتب يدفع ماية ألف ريال وهي في العام ستة رواتب فالجملة ستماية ألف ريال، وهذا لم يعهد في راتب عسكر تونس منذ دخلها العسكر، ولا نقص ولا غيّر الباي حسين رحمه اللّه أحدا سواء كان من يستحقه ولا يستحقه. فإذا استحق الحاج سليمان كاهية في المال اخرج من ماله الحاضر وتسلّف من عند أصحاب الدولة وغيرهم حتى اليهود والنّصارى، فإذا جاء المال أعطى لكل ذي سلف سلفه، ولا يقدر أن يغيّر سيّده وصهره بطلب المال مدّة حياته. وهو رجل في ذاته نحيف الجسم، ترياقي[1] رزقه اللّه ولدا اسمه مصطفى من بنت الباي،

(1) ترياقي : نسبة إلى ترياق وهو دواء يدفع السموم.

فمات قبل البلوغ.

وكان كاتب دار الباشا حمودة الشّحمي رجل من أبناء تونس وهو والحاج سليمان كاهية على كلمة واحدة. ولمّا قدّم الأمير حسين القسطلي رجل أندلسي وصار من جلساء الأمير حسين [316] كان القسطلي ثالث الثلاثة الحاج سليمان كاهية وحمودة الشحمي[1] والقسطلي يدا واحدة في جميع أمورهم. ولمّا جاء المرحوم علي باشا مستنصرا بالجزيريّة وقريبا يصلوا الكاف اجتموا الثلاثة وتكلّموا واتّفقوا على أن يحضروا فرقاطة[2] متاعهم ويجهّزونها، وتبقى واقفة على المخطاف فإذا قدّر الله بكسر محلّة الباي حسين وهو لم يرجع إلى تونس رفعنا ما لنا وركبنا الفرقاطة وسرنا إلى طرابلس، فقروا الفاتحة على هذا الاتفاق، وحضروا المركب وخرج الباي حسين وكان عليه ما كان، ووصل خبره لتونس عند الزوال فركب حمودة الشحمي فرسه، وكذلك القسطلي واجتمعا وبعثوا إلى الحاج سليمان كاهية فلم يجدوه في ذلك الوقت، وهما في أكبر عجلة وخوفا، فسارا وتركاه وقصدا المركب، قيل من ناحية سكرة فوصلا إلى المركب معهما ما حضر من مالهما وركبا وسترهما اللّه تعالى، وسافرت المركب أيّاما وليالي إلى أن وصلت إلى طرابلس فنزلا واستوطنا طرابلس أيّام الباشا علي كلّها، واستحوذ الباشا علي على أملاكهما

(1) في أ: الشّحمي والقسطي.
(2) فرقاطة: دخيل من الفرنسية Frégate، سفينة حربية سريعة.

وأموالهما وكان في أولادهما وعيالهما ما كان.

فأمّا حمّودة الشّحمي فإنّه توفّي في طرابلس وأمّا القسطلي لما ملك أولاد المرحوم حسين باي البلاد رجع القسطلي إلى مدينة تونس فأعزّوه وأكرموه غاية الإكرام. وأمّا الحاج سليمان كاهية رحمه اللّه لمّا فاق من دهشته ركب فرسه البيضا وسأل عن أصحابه فأخبر أنّهم سافروا فسقط ما بيده ورفع ولاذ بمحمد باي أب الباشا، فلم يغن عنه شيئا، ودخل الباشا لتونس وخدمه مدّة قريبة أقلّ من شهرين[1] ثمّ سجنه، وفي بعض اللّيالي أمر ولده يونس بذبحه فطلّعه من السّجن وذبحه [317] قدامه حانبته، ويونس يأكل في عنقود عنب هكذا قيل واللّه أعلم.

(1) في أ: شهر

[خواص حسين باي]

وأمّا أقارب[1] الباي حسين المتوليون البلاد الغزالي خاله وأخوه عامر، فالغزالي في قلعة الكاف قيل مات نهار سمنجة يوم كسرة المحلّة يوم ضربته كورة، [فمات منها] وأمّا عامر باي بقى مع أخيه في القيروان إلى يوم أخذ القيروان فشدوه من جملة خدام الأمير حسين ورفعوهم إلى تونس فقتله الباشا مع من قتل. وأمّا مماليك الأمير حسين الكبار[أصحاب] الطرّق أحمد شلبي كاهية المحال ومصطفى كرونه آغة وجق الباجيّة فمات في أيّامه وتولّى مكانه خليل آغة، ومات بالقيروان، قيل انّه كان يعيش في أحد أبراج القيروان فإذا رأوه أصحاب يونس وهم محاصرون للقيروان قالوا لخليل آغة وهو جالس فوق البرج : روح بركاك[2] من هذا الحصر إلى سيدك يونس، فيقول لهم : اللّه واحد يا كلاب. قيل ضربته رصاصة في عينيه فمات لوقته.

وأمّا أحمد شلبي فشدّوه مع الجماعة السّابقة قيل قتله يونس، وقيل رفعوه إلى تونس فقتله الباشا. هذا خواص أصحاب الأمير حسين رحمه اللّه وكاتباه ومماليكه وأقرباؤه،

---

(1) في ب : اقرباء.
(2) كذا

وتركنا الكثير من خدامه خوف الطول والملل غفر الله للجميع ورحمهم. آمين.

[نهاية حسين باي] :

ولمّا انتهت أحكام الأمير حسين بمدينة تونس وأراد الله عليه بالخروج من كرسي تونس ومكث علي باشا بالجزاير يترقّب نصر الدّولاتلي له ابراهيم خوجة وارتاح الأمير حسين هذه السنين من سنة اثنين وأربعين إلى سنة سبع وأربعين ومائة وألف [1147] وقعت له انذارات قبل ذلك منها وفاة زوجته فاطمة بنت عثمان الدولاتلي سابقا، ومنها [318] انه طلع لمحلّة الصّيف إلى بلد باجة ومعه عياله في الفراقات[1] وداخل الفراقات الوطق[2] الذي فيه الحريم والخدم والعجايز وغيرهم، لما نزل الفريقات ودارت المحلة فدخل الباي حسين الفراقات وإذا بالنّار أخذت في الفراقات والوطق، وانكشف الحريم وهرعت الخدّام تجري إلى الباي حسين فحطّه رجل على كتفه وخرج به وانحرق الوطاق والفراقات، وهربت العيال وستروهم إلى أن وصلوا إلى وطاقه الكبير، وفي ساعته أرسل إلى تونس وجاؤوه بوطاق وفراقات أخر. ومنها وفاة محمود خزندار ومن أعظم المصايب عنده لأنّه كان مرتاحا عليه لا يدبرّ معه [أمرا] ولا يعرف معه عدد مال. ومنها وفاة ولده مصطفى قريب قدوم الجزيريّة، فحزن عليه حزنا شديدا وهو راشد أو قريب الرشد زاده الله رحمة فوق رحمة. آمين [إنه قريب مجيب].

(1) الفراقات : هي خيم الجنود.
(2) الوُطق : ج وطاق، الخيام وخاصة خيمة الأمير.

[خبر علي باشا بالجزائر]

ولمّا دخل عام سبعة وأربعين ومائة وألف [1147] صرخت ألسنة الخلق بأقلام الحق أنّ الجزيرية تجهزّ في أرواحها وبعثوا يخلصون من عند الرعيّة العوايد التي بمحلة الدوشمان[1] قربة وغرارة[2] وحقب وخيل وأبغال وما على الرعية من العوايد، ووصل الخبر إلى الأمير حسين سامحه الله فبعث أحد خواصه قيل عمر المورالي وقيل غيره إلى وجق الجزاير يتكلّم مع خواص الدولاتلي في التّعطيل وعدم الخروج ولهم كذا وكذا من الهدايا والمال، وإذا وجد حيلة يتوصلّ بها إلى الدّولاتلي ويعطيه من المال كذا وكذا، وسافر ذلك الرجل ودخل الجزاير فوجد بابا مسدودا وحكما منبرما ولا يقدر أحد أنّ يتكلّم مع الدّولاتلي ولا يخاطبه بتعطيل النّصرة لعلي باشا، وأصله أن علي باشا لما اشتهر [319] في مدينة الجزاير كما قدّمنا وجاء باي الطيطري[3] إلى مدينة الجزاير كعادته، وعلي باشا سامحه الله له معرفة به فتقابل هو وإيّاه، ،واشتكى له

(1) الدوشمان : الحرب.
(2) قربة وغرارة : القربة، وعاء من جلد يستعمل لحفظ الماء أو لنقله. والغرارة : وعاء من نسيج الوبر توضع فيه الحبوب.
(3) الطيطري : إحدى مقاطعات الجزائر.

حاله، وقال له : انّي جيت مستجيرا بكم وبهذا الوجق المنصور، والآن سبع سنين أو أقل قايم في هذا البلد ننتظر نصرتكم ونغرتكم، وكل من أتى إليكم نصرتموه وبلّغتموه مراده، والآن ما بقى في هذا الوجق من ينصر للّه وزاده أكثر من هذا. ولكن يا سيدي ويا أخي المطلوب من فضلك أن تتكلّم مع الدّولاتلي إبراهيم خوجة[1]، وإمّا أن يسرّحني نخرج من هذا البلد لأنّي عييت من الحصر على وجهي، والذّي قدّره اللّه لا مهرب منه ولا حيلة [لي] وإمّا أن ينصرني ويخرج لي المحال وكلّ ما صرف من المال فأنا به زعيم ولا يخاف من قتال العسكرين بل عسكر تونس كله في يدي ولا يقع بيننا وبينهم قتال، غاية ما في الباب أن عسكر الجزاير الذّي ينصرني به سيّدي ابراهيم خوجة إنّما [هو] يمنعني من العرب وغيرهم، وأمّا وجق تونس وأهلها إن رآى صاحب المحلّة المتولي أمرها أنهم يعرضوني من حين نصل إلى سراّط إلى أن نصل تونس ويجتمعون علي حتّى يصيروا أكثر من المحلّة، فيعلمني أنّي صادق. ويوصلني إلى حيث أراد اللّه وإن رأى حاكم الترك ورئيسهم أنّه ما عرضني أحد فيرجع ويردني معه أو يطردني من المحال وترجع المحلّة إلى الجزاير.

وأمّا بوعزيز وأولاد عمار فهم أنسابي وأحبابي ودمي ولحمي، ما يرجعون عن المسير معي، وتكثير السوّاد والقومان ولو دخلت البحر ومع هذا ادفع إليه كل مرحلة ما هو معلوم من المال، قيل اشترى[2] معهم الرحلة بألف ريال إذا دخل تونس،

(1) ابراهيم خوجة : انظر : ج 1، ص 284، ملاحظة 84.

(2) في ب : استوى.

وللدولاتلي كذا وكذا من المال، ولرايس محلة الترك كذا وكذا [320] من المال وعوايد العسكر وغيرهم كلّها نعطيها إذا ملكت وجق تونس، إلى أن بهت هذا الباي من كثرة هذه [الأموال] وهذا الذي قاله كلّ أحد يريده ويحبّه، مال، ولا قتل ولا قتال، ويرجع العسكر سالما غانما، واللّه العظيم لو كلّفني الدولاتلي بالمسير معه لسرت حبّ باي قسنطينة أو لم يحب. هذه الأموال لا يصبر عليها أحد من غير جلد ولا جلود(؟) ووعد باي الطيطري، على ما قيل، علي باشا أنّه يخاطب الدّولاتلي ويقول له : إنّ هذا الرّجل تحملّ لك بهذه الأموال سوى الهدايا وغيرهم من غير ضرر لعسكرك سوى ما يغنمه العسكر ثم يصير كل عام يبعث إليك ما تأمره به من مملكة تونس، وتزداد ملكا على ملك.

ثمّ إنّ علي باشا وعد باي الطّيطري بالمال إذا قضى أمره فتواطآ على ذلك وخرج من عنده، ولما التقى باي الطيطري بالدّولاتلي واستخلى به وقال له : أريد أن أتكلّم معك في أمر هو صلاح لك وصلاح لوجق الجزاير، فخلى له المجلس وقال له : أما في علمك أنّ هذا الوجق نصره اللّه من أول الزّمان ومهما[1] جاءهم أحد مستنصرا بهم ومستجيرا بهم فينصروه ويملكوه وجق تونس، وصار يعدّد له في وقعات عسكر الجزاير وخروج الدّولاتلي بنفسه من خطرة الشّيخ كاتب بن شنوف. وهذه الخطرة في زمن المرحوم يوسف داي[2] وهي التي فتحت هذا

(1) مهما : مكتوبة دوما مهمى.

(2) يوسف داي : بويع له سنة 1610 وتوفى في 13 ديسمبر 1637. ودفن في صحن جامعه المشهور بسوق الترك.

الباب إلى خطرة ابراهيم الشريف[1]، وأنت بحمد الله تابع ليس ببادع، وهذا الرّجل علي باشا مستجيرا بكم ومستنصرا بوجقكم المنصور في كلّ واقعة، والمشهور عند الحاضرين والبادية، [ما التهيتم عنه ولقيتموه][2] ولم تسرّحوا لهذا الرجل [321] أن يخرج من بلادكم ويقصد حيث يريد ويصير عارا عليكم، وتخرط كلّ النّاس عليكم ويقولوا : طردوا المستجير بهم خوفا من وجق تونس أن يكسروهم ويرجعوا خايبين وإلاّ انصروا هذا الرجل، وإن ملك وجق تونس ازداد ملك إلى ملكك، ومع هذا إنّه التزم لكلّ مرحلة ألفا، وكلّ ما تصرفون على المحال يوديّه لكم ما عدا الهدايا والاحسان للعسكر، والتزم أيضا أن وجق تونس إذا رأوني هربوا إليّ بأجمعهم، وصار باي الطيطري لما وعده به علي باشا يشقشق ويفتل للدولاتلي في الغارب والذروة[3] إلى أن طمع ووعده بالنّصرة العام القادم، وهو عام سبعة وأربعين وماية وألف [1147].

وشاع هذا الخبر كما قدّمنا، وبعث الدّولاتلي للحنانشة وغيرهم في خلاص العوايد، كما قلناه قريبا، ودخل عام سبعة وأربعين وماية وألف [1147] ولمّا حلّ وقت الذّي تخرج فيه محال الجزاير إمّا لخلاص أموالهم من الرّعيّة ومحلة الدوشمان[4]

(1) ابراهيم الشريف : تولى خطة داي في عهد مراد الثالث السفاح المشهور ببوبالة. قتله وتولى مكانه مدة ثلاث سنين وشهرين، توفي سنة 1706.

(2) زيادة في ص.

(3) مثل، أي يحاول أن يقنعه بمختلف الحجج وهو تعبير عامي يعني يلح عليه حتى يؤثر فيه، ذروة الشيء أعلاه والغرب : ما بين السنام والعنق وهو الذي يلقى عليه خطام البعير إذا أرسل ليرعى.

(4) الدوشمان : الحرب.

مع وجق تونس وعادتهم أن يفتحوا باب الوطاق لقبالة تونس. فلمّا قاموا الوطاق فتحوا بابه قبالة تونس فشاع الخبر عند العسكر وغيرهم، دوشمان مع تونس، فأخذ عسكرهم في التجهيز لمحلّة الفتن.

وأمّا علي باشا لمّا صحّح الخبر بمجيء الجزيرية به لتونس استقرض أموالا كثيرة وجهّز نفسه واستقرت أصحابه أيضا وغيرهم وجهّزوا أنفسهم وجاءه من يريد تونس من كلّ مكان قريبا وبعيدا. ولمّا دارت محلة العسكر أمره الدّولاتلي أن يجعل محلّته قياطن[1] وبيوت شعر، فأمر الباشا خواصه وخدّامه أن يجمعوا له القياطن وبيوت الشّعر فجمعوا ما وجدوا ونصبوها قريبا من محلّة العسكر، ولمّا حلّ وقت خروج العسكر قيل شهر أبريل في آخره، وقيل أول ماية نبّه الدّولاتلي على العسكر بالخروج فخرجوا كلّ من عنده سفر لمحلة الدّوشمان، واستخلف الدّولاتلي ابراهيم خوجة في [322] موضعه إبراهيم خزناجي وأقامه من كلّ ما يستحقّه، ولم يخرج بنفسه كعادة الدّولاتلي السّابقة.

ولمّا حلّ وقت الرّحيل طلع علي باشا للدّولاتلي وشكره على ما صنع، ودعا له بخير فوصّاه الدّولاتلي بأمور بينه وبينه. ولمّا انفرق المجلس أذن الدّولاتلي لعلي باشا سامحه الله أن يطلع هو وأصحابه لبيوتهم ونزلتهم، فلما وصل محلّه أذن أصحابه من له حاجة فليقضيها فغدا إن شاء الله الرّحيل.

(1) ج قيطون : خيمة.

فأسرعوا أصحابه في قضاء حوايجه وقضاء حوايجهم. ولمّا طلع النّهار طلع علي باشا إلى خبايه ودخله وعمرت أصحابه قياطينهم، ومن الغد خرج ابراهيم خزناجي ودخل محلّته ومن بقت له الحاجة قضى حاجته. ومن الغد رحلت المحلّة ومعها المرحوم علي باشا بتلك الأنفة الأنيقة، والطبيعة الخريقة.

وأمّا عمالة تونس وأهلها فشاع فيها الخبر بقدوم محلّة الجزيرية ومجيبها، والكذب رواجه الفتن فمن مصدّق ومن مكذّب، وتارة إلى الكاف يوصلونها، وتارة يبطلونها شتاء وربيعا، والنّاس كثيرهم لم يصدّق بمجيبها لأنّ حرب الجزيرية لم يعهدونها، ولهم قدر الثّلاثين سنة لم يرونها.

وأمّا الباي حسين وخدامه يرحلون فيها كلّ مرحلة من حين خرجت من الجزاير إلى أن دخلت[1] الحنانشة واجتمعت الحنانشتين بوعزيز وأولاد عمار[و] إلى تونس قاصدين،قيل ولمّا وصل الباشا تل الحنانشة واجتمع بهم تزوّج علي باشا بنت محمد الصّغيرّ من أولاد عمّار وزوّج ولده يونس اما بنته أو بنت ابن ولد بوعزيز، وطمعوا في ماله وهداياه ومملكته فكافاهم بخيره وقوّاهم بماله، حتّى يأتي خبرهم إن شاء اللّه تعالى.

[استعداد حسين باي لمواجهة جيش علي باشا :]

ولمّا وصلت محلّة الجزاير إلى قسنطينة وتحقّق الباي حسين وصولها أمر برمي الكتان[2] محلّة كبيرة وترك ولده

(1) في ب : وصلت.
(2) رمي الكتان : نصب الخيام.

محمد سامحه اللّه خليفته [323] وجهّز المحلّة، وبعد فراغ التّجهيز خرج من باردو ودخل محلّته، ومن الغد قصد[1] ناحية الكاف إلى أن وصل إلى الزّوارين[2] وأقام بها، وأمر أهل الكاف أن يخرجوا من البلد، ولا يبقى بها أحد، لا من قريب ولا من بعيد، فأخذوا في التّشتيت. وجاءه الخبر بأنّ قرية الكاف صارت خالية مأوى للوحوش، ومجبى للجيوش، وجدّ عليه ذلك ورحل من هناك.

ولمّا وصلت الجزيرية سراّط، طالبا مدينة تونس لمّا كثر عندهم العياط، فوصل إلى باردو ودخله وكتب أمره إلى تبرسق وتاستور ومجاز الباب وقريش الواد وطبربة أن يرحلوا إلى أي بلد أراه يدخلوا. وكان الوقت أواسط أواخر ماية، واشتد الحر[3] وبعث إلى بلد باجة الكرارط فرفعوا فيها المدافع، وجميع حوايج الباي حسين وخلاّ باجة خالية بلاقع، فأخذ من ينتسب للرّزق والرّفاهية في الرّحيل إلى مدينة تونس أكابرها أو قاضيها وأعيان سكّانها، وكان ذلك الوقت الشّيخ سيدي بلقاسم الصمادحي حيّاً، فأبى عن الرّحيل وجلس في زاويته هو وبنو عمه. فلمّا رأى من ليس له قدرة على الرّحيل ولا على الكراء للإبل والخيل فأقام معهم، فلمّا سمع بهم الباي حسين بعث الإبل لترفع عيال الصبايحية فخرجوا كلّهم في يوم واحد، وتبعهم من هو خايف من أحمد الغربي القايد،

(1) في ب : رحل قاصدا.
(2) الزوارين : من ولاية بنزرت، معتمدية أوفيق.
(3) أ: الحزم.

وسبقت النّاس العيالات، وأخذت في الشتات، وبعد بلوغ العيال لحق كلّ أحد أهله وتأخّر مسعود كاهية في بلد باجة حتّى لم يبق بها أحد طالبا حاجة، وعمّر البلد الصمادحية ومن لجأ إليهم من البلدية، ولا قدر الباي حسين أن يغيّر الشيخ الصمادحي وهو محبّ لرحيل بقية من قعد، والصمّادحي وغيره حتّى لا يبقى بها أحد، والتهى الباي حسين في شؤونه ومقامه بتونس وخروجه، ووجد لما رجع من غيبته يحفرون في حفير قبالة الشيخ المراكشي، بلدية تونس وغيرهم، فقال [324] لهم: من أمركم بحفيره فبطل ذلك الحفير، فدعوا له النّاس بخير.

ولمّا أقام أيّاما بعث لتونس ديوانا في باردو فصوّب وجوه العسكر وحكّامه، فلمّا تمّ الدّيوان قال لهم الباي حسين رحمه اللّه : ما عندكم من الراي اخبروني به، والأحسن لي ولكم اصدقوني فيه.

فقالوا له : لم نخرجوا اليهم وإذا قصدونا إلى تونس قاتلناهم عند حرم تونس، فإذا قتل أحد منّا رفعناه إلى داره ورجعنا إلى قتالهم وأخذوا أصحاب القتيل في دفنه، وإن شاء اللّه يرجعوا خايبين، وأنت حضرت وعاينت وتولّيت قتالهم إلى أن وصلوا وخيّب اللّه سعيهم ومقصودهم، ورجعوا إلى بلادهم وأنت بحمد اللّه عسكرك مرتاح وعسكرهم شاقي، [منزاح]، فلمّا سمع منهم الباي حسين هذا الكلام قال لهم : إن شاء اللّه يكون هذا الذي قلتم فراحوا بسلام. فقاموا من هذا

الدّيوان عاملون على هذا الشان، ومن الغد دخلوا الديوان، وكتبت الخوجات طوايف العسكر إلى كلّ باب من أبواب تونس، وجلست بولكباشية[1] في الأبواب، وعملوا على القتال إذا وصلتهم محال الجزيرية ولا يغيب شيخ ولا شاب.

[وصول علي باشا إلى الكاف :]

وبلغ هذا الخبر إلى علي باشا أو الخزناجي أمير العسكر وهم قايمون بقرية الكاف، ورجع إلى قرية الكاف كثير من أهلها وعاملهم علي باشا والعسكر ما يجلب إليهم هاربها، فانحلت حزمتهم، وانكسرت شوكتهم، وصاروا يقدّمون رِجلا ويؤخّرون أخرى، وأقاموا بقلعة الكاف فارتاح فيها عسكرهم من التّعب، وزال ما بهم من الوصب، إلى أن حلّ وقت الأجل، فأزعج الباي حسين من مكانه وأنزله من على كرسيّه وقال له لسان الحال : ما بقى لك زمان في تونس، اخرج منها ليدخلها علي باشا وولده يونس، فرقد في فرشه ونام فلمّا أصبح قال : اطلعوا إلى تونس واخبروا [325] هذا الديوان، أن يرموا محال الكتان، ويجهّز العسكر نفسه فإنّي خارج إلى لقاء محلّة الجزيرية ونقاتلهم في الفسح والبريّة أحسن من حصرنا في المدينة، وأنا ليس عندي مال ولا طعام ولا خزينة، فإذا طال مقامهم أضرّ بنا الحصر والرّتبة[2] والمخازن والمطامر خالية

(1) بولكباشية : ج. بولكباش : قائد سرية فيها مائة نفر.
(2) إ شارة إلى الراتب.

من البرّ، فيجوع العسكر فيطلبنا بما هو ليس بحاضر، فيتفرّقوا علينا ويحصل لنا الكسر، ولكن البر والوسعة فيها رحمة، امّا نعمة او نقمة، ونذروا على كلّ من ياكل الرّاتب أن يحضر ويخرج معي لمقابلة هؤلاء الظّالمين. وأمر الباي حسين الشوّاش بأن يقولوا : بعد غد الميز، ولا يتخلف ذليل ولا عزيز.

فأصبحت أصحاب الرّاتب سارية لبطحة القصبة وخرج الدّولاتلي ومن معه من القصبة ومدّت الصفوف ميات وألوف، وسارت قاصدة باردو، ثمّ التوى الصفّان راجعان إلى تونس، وهذا من الخرايف.

واعتقد الباي حسين إذا وصل خبر هذا المين واخبروهم أن عساكر الباي حسين لا تعدّ ولا تحصى فيرجعون إلى بلادهم من قلعة الكاف، وهذا ما خمّمه الخرّاف.

ذكر خبر محلّة الفحص

قد قدّمنا ما عمل الحاج مصطفى بن متيشة في رمي محلّة لأجل رحول الجزيريّة، ورحلوا وبقت ذلك الأخبية منصوبة، فأمر الباشا علي ولده يونس رحمهما الله أن يجهّز ذلك المحلّة بعسكر زواوة مقدار ألف زواوي ويرحل بها ويسير إلى أن ينزل الفحص، ويمكث هناك لقصد دريد والهارب من عند عمّه حسين بن علي، فإذا سمعت النّاس بالمحلّة نازلة في الفحص قصدوها، فبعث يونس إلى خوجة زواوة أن يحضر له ألف زواوي [326] فلمّا جمع زواوة أعطاهم راتبهم فأقاموا نفوسهم ودخلوا المحلة وجهز يونس نفسه. فلمّا فرغ من شغله دخل المحلّة ومعه الخيل، ورحل وسار إلى أن نزل الفحص واتّخذه دارا وجاء الخبر إلى القيروان بهذه المحلّة، وكلّ من فيها زواوة ليس فيها عسكر، فطمعوا فيها فاجتمعوا ودخلوا على الباي حسين وقالوا له : نريد أن تخرج معنا إلى محلّة زواوة وهي نازلة بالفحص وإن لم تسر معنا أرسل معنا علي باي فأجابهم على ذلك وهو غير رايد لما هنالك، فاجتمعت القراوة راكبين على الخيل والبغال وخرجوا وخرج معهم

علي باي، ولمّا توسطوا الثّنيّة قدم الأمير حسين ولده في المشي معهم فبعث إليهم وردّهم ورجعوا إلى القيروان، وأطلقوا ألسنتهم فاجتمعوا وخرجوا ومعهم علي باي وفي المرّة الثّالثة بعث إلى جلاص فقدموا عليه بأهلهم وأموالهم وجمع لهم الباي حسين غيرهم وخرج هو بنفسه ومعه أخوه عامر باي ومسعود كاهية، كاهية الباجية ومن معه من صبايحية الباجية، وسار من القيروان يقدّم رِجلا ويوخّر أخرى خايفا من هروب القوم عليه ويتركونه وحيدا، ولا زال سايرا إلى أن وصل قريب المحلّة ووقف حتى لحقت النّاس، ثمّ إنّ الصبّايحية ركضوا إلى المحلّة ركضة واحدة فقال عامر باي : القوم هربت، يخبر في أخيه، وكان يونس واقفا فوق ربوة عالية ينده النّاس فهربت الخيل الذي معه.

وأمّا زواوة لمّا تحققّت أن الأمير حسين وصل إليهم تركوا محلّتهم وعرضوا الباي حسين وباسوا يده وهرب يونس قاصدا تونس، فدخل الباي [327] حسين ومن معه في المحلّة، ودخل الباي حسين وطاق يونس ودخل من معه الأخبية وعمروها، وفرحت النّاس فرحا عظيما. ولمّا وصل يونس وانتشر الخبر بهروبه وأخذ محلّته وهروب زواوة إلى الباي حسين في مدينة تونس فرحت النّاس عام وخاص بهذا الخبر واستبشرت برجوع الباي حسين لملكه وصاروا ينتظرون في قدومه، وفرحت الكوارغلية بأخذ المحلّة وقدوم والدهم عليهم.

ولمّا اجتمع الأمير حسين ومن معه من دريد فتشاوروا فيما بينهم، قالوا له دريد : حيث أخذت هذه المحلّة ونصروك زواوة وغيرهم ارحل من هنا انزل قريبا من تونس، وامكث بموضعك ولا تقصد تونس، فإنّ الهارب من مدينة تونس كل يوم يأتيك عسكر وغيرهم ومخازنية، فإذا سمع الباقون هربوا إليك حتّى لا يبقى مع علي باشا إلاّ القليل فعندها يهرب وتدخل بلادك من غير قتال ولا مقتول. فقال لهم الباي حسين : هذا الأمر علينا يطول، وأنا ما عندي مال، لترغب فيه الرّجال، ولا مؤنة لهذه المحال، وإذا جاعت النّاس وملّت من طول المقام هربت. قالوا له : حيث تمكّنت بهذه المحلّة فارجع إلى القيروان حتّى يشتدّ عضدك وأنت تعلم ما صنع الباشا بالنّاس، فمن كان عدوك رجع اليوم حبيبك، ويأبى اللّه إلا ما يريد.

ولمّا رحل يونس من المحلّة هاربا واجتمع بأبيه علي باشا وكان بلغهم هروب دريد على الباي حسين، وأنّ دريد نازلة بالمكان الفلاني بعثوا لعلي باشا ان خدمتنا خدمناك. فبعث إليهم ولده يونس، يأتي بهم إلى تونس. فلمّا وصل يونس إلى نصر بن بالضيّاف[1] فرحوا به واتفقوا على الرّحيل معه فسمعت دريد الذين مع الأمير حسين قالوا للباي حسين : هذا يونس وصل إلى دريد وقد رحلوا معه فارحل أنت من هنا ونتعرض لهم، إمّا أمسكنا يونس وأخذنا [328] النجع أو هرب وأخذنا النّجع، وشتّتنا شمل الباشا علي.

(1) في ب : بضياف.

فلمّا قالوا دريد هذا الكلام للباي حسين قرا فيهم النقص خوفا أن يلحقوا بمن هرب، فأخذ يتعلّل لهم وفهموا منه أنّه قرا فيهم النّقص فسكتوا عليه وقالوا : لا شدّة في من رخاه اللّه ولا نصر لمن خذله اللّه. وأمّا الباي حسين فإنّه أقام بذلك الدّار حتّى غلّبوا عنده قصد تونس والنّزول عليها فرحل وقصد تونس واهتزّت تونس فرحا به وبرجوعه لما يعلمون من أمنه وعدله وقد أخافهم علي باشا بالقتل والسجن وأخذ المال، مخازني أو بلدي أو غيره، قيل إنّ بعض أولاد الزّنا وجد أمه نايمة في بيت مظلم فطاح عليها ليقع معها فصارت المرأة تصيح وتقول له : أمّك يا فلان، أمّك. قال لها : ما مومي أحد. وكذلك المرحوم علي باشا قال : مامومي أحد.

ولا زال سايرا الباي حسين إلى أن نزل كرايم[1] تونس وصارت محلّته مقابلة لتونس، وكان قبل هذا رحلت محلّة زواوة أمر الباشا علي برمي محلّة الشتّاء كالعادة المعتادة ودخل المحلّة بعض العسكر وهي دايرة بالفسقية تترجّى في يونس[2] حتى يرجع بمحلّة زواوة ثمّ يسافر إلى الجريد. فلما وقع ما وقع على محلّة زواوة وهرب يونس إلى تونس تعطلّت ذلك المحلّة عن السفر، وبعث المحلّة في موضعها معمّرة ببعض عسكرها.

ولمّا نزل الأمير حسين الكرايم أراد علي باشا أن يهرب باللّيل وحضرّ أبغاله، وحمل أحماله، وعمل على الهرب فقال له

(1) كرايم : من ضواحي مدينة تونس.
(2) في الأصل : تونس.

الحاج مصطفى بن متيشة وغيره : إلى أين تهرب؟ البرّ ما يسعك والبحر ما يسعك وما يحملك، وصارت النّاس كلّها لك أعداء، فإذا خرجت من هنا أوّل من يسمع بك من الأعراش يتعرّض لك ويأخذك أسيرا ويوصلك إلى عمّك فيقتلك ويقتل أولادك وعيالك وأصحابك، ولكن الأصلح أن تصبر في موضعك واعط العسكر زوج نواصر طاراقي[1] غدا على الصباح، وأمر اكابر العسكر أن [329] يقعدوا على الأبواب، وابعث غدا أولاد الكويات[2] يأتوك على عجل، وفرّقهم على الأبواب ليلا ونهارا إلى أن يأتي سيدي يونس بطلعته المباركة الميمونة. فأخذ الباشا علي هذا الرأي وعمل به، وقال : «إن ينصركُمْ اللّه فلا غالِبَ لكُمْ»[3]، وقال : «إلاّ تنصروه فقد نصره اللّه»[4] فبعث إلى ديوان التّرك وقال : إنّي زدت زوج نواصر في راتب كلّ أحد.

وانتشر هذا الخبر في تونس، وبرّحت الأعجام ومن هو محبّ في علي باشا وأطلقوا ألسنتهم بشكر الباشا وبعث لأولاد البليدات جاءت عن عجل كلّها وقعدوا في الأبواب ونذر على من عنده سفر في المحلّة فليدخل المحلّة كلّ من هو مسافر، وركب الأمير حسين باي وركبت معه قومه وسار إلى أن وصل سيدي الزهروني[5]، وخرج العسكر وعلي باشا ومعهم المدافع

(1) طاراقي : نوع من النقود.
(2) الكوية : من الكوة، الخرق في الحائط وتستعار للمزارع.
(3) آل عمران، 160.
(4) التوبة 40، «الا تنصروه فقد نصره اللّه إذ أخرجه الذين كفروا».
(5) الزهروني : من ضواحي تونس الغربية.

وركبت الخيل، والتقت الخيل بالخيل، ومات من هنا ومن هناك، والباشا علي والعسكر واقفان قريب الزّهروني والمدفع ساعة يتكلّم، والباي حسين ما قدر أن يتكلّم، وكذلك علي باشا إلى أن صار وقت العصر فرجع ذلك ورجع علي باشا ودخل العسكر محلّته ونزلت المطر، وكثر الوحل، ولمّا رأت الكوارغلية فعل الأمير حسين وأنّه لم يتقدّم ولم يصدم عليهم ولم يقرب منهم ولو قرب منهم لأسرعوا إليه ونصروه، ولكن لم يرد اللّه رجوعه إلى تونس، أيّست منه وعضّت أناملها، ودبّرت أصحاب الأمير حسين عليها : هذه الدّار لم تصلح بنا، ومن هذه النّاحية الأبراج وباردو، لا تقدر أن تصل إلى تونس ولكن نرحل من هذه الدار وننزل قبلة تونس قرب القنطرة وواد مليان وندخلها من قبلتها. فأجابهم إلى ذلك ورحل ونزل تونس قريب واد مليان ووصل الخبر إلى علي باشا أنّ كوارغلية البليدات من سليمان [بن سليمان] إلى الحمامات كلّهم رفعوا إلى حسين باي المكاحل والغلّة والهديات فقال : واللّه من [330] نصرني وهناني بالملك واستفردت به لأقابلنّهم بفعلهم وآخذ منهم المال حق الهديات وأقتل كبارهم، وأشتّت شملهم. وضمر لهم في قلبه كلّ شرّ.

وخرج العسكر من تونس إلى أن قرب من محلّة عمّه حسين، ووقف وتشالت الخيل إلى قريب العصر ورجع كلّ واحد إلى مكانه، وهرب إلى الأمير حسين بعض العسكر، ومن الغد لمّا تقابلت النّاس هرب جاباللّه بوفردة لمّا رأى علي باشا

أرخى فيه العين ولم يوله طريقا، فعمل في خاطره وركّض فرسه قدّام النّاس، وقصد قوم حسين باي وهو يقول : قعرتها أما تعرفوني قعرتها؟ إلى أن وصل الأمير حسين فنزل وقبّل يده ففرح به لأنّه كان يعدّونه من الشّجعان، وهجم بعض خيل للمرحوم حسين بن علي فرفعوا قوم علي باشا وهربوا راجعين إلى تونس، وقف الخوف في عسكر علي باشا والمحب للأمير حسين عمل على الهروب إليه، ولكن لم يرد اللّه. ومن الغد جاء يونس ومعه نجع دريد وكثر خيل الباشا وعلم أنّ عضده قد اشتد.

ولمّا رأت بعض المحبين للأمير حسين من ربط باب عليوة تأخّر الأمير حسين بعثوا إليه وقالوا له : ابعث ولدك والأولى أنت بيدك ومعه زواوة ومن تعتمد عليه وادخل الرّبط فلا يعرضك أحد، والنّاس كلّها منتظرون لقدومك، فإذا دخلت الرّبط فما عليك في المدينة نكسّروا أبوابها ونحرقها وتدخل إلى بلادك، فإذا سمع بك ابن أخيك أنّك ملكت المدينة هرب.

فلمّا ورد عليه هذا الخبر أمر زواوة بلبس سلاحهم وأمر خليل آغة أن يسير معهم. ولمّا طاح اللّيل وكان الشّهر ظلمة أواخر الشهر، خرجت زواوة ومن معهم من طالبي تونس وخرج معهم قيل خليل آغة إلى أن وصلوا باب عليوة. ولمّا رأتهم العسّة التي فوق الباب هربت فكسّروا الباب ودخلوا وقامت النّساء تزغرت عليهم، وهرعت إليهم [331] أهل الرّبط بكلّهم، وصاروا ينشدون أين الباي حسين أو سيدي محمد أو

سيدي علي، فتقول لهم زواوة : ها هو خليل آغة واقف عند الباب، فإذا سمع الرجل بأنّ الباي حسين لم يأت معهم رجعوا إلى ديارهم وأغلقوا أبوابهم، وكثيرهم صار يقاتل في زواوة. وولّت أصحاب العسّة وقابلوهم بالرّصاص حتّى أخرجوهم من الباب وولّوا منهزمين خايبين إلى من بعثهم، وأكثروا عليه زواوة في اللّوم، وهرب كثير منهم، وعند طلوع الشّمس طلعت الأتراك للجلاّز تفتّش ذلك الغياب[1] وغيرها، فالذي وجدوه بها راقد شدّوه وجاؤوا به إلى باب عليوة وقتلوه. وعند الصّباح بعث الباشا علي النّصارى يحفرون في ذلك الزّبلة العالية التي عند الباب وبعث مدفعا جعلوه ثمّه. وجاء الباشا بالخيل وخرج معه العسكر وسار ووقف قبلة الزيتون، وتشالت الخيل ورجع كلّ أحد إلى مكانه، ومن الغد كثر العسكر والخيل، وسار الباشا الصباح.

وأمّا أشتات الباي حسين من جلاص وغيرها، لمّا طلع النّهار جعلوا يقطعون الواد بالغنم من هذه النّاحية إلى ناحية الواد الأخرى، ودخلت ذلك الاشتات بعضها في بعض. ولما رأى الباشا علي اشتغال النّاس بسعيهم تقدّم هو ومن معه قليلا وأتته جماعة من الوسالتية قريبا من الخمسماية صناديد مختارين لا يحملون الذلّ ولا العار، ويقدمون النّار جهار[2]. فلما رأى الباي حسين تقدّم الباشا ومن معه قبل راس فرسه إلى

(1) ب: الغياب وغيرها والمراد الغيب، ج غابة.

(2) هذه الجملة ناقصة من ب : من وأتته.

نحو القبلة وسار، فقال له أصحابه : إلى أين مولّي وتترك هذه العباد، وهم مشتغلون بتقطيع سعيهم من الواد؟ فقال لهم : نطلع إلى رأس ذلك الرّبوة ونقف هناك. وسار، ولما غاب عن أعين النّاس سار، ولم يلتفت إلى أحد، فصرخ صارخ : الباي هرب. فلما سمعت النّاس هربت وتركت سعيها وهرب من في المحلّة وتركوها [332] خالية ليس فيها أحد، وصارت تلك الأغنام الذي لا يحصي عددها إلا اللّه هاملة.

فلما رأى الباشا سامحه اللّه أنّ القوم كلّها هربت تقدّم إلى المحلّة وهجم عليها هو ومن معه من العسكر، فقطعوا أخبيتها وهجم كلّ من في ذلك المحال على ذلك الأغنام والبقر والبُهُم وغيرها، ووصل الخبر إلى تونس أنّ المحلّة أخذها الباشا، وهرب الباي حسين هو ومن معه فطلعت من تونس ذلك الجيش ووصلوا إلى ذلك الأغنام الهاملة، وكل من يقدر على الكثير من الغنم أو قليله جاء بها إلى تونس وسارت الزّناقي مملوءة بها والأسواق والدّيار، هذا الذي خلّفوه خيل علي باشا يجتمع أربع وخمس وأقل وأكثر ويسوقون من الغنم الماية والمايتين وأكثر وأقل. ولمّا وصل الباشا علي إلى وطاق يونس الذي خلّفه نهار الوقعة وجد فيه كرسي فرفعوه أولاد تونس وجعلوه قدّام الباشا، واشتغلت النّاس بأخذ المحلة وذلك البيوت الشّعر إلى قرب العصر، والدّايم هو اللّه.

ورجع علي باشا سايرا وإلى جنبه محمد المنتشالي الكبير، والعسكر قدّامه صفّين، والكرسي قدّام الباشا في

وسط الصفّين، وذلك العسكر يزهرون[1] ويعيّطون : اللّه سورين(؟)، ودخل باب عليوة وباب الجزيرة[2] والمدينة سايرا على تلك الحالة إلى أن خرج من باب سويقة وهو يضحك فارحا إلى أن خرج من تونس ووصل باردو ودخله، والذي في يده شيء حطّه وولّى عليه الحزن والبكاء وخصوصا من عنده مربوط أو هو موعود في نفسه. هذا ما كان من خبر الباشا، وأمّا الأمير حسين لمّا سار من المحلّة وتغيّب عنها لم يلتفت ولم ياقف ولا نزل ولحقته أصحابه ثواني وثوالث إلى أن وصلوا إلى القيروان.

(1) أي يزارون.
(2) ب : الزيرة.

[333] ذكر رجوع الباي حسين إلى القيروان منهزما

ولمّا رجع وسمع برجوعه من كان معه كثيرهم، ورجع إلى من هو في حكم الباشا وتغيّب في البلدان وعند العرب وتفرّقت زواوة الذين كانوا في محلّة يونس، وأراد الباشا علي هدم ديوانهم وعزل خوجتهم وعوّل على أنه يبطل عسكر زواوة ولا بقي يتبعه زواوي، فرجع عليه ولده يونس والحاج مصطفى بن متيشة خزندار عند الباشا علي. ولمّا كثرت الشكايات عند الباشا والتضريع إليه بالذي رجع من جرّة عمّه حسين قال الباشا : من بايعني وقبّل يدي فلا شفاعة فيه. وأمّا الذي يقبّل يدي ولم يبايعني فما عليه حرج ولا نعاقبه. وهي حيلة منه لكي يسمع بهذا الكلام من هو مع عمّه فيرجع إلى تونس ولا يخاف من أحد.

ولمّا سمعت الهاربون بهذا الخبر، كلّ من لم يبايع الباشا كثيرهم رجع إلى تونس أو غيرها لأجل عياله وأولاده ووطنه. ودخل الباي حسين القيروان، في أعظم ما يكون من الهوان، كما تدين تدان، هذا حكم الملك الديان.

قال المنقول عنه : ومكث الباي حسين هو وأولاده أيّاما

قليلة بعث ولده محمد باي رحمه الله للنمامشة لزاوية الشريفة يستنصر بهم. وأمّا الباي حسين جهّز محلّة بالصّبايحيّة وجلاص، ثمّ رحل وقصد قفصة، ثمّ رجع لواد اللّبن يجمع في الهمامة، وورد على الباي حسين أحمد الجدر شيخ الحمارنة. وطلبت الهمامة من الباي حسين ما يقومون به فأعطاهم المونة وصار يجمع فيهم. وأمّا ولده علي تركه في القيروان لأجل القراوة قالوا: علي باشا هو سلطاننا.

هذا ما كان من خبر الباي حسين رحمه الله. وأمّا المرحوم علي باشا لمّا دخلت سنة ثمانية واربعين ومائة(1) وألف [1148] وكان [334] قد كسّر عمّه حسين، وقد قدّمنا أنّ محلّة الترك خرجت ودارت بالفسقيّة، وكانت عاملة على الرّحيل إلى بلاد القبلة. فلمّا وقع على محلّة زواوة ما وقع تعطلّت ذلك المحلّة إلى أن كان ما كان، أمر الباشا بتجهيز ذلك المحلّة، فلمّا فرغ شغلها خرج يونس من باردو ودخل وطاقه، ومن الغد رحل ورحلت المحلّة العسكرية صافية ليس فيها زواوة.

ولا زال يونس يرحل ويقيم لأنه ليس عنده إبل فصار يقيم حتّى تأتيه الإبل فيرحل عليها إلى أن وصل إلى القيروان. ومن عادة الله في عباده أنّ البلاد أو القرية أو النّجع أو الجبل إذا عصى على أحد ونافق بأحد لم ينافق جميع من في البلاد على وتيرة واحدة وجماعة واحدة على كلمة واحدة بل لا بدّ في ذلك البلد أو غيرها من هو محب لذلك المنافق عليه ولا يحب أن

(1) ص: مائتين.

تنافق البلاد لأجل الذي دخلها، فإن كان غالبا ومعه الكثير من أهل البلد فهو الذي يظهر ويتمّ أمره، وإن كان مغلوبا وليس معه إلا القليل فليس له كلمة ولا يقدر أن يفعل شيئا إلاّ سراً، اماّ أن يبعث لمحبّة جواسيسه ويخبره سراً أو ينذره أو ينصحه. هذا غاية ما في جهده.

ولمّا نافقت القيروان بكثيرهم لم يريدوا الغراينة(1) وهم أهل زاوية كسرة من أشرف زوايا القيروان، ولهم سمعة ورعيّة في ذلك البلاد. ولما راوا الغراينة أكثر البلاد أعني أهل القيروان على النّفاق وهم أحباب الباشا ويونس لم يقدروا أن يصنعوا شيئا ظاهرا صاروا يبعثون إلى يونس ويخبرونه بما يصير في مدينة القيروان، وخلطوا مع يونس لمّا نزل القيروان وبعث إليهم كيف يأخذ القيروان بعثوا إليه وقالوا: ارحل من تلك الدار التي أنت بها وانزل قبلة البلد ونحن ندخلوك القيروان في اللّيل. فسمع بهم بعض النّاس وبعثوا مع بعض النّساء ثمّ فشت سرّهم للنّاس فسمعت أهل القيروان والأحداث منهم ومن هو ليس [335] له حسب ولا نسب ولا قاع ولا قطاع، ولا يقيم البلاء في بلد أو غيره إلاّ الرّعاع، فهجموا على زاوية الغراينة وديارهم ومسكوا إثنين أو ثلاثة من الغراينة وكتّفوهم وطلّعوهم إلى وسط القيروان، وسطّروهم إلى أن طاحوا إلى الأرض، وتركوهم، ثمّ فزعوا إلى ديارهم وفيّوهم ولم يتركوا بديارهم شيئا، وهرب منهم من لم يحضر أجله، وهربت العيالات ولا بقي أحد في ديارهم، وقال لسان الحال: يا أهل

(1) هم مريدو الولي عبيد الغرياني

القيروان، قد غُلب عاقلكم وتغلّب سفيهكم، أنتم كما قال الله تعالى: «وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مترفيها»[1] أي ولّينا أمر القرية ما تقدّم ذكرهم والله أعلم «ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا»[2]. فكانت عاقبة القيروان وأهلها كما قال تعالى وهو أصدق القايلين.

فلمّا سمع يونس بما جرى في الغراينة كما قدّمنا وجلاص والهمامة نازلون بقرب وادي اللبن، فركب يونس وركبت الخيل معه وغار على جلاص والهمامة فقام العياط وكثر الحسّ وقالوا: يونس أخذ جلاص. فركبت خيل الأمير حسين وتقابلت مع قوم يونس وتخلّف في المحلّة الباي حسين ومعه أحمد الجدر شيخ الحمارنة ونحن أي الصبايحية في القتال مع قوم يونس، وورد علينا الخبر بأن الباي حسين هرب بالمحلّة ورجعنا ولحقناه فروّح إلى قفصة ومعه من معه من دريد، دخلنا معك وقاتلنا معك وإن أردت أن تغرّب مع دريد لم يسيروا معك. قال لهم الباي حسين: ما عندي تغريب مع دريد.

فلما سمعنا هذا الكلام رجعنا، ولمّا طلع النهار رحل في ذلك التّسعة أخبية الذي عنده وركب وسار وأخذ غربي قفصة، وسار ووقفت الصبّايحية وغيرهم، وكان وصل إلينا الكلام الذي قاله علي باشا: من لم يقبل يدي ولا يجيء إلى عندي، فإذا رجع إلى بلاده فإنّي أمّنته على قتله وأولاده وماله وعياله.

(1) الإسراء، 16 «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها».
(2) بقية الآية السابقة.

فصار كلّ من لم يهرب [336] من عند السلطان عاملا على الرّجوع إلى تونس، فافترقت القوم فالكثير منها قصد تونس ووصل إلى الباشا أمّنه وخدمه. وسار إلى الباي حسين، ولحقنا من لم يرجع إلى تونس ونزل الدوارة[1] خنقة واحدة، ثمّ رحل ونزل ثليجان[2] ورحل ونزل الرق والصابون وهو من هنا يرجع إلى هنا، ثمّ بدا للباي حسين وبعث ولده محمد باي لأولاد عمّار الحنانشة، فسار محمد باي رحمه الله ووصل نجع أولاد عمّار فأكرموه وضيّفوه، فسمع بقدوم محمّد باي [بوعزيز فركب وأتى إلى الخيام التي فيها محمّد باي ووقف ولم ينزل وقال لأولاد عمّار، جاءكم محمّد باي] قالوا له: نعم. قال لهم: قولوا لمحمد باي ياتيني فمشى إليه محمد وبوعزيز راكب لم ينزل، فقال له بوعزيز: يا محمّد باي إن كنت جيت بمال رده أحسن إليك فما ينفعك أحد هنا. ابق بخير يا والدي.

ولمّا سمعت أولاد عمّار ما قال بوعزيز رحلوا وافترقت الحنانشتين، وأقام محمّد باي عند أولاد عمّار ثلاثة أيّام، ثمّ ركب وركب معه ولد سلطان، وقصد الباي حسين إلى أن وصلوه، ومكث ولد سلطان عند الباي حسين ثمانية أيّام ثمّ لحقاه أبوه سلطان وعمّه محمد الصغّير. وأقاموا في المحلّة نهارين، وفي اليوم الثّالث ركبت أولاد عمّار وركب الباي حسين ووقفوا شرقي الأخبية قال لهم: نريد منكم أن تكونوا معي. قال له محمد الصغّير: الحنانشة ما حبّوش أن يكونوا معك.

(1) الدوارة: من ولاية قفصة، معتمدية الرديّف.
(2) ثليجان: هل هي واد الثلجة، بولاية قفصة، معتمدية الرديّف ؟

وسار أولاد عمّار وتركوا الباي حسين واقفا. فقال لهم : خيّبتموني خيّبكم اللّه. ورجع إلى خبايه ودموعه على خدّيه تسيل، سبحان المعزّ، سبحان المذلّ.

كنّا نسوس البلاد والأمر أمرنا
فاليوم يحمينا من كان راعينا
كنّا ننصر من كان يلوذ بنا
فاليوم نطلب النصر ممن كان ياتينا
كنّا تغضّ العيون عند رؤيتنا
فاليوم تغضّ العين عند رائينا
كنّا نمنع من كان يريد الاجتماع بنا
فاليوم نسعى في رضا من كان معادينا
[337] صبرا جميلا كما تدين تدان
هذا قضاء ربّ العالمينا

وفي الليلة الثّالثة والرّابعة وردت سيّارة من عند أولاد عمّار بمكاتيب من عندهم وفيهم : يا باي حسين ارفع روحك فإنّ علي باشا سرّج اليك من تونس، ويونس ولده سرّج إليك من قفصة، فرحل الباي حسين رحمه اللّه في أعقاب ذلك اللّيلة وجاء على إكس، وجاء خنقة أمّ الدّكاكين، وجاء على بحاير الأرنب ومعه الصبّايحية ودريد كلّهم جميعا إلى أن بات الباي حسين ومن معه عاتر البير(؟).

ولما طلع النّهار وسار الباي حسين ومعه القوم إلى أن ظهرت لهم قفصة عند الزّوال، ونظرتهم أهل قفصة دخلوا على

الباي حسين وقومه بالنفاق سار الباي حسين والقوم إلى أن وردوا ما جن بوعلاّم، وتخلّف محمد باي ومعه الخيل الصّحاح يدبّبون ويلحقون في جلاص. وأمّا الصبايحية والباي حسين مع المحلّة فزعت عليهم الهمامة أهل ابن عمامة قدر ماية من الخيل وقدر مايتين من الرّجلية التّراسة، ووصلوا إلى الباي حسين وصاروا يقولون له : يا بياع الملح أين تروح؟ فسرعت عليهم الخيل فدخل بينهم الباي حسين وهو يندد على الهمامة وهو يقول لهم : بيني وبينكم رسول اللّه، ما لكم حاجة عندي. فهو في ذلك معهم وإذا محمد باي ولده يركض وهو يقول: الجهاد في سبيل اللّه، وصدم على الهمامة فعرضه أبوه وردّه.

وأمّا أولاد بن دالية فإنّهم ساقوا عيالهم [وبعدوا] بهم حتّى قالوا : إنّهم هربوا فما رأيناهم إلاّ وهم عرايا في المروج ما يسترهم إلا السّراويل وهم يندهون في بعضهم بعضا ويقولون : الجهاد [الجهاد]. ودفعت الخيل على الخيل فما وقفت الهمامة ولا ساعة، ورجعوا هاربين وتركوا سعيهم ورجلهم وتريّسهم، وكانوا في بحيرة ودارت بهم الخيل من كل ناحيةً فصار الواحد منهم يدخل راسه في السدرة [338] فيخلط عليه الفارس فيضربه، فما طاحت الشّمس إلا قصّوا من الرّجلية خمسة وأربعين راسا وأخذت القوم سلبهم وتركوهم وساروا داخلين اللّيل، وإذا بالقوم قالوا : بات بات. فنزل الأمير حسين رحمه اللّه وقضى ما فاته من الصّلاة، ثمّ قام يصلّي والنّاس قيام، ثمّ قامت القوم وساروا في اللّيل إلى أن وصلوا فيض الزّبل ونزلوا فرأوا راجلين فقصدهم بعض النّاس. فلمّا رأوهما

طلعوا إلى الجبل قال لهم : من أنتم؟ قالا له : نحن سيّارة قاصدين الباي حسين. فقال لهم : ها هو الباي حسين انزلا وعليكم الأمان. فنزلا ودخلا المحلّة، وقالوا : نحن سيّارة من القيروان. وأمام الباي حسين ومن معه نهارين وفي اليوم الثّالث جاء علي باي من القيروان، وأقام يوما ورجع إلى القيروان، وأقام الباي حسين في ذلك الدّار، ثمّ رحل وسار إلى أن وصل إلى الدلاعيّة، ونزل ومن الغد رحل، وسار إلى أن دخل القيروان.

[**خبر يونس :**]

هذا خبر الباي حسين رحمه اللّه وأمّا يونس لما قتلت القراوة الغراينة رحل وسار قاصدا الجريد تارة [يرحل]، وتارة يقيم من عدم الابل، وصار في نفسه خايفا إلى أن وصل قفصة وخدمها وسار طالبا توزر، فوصلها وخدم الجريد، وخلّص ما عليه ومعه دريد. ولمّا صدر من الجريد قرأ عاقبة الأمير حسين بعث لأولاد عمّار أن يخوّفوا الباي حسين حتى يرحل ويبعد من ذلك المنازل فيتعدّى يونس ويبعد منه، فبعثوا إلى الباي حسين كما قدّمنا، وتعدّى يونس وسار إلى أن دخل تونس، ووصل الخبر إلى علي باشا ما فعلوه أولاد عمّار ومسيرهم إلى الباي حسين رحمه اللّه.

ذكر مجيء سلطان وأخيه محمد الصّغير أولاد عمّار وقتلهم وكيف حصّلهم علي باشا [339] حتّى وردوا عليه إلى باردو هم وجماعتهم

قد قدّمنا أنّ علي باشا لمّا جاء مع الجزيرية واجتمع بالحنانشتين بوعزيز وأولاد عمّار فناسبهم وأخذ علي باشا بنت محمد الصّغير ودخل بها وجاء بها إلى باردو وجعل لها بيتا وأخذ بخاطرها وراعاها. فلمّا سمع ما سمع كثّر في إكرامها ثمّ قال لها : لو أرسلت إلى أبيك يزورك ليرى ما أنت فيه من العزّ والشرّف، والمال والسلّطان، ثمّ نكرموه لأجلك، فبعثت إلى أبيها محمد الصغّير من لابدّ أن تتعب وتزورني وترى ما أنا فيه ممّا يسرك ويسرّني، فوصل إلى أولاد عمّار الرّسول وبلّغ رسالتها، فما صدّق بمكاتبتها واشتغل في حضور هديّتها وما يليق بها، وما يتبعها من المولدات الجميلات حتى علم أنّ أخاه وجماعته حسدوه، وسار إلى أن بلغ طريق باردو وسبقه بعض وصفانه فأخبر الباشا بوصوله فركب إليه الحاج مصطفى بن متيشة والمماليك وعرضوه بمركوب من مراكيب الباشا، وعلى المركوب سرج من سروج يونس، وعلى السرّج غشاء. فلمّا

وصله الحاج مصطفى نزل إلى الأرض، فلمّا أراد أن ينزل محمد الصّغير حلف عليه أن لا ينزل وسلّم عليه وهو راكب، ثمّ قدّم المركوب وكشف السرّج فانتقل من السرّج إلى السرّج، وسار وقال : يا ليتني عندي بنات أخر أزوّجهن لأولاد الباشا نزيد خيرا على خير. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أعوذ باللّه من طمع يهدي إلى طمع[1]. وكان كذلك صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم.

ودخل باردو ونزل وطلع إلى بيت الملك وعلي باشا مستحضرا له فسلّم عليه محمد الصّغير وقبّل يده فسيّب له لسانا أحلى من السّحر الحلال، والتّعظيم والتّكبير والاجلال، وأخذ هو وإيّاه في الحديث، وحدّثه بما صنع مع عمه حتّى هرّبه [340] فشكره الباشا علي وقال له : قلبي منك ومن أخيك فاير يغلي. وحضرت السفّرة وركبته بجنب الركبة، ثمّ لمّا فرغ من الأكل تقدّم البخور والطّيب العلي، وقعد وإذا بقايد الدار قادم إليه بعثته ابنته ليدخل مع قايد الدار إليها، فقام مع قايد الدار ودخل دار ابنته فعرضه جميع من في الدار، علاجي[2] وسراري، وخدم، وعجايز وحشم[3]، وقبّلوا يده وهنّوه بسلامته، وابنته داخل البيت لم تخرج إليه، فدخل عليها البيت

(1) من حديث رواه أحمد بن حنبل في مسنده : استعينوا بالله من طمع يهدي إلى طبع..
(2) علاجي : ج. علجية : وهي الجارية الأمة من العجم.
(3) حشم الرجل : خاصته من أهل وعبيد أو جيرة، والسراري : ج سرية وهي الأمة التي أعدّت للسرّ ومن معانيه الجماع.

فوقفت وقبّلت يديه، فرأى ابنته داخل البيت كأنّها في جنّة فبهت وجعل يتأمّل في وسط [هذه] البيت من الفراشات الملوكيّة، والكراسي والأسرّة والمناقل[1] السلّطانيّة، وهذه العلاجي والجواري القايمة على رأس ابنته للخدمة في الدّار، وفرحت برؤية والدها وأمرت بحضور المركبات في صناديقها، وامتدّت السفّرة من الموبر[2] المطروز بالذّهب والفضّة. فقال محمد الصّغير وهو ينظر إلى ذلك الشّيخ الذي لم يعرفه : قد امتليت من الطعام من سفرة الباشا نصره اللّه. فقالت له : ما هذا بطعام، وإنّما هو مركّبات هاضمة للطّعام، فقال لها : وما هذا المركّب. ففتحت له بعض الصناديق وقالت له : ذق. فلما أخذ قطعة من المركّب وذاقه سال لعابه على فمه وصار يتعجب وقال : حقيق على من يأكل هذا المركّب، ويجلس على الفرش المذهّب، ويملك البنات الكواعب، فإذا احترق بالنار بسبب هذه الأمور فما عليه عيب ولا يلومه عاتب، وكلّ ما يفعله الباي حسين معذور فيه، والذي يفارق هذه المكاسب، كيف يكون عقله غير ذاهب. وجلست ابنته تحادثه، وعن أهلها وأمّها وإخوتها تسايله، إلى أن طاح اللّيل فأسرجت الشّموع بين يديه فبهت ودخل في واد التّيه إلى أن حضر وقت المنام فقالت له : يا أبت قم إلى بيتك بسلام، فإنّ علي باشا وهب لك جارية [341] بما لها وما عليها، وصيّرها ملكا من أملاكك، تبيعها وتشتريها، وهي

(1) مناقل : ج منقالة : وهي الساعة التي ينظر فيها الوقت.
(2) الموبّر : مخمل له ألوان ساطعة ولين ملمس.

في البيت جالسة، تترجّى منك المرافسة[1]، فقام وتقدّمت خدامها بين يديه إلى أن أدخلوه البيت الذي ينام فيه، فلما رأته الجارية قامت وقبلّت يديه ووقفت منتظرة لأمره، فقام ونزع ثيابه وطلع إلى سريره، ونزعت الجارية ثيابها ورقدت إلى جنبه فقال في نفسه : هذا يقظة أم منام، أو بلوغ نهاية بعد هذا المقام؟ والشيء إذا انتهى إلى حدّه انقلب إلى ضدّه، وقال تعالى : «حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون»[2].

ثم رقد ونام، إلى أن أيقظته الجارية فقام، ولبس ثيابه وإذا بقايد الدار واقف قدامه وقال له : يا سيدي قد أمرني الباشا بدخولك الحمام، فقم بسلام. فسار قدامه إلى أن نزّعه ثيابه في محرم الحمام ودخل فتلقته الدكّانة فأرخت منه اليابس من العظام، ثم أدخلوه المطهرة وجاؤوه ببشاكر[3] من بشاكر السلطنة، ولما خرجوا قدّموا له الشربات في الطاسات المذهبّة، ولبس ثيابا غير ثيابه التي كانت عليه وخرج قدامه قايد الدار إلى أن أجلسه في بيت الملك ودارت به القزقات[4] والمماليك إلى أن فرغ الباشا من حكمه ودخل عليه البيت، وجلس يحادثه إلى أن قال له الباشا : هل رضيت بما فعلنا مع ابنتك، وهي حلّت منّا محلّ السوّاد في بياض العين. ولأجل عين ألف عين تكرم، ثم [أمر] الباشا بدخوله على ابنته فدخل

(1) من الرفس : وهو الصدم في الصدر.
(2) قرآن : الأنعام، 44.
(3) بشاكر : ج. بشكير. وهو منشفة أو لحاف للرأس مختلف الأحجام والألوان (انظر معجم الكلمات).
(4) القزقات : ج قزق، انظر أسفله تعليق عدد 2، ص 121.

الدار وجلس في بيته ومن الغد جلس مع الباشا في بيت الملك وأخذا في الحديث، والباشا يخرج له من بحث إلى بحث إلى أن أخذا في حديث أخيه سلطان، فقال له الباشا : أخوك فيه بعض قساوة وجفوة، أو مكبّر علينا الراس ويدّعي [أنّه] لولا هو ما وصلت أنا السلّطنة وما عليه لو حين رآك ساعيا في القدوم إلينا ساعدك وجاء معك جبرا لخاطرنا فيرى ما نصنع معه [342] ونتحفه بما يسرّه، ونبلّغه مقصوده وأنا في علمي ما ناسبتكم وأخذت ابنتكم إلا لنصيبكم[1] للنّوايب ونلحق بكم ونتحصّن بنجعكم إذا هزمتني بعض المصايب، فإذا سمع الباي حسين بأنكم قدمتم عليّ الإثنين انقطع ظهره ولا بقي يرجع إلى الحنانشتين، فانتفخ محمد الصغّير في درعه حتّى ملاه، وقال : أخي سلطان يا ويلتاه، فما بقي بيننا وبين علي باشا إلا الموت على أجله نتلقّاه، فقال له الباشا علي سامحه الله متمثّلا لسان حاله :

تايب يصلي في سحرة وإذا رأى غنما ركع
يقول في ركوعه : ما للفريسة لا تقع
عجّل بها يا ذا العليا ومكّنّي منها
إنّ القلب لانتظارها قد انقطع

ولا زال الباشا علي على محمد الصغّير يفور ويغلي، ويقول له : على غيظ أخيك سلطان نملي حمولك من الفضّة والذّهب والحليّ، دقيق الطحانة وزيت الحوى[2] قطع الله يد كلّ من يبسبس.

(1) نصيبكم : نلقاكم.
(2) الحوى والحوآء : بقلة لاصقة بالأرض تشبه لون الذئب، الواحدة : حوّاءة.

وأقام محمد الصّغير عند الباشا علي وهو في غاية ما يكون من العزّ والرّفعة إلى أن استاحش أولاده وعياله وقد تحقّق عنده أنّ الباشا علي عامل على الهروب إليهم إذا أصابه أمرهم فأخذ يفكّر في تحضير خيمة ونزلة إذا أتاه صهره هاربا ومعه الطّفلة، فدخل على ابنته وقال لها : قد توحّشت أمّك واخواتك وأهلك فاستأذني لي الباشا علي في الرّحيل إذا أتاك، فلمّا دخل عليها الباشا أخبرته بما قال لها والدها. فقال لها : سميعا مطيعا، وأمرك تنفذه غير مضيعا، فأخبريه أنّ اليوم الفلاني يتكل على اللّه.

وخرج من عندها يدعو اللّه أنه يعجل برجوعه هو وأخاه، وأمر خزنادار بحضور ما أمره به من كسوة ومال وحلي لأهلها، فأخذ الحاج مصطفى [343] في جلبها من ذخاير الذين لم يركوها[1] ورحلوا وتركوها.

قيل إنّ بعض الأوضاباشية من وجق صبايحية الباجية، اسمه الدّمغوني، وأنا الفقير إلى ربّه أعرفه، كان في باجة يسكن وهو في حالة رثّة وعمامة مهدرشة[2]، وجبة وسخة في شراء خضرة، أخذته الدّعوة. فلمّا وقع على الباي حسين ما وقع أخذته الخوطة[3] مع الذي تبعه وترك عياله بتونس، وكانت تحته إمرأة صغيرة جميلة، فلمّا غاب زوجها لعبت رجلها مع بعض جيرانها فأصبح في كسوة ودراهم، ومأكل ومشرب

(1) يركوها : أي لم يجعلوها حيال وركهم وهو ما فوق الفخذ، أي لم يأخذوها معهم.
(2) مهدرشة : ممزقة وبالية قديمة.
(3) الخوطة : من خوّط ضرب في الأرض.

ومشامم، فعلموا جيران المرأة أنّ عندها مالا لزوجها الهارب فبلّغوا خبرها للحاج مصطفى بن متيشة، وفي السّاعة بعث إليها، ولمّا حضرت خوّفها، وبعض العصا ضربها، فقالت له : ابعث معي من يأتيك بالذخيرة. فبعث معها خدّامه ووصلت بيتها وأخرجت منها صندوقا، وركبت وسارت إلى أن أحضرته مع الخديم بين يدي الحاج مصطفى فأعطته المفتاح فحلّه وأخرج ما فيه وعدّه، قيل ثلاثة آلاف ريال صحاح ليس فيهم ناصري ومع المال حليّ، فأمر الحاج مصطفى الرّومي برفعه وصارت المرأة منتظرة لما يعطيها الحاج مصطفى، فقال لها : قومي إن شاء اللّه إذا أتى زوجك نشكرك له بما صنعت في الغيبة فرجعت تضرب على قلبها، لا هي بمالها ولا هي بصاحبها ولا بزوجها.

ولمّا وقعت خطرة الفحص، وجاء الأمير حسين إلى الكرايم هربت إليه النّاس من تونس وفيهم بعض الباجية، فلمّا التقى هو وعلي الدّمغوني سلّم عليه وسأله عن عياله فأخبره الباجي بما صنعت امرأته، وإلى علي باشا بلّغت دخيرته فخرج من عقله وصار يركب فرسه ويسير، ثمّ ينزل ويتمرّغ على الأرض بطنا وظهرا وهو يقول : إيه إيه، ثلاثة آلاف ريال صحاح، الرّيال بريالين ونصف [344] أخذهم الباشا، ويضرب بالحجر على صدره ويقول : مالك يا ميشومة، واش عملت به، لا أكلت ولا شربت ولا تمتّعت به، ويتمرّغ ويبكي فتحضب عليه النّاس ليضحكون من فعله، فالدّمغوني لم يصرف ذلك المال

في حياته، ولا أدّى ما وجب عليه من زكاته، وحرّم عليه وعلى عياله يوم يحمى عليها في نار جهنّم. فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم [لأنفسكم فذوقوا ما أنتم تكنزون][1]، فسلّط اللّه على أخذ ذلك المال الباشا علي حتى خرج من عقله بسببه.

ولمّا تمّ الجهاز أخبر الحاج مصطفى الباشا بحضور ما طلب فأحضر له الصنادق والحمول وأدخله الدّار التي فيها زوجته بنت محمد الصّغير، وأراها ما أعطى لأبيها وتركه بين يديها، وقال لها : لا تخمّليه حتى يحضر والدك. فلمّا حضر أبوها عدّت عليه الهديّة، حاجة بعد حاجة، وقالت لوالدها : هذا من عند الباشا، وهذا الحليّ والكساوي من عندي لأمّي وإخوتي وعبيدي. ثمّ حمّلوه في أحماله ليوم السفّر يرفعونه على إبله وأبغاله. وجاء اليوم الموعود ورفعوا ذلك الحمول الخدام والعبيد، وودع الباشا علي محمد الصّغير ووقف حتّى خرج من عنده، وأمر الحاج مصطفى بالركوب في الخيل وتشييعه، فركب محمد الصّغير وسار قاصدا نجعه اللّيل والنّهار، وسبق قدّامه البشير، ووصل إلى أهله الخبير، فأخبرهم بقدوم الغايب، وبما جاء به من الرّغايب، فركبوا خيلهم وعرضوه وفي أولهم سلطان أخوه فاستقبله وسلّم على أخيه ورجعا إلى أن وصلوا خيامهم، واجتمع به أقاربه وأحبابه، وحلّت أيّام الضّيافة.

(1) جاء في القرآن في سورة التوبة، الآية، 35 : فذوقوا ما كنتم تكنزون.

فلمّا فرغت تلك الأحمال، وطلع ما فيها من الكساوي والحليّ والمال، فأمر من أعطى أخاه بما بعث إليه الباشا وبه خصّصه وحاباه، فرأى شيئا تحير فيه البصاير والأفكار. فقال سلطان : لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه، قد انتهت الأعمار، وخلت منّا الدّيار، لأجل الطّمع في الدّرهم والدّينار، فلمّا سمع منه [345] أخوه هذا الانذار، قال له : لا لا ليس كما قلت ولا هو كما نذرت إنّما هذا المتاع، لأجل خوف الباشا من الضياع، وهو ليس له يد وثقى في السلّطنة، والنّاس يخافون من طالب واحد بعيد الدّار فما بالك بمن طالبه أربعة، طالبون منه أخذ الثار، ويقطعون منه الآثار، مع قرب المزار. فجعل الباشا له ملجا وإذا حصل بينهم نجا وقد شافهني الباشا علي بهذا الذي ذكرته لك، وأطلعني على ما في ضميره بما قلت لك، وحيث اتخذنا حصنا حصينا وكهفا منيعا، فما لنا إلاّ اتبّاعه، ونصرته ومنعته، ونحن أولاد عمّار.

وسحر بما جاء به أخاه وأولاده وعياله وأهله حتى قالت زوجة سلطان : وأمّا الدعوى والأنفة فلم تاتيان بمنفعة، فقال لها لسان الحال : كلي واشربي وقرّي عينا، إذا هربت من اللّديغ ومن الحشيش اتخذت حصنا، والعسل وراءه إبرة النّحل، والتّمر وراءه شوك النخل، ومن كان في نعمة ولم يشكر خرج منها من حيث لا يشعر. ولمّا رأته زوجة سلطان عبست في وجهه، والنّساء حبايل الشّيطان، ورجع الأخوان إلى المجالسة والمسامرة على عادتهم يخوضون في كلّ قديم وحادث، وفي كلّ من هو تاجر وحارث، وصار محمد الصّغير يحدّث أخاه

بالذي رآه من أحوال أهل تونس، وما يقاسوا من الباشا ويونس، وما حلّ بهم من الباس، وكلّ يوم الباشا علي في قطع الرّأس، وهم غير راضون بما رضي الله فسلّطه عليهم حتّى سلب عليهم اللباس، فما ترى يا أخي سلطان إلا في رجليه قيد، وهذا يبكي عليه الأهل والولد، وهذا أدخلوه إلى الزندالة[1] ما سأل عنه أحد وحملهم دفع المال الذي يوزن لأنّه يكيد في العدد. فما ترى إلاّ ماسكا ذقنه أو يده على الخد، وكثيرهم يتمنّى الموت ويرقد تحت لحد، أو يكون أسيرا في برّ النّصارى وليس له مال ولا مدد.

ولا زال محمد الصّغير يشوّق أخاه سلطان فيما فعله هذا السلطان فإذا أكثر عليه يقول له كما قال الذيب : فلا آتيه ولا تقرّب إليه ولا أستطيعه ولو متّ عطشا فما أنا شارب ماءه، وهذه الليلة المرمية [346]، ليست سالمة من بلية.

ويقوم على أخيه ويتركه ويلقي ما به حدّثه إلى أن انتهت الأيّام وحضر الأجل، رأى ما عليه زوجته من الكسل، فتكرّم بما به بخل، ونسي أيمانه التي حلف بها وأكل من شجرة النخل، فوعد أخاه محمدّ الصّغير بالمسير معه ليرضي الباشا علي ويطيّب خاطره ويزيل عنه ما كان إليه ينسبه، وأخذا في تحضير الهديّة، ما تكون راضية مرضيّة، فسمع بهما الشّيخ بوعزيز فبعث إليهما : أبالاثنين تحصل الشبكة، وبالرّقبتين تحيط بهما الرقبة، إن كان ولا بدّ من المسير بمحمد الصّغير

(1) الزندالة : سجن باردو.

وولد سلطان الصّغير فقال لهما القضاء : اتركوا تحذير بوعزيز وما عليكما قضى، فهو عليه يقضى، وإذا نفذ القدر عمى البصر، وترك الحذر، وسمع الباشا علي بمسيرهما إليه فمن قوة الطمّع، قبل مسيرهما من النّجع، ينظر بالمرايا من طواقي[1] العلي، ثمّ يترنّم ويقول: يا ليلي يا ليلي إلى أن ورد عليه الخبر بأنّهما قد وصلا الكاف فبعث إليهما بالمآكل والتّحف، قالت لهما تلك التّحف : اللّيلة أف أف، واللّيلة الثّانية تحت الجرف، قال لها : وما الجرف؟ قالت لهما : الصوّت الحنين كلّ من سمعه يسخف.

وأقام في قلعة الكاف سلطان ومحمد الصغّير حتّى زال عنهما تعبهما، وارتاحت خدامهما، ثم خرجوا من الكاف، وساروا هم وجماعتهم ومزارقيتهم[2] لأجل الكسوة والمتاع، والقطينة[3] في الكراع(...)[4]، لابسين الرقاع، إلى أن وصلوا تاستور وباتوا فيها، ومن كثرة طلبهم هرب شيخنا. وعند الصبّاح ساروا «فساء صباح المنذرين»[5]، وجدوا في مسيرهم إلى أن بلغوا وأشرفوا من راس العقبة، قالت لهم : قد حصل قطع الرّقبة، ووقعت الملحمة وناحت النّواحة في الحين : يا ويل الحنانشتين من قطع رأسي الفارسين المشهورين في الوجقين[6].

(1) ج. طاقة وهي كوة أو فتحة صغيرة في البناء، والمراية انظر تعليق ص : 220.

(2) المزارقية : نسبة للمزارق وهو عود السنان، وللباي فرسان مزارقية في غالب العروش. انظر إتحاف أهل الزمان : ج 3 من تحقيقنا، ص 111 ـ 112.

(3) القطينة : قيد من حديد يوضع في القدم.

(4) كلمات غير واضحة في المخطوطات.

(5) تضمين للقرآن من سورة الصافات، الآية 177 : فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين.

(6) أي وجق تونس ووجق الجزائر والوجق هو النسق من الجند مثل وجق الانكشارية.

قيل لما سار سلطان مع أخيه [347] محمد الصّغير فكّر في نفسه وندم على مسيره فوقف وأراد أن يرجع، قال له أخوه: مالك، سر على بركة اللّه، قال له : في الرّجوع إلى أهلي استخرت اللّه وهذا ولدي يسير معك. فقال له أخوه : إنّ الخوف قد هلعك فإذا رجعت ماذا تقول لأهل نجعك؟ فإذا تعلّلت لهم بشيء كذّبوك وركبوا ظهرك واستخفّوا بعقلك وقالوا : بعد أن كانت شجاعته في الحنانشتين ظاهرة لا تردّه غايرة، يا ليته لم يكن شجاعا ويا ليتها كانت القاضية. فلمّا سمع من أخيه هذا التوبيخ قال : لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه.

وأمّا علي فإنّه يسيّر فيهم من الكاف اللّيلة بايتْين في المحل الفلاني، واليوم سايرين في المكان الفلاني إلى أن ظهرت له الخيل من راس العقبة، فأمر الحاج مصطفى بن متيشة أن يركب ومعه جميع الحوانب والمماليك، وأمره أن ينشر سنجقا قدّامه، ففي الحين ركب الحاج مصطفى وركبت الخيل وخرجوا من باردو يلعبون بالبارود، وقبل هذا كانوا إذا جاءت الحنانشة ينزلون في القبّة الحمرا، وأوصى الباشا علي الحاج مصطفى إذا وصل معهم إلى القبّة الحمرا وأرادوا النّزول بها يقول لهم : أنتم معكم الشيخان، وصهرا السلطان، لا تنزلون في هذا المكان، بل نزولكم في باردو، سيروا على بركة اللّه.

ولازالت الخيل تلعب، والبارود يذهب إلى أن وصلت الخيل [الخيل] وسلّم الحاج مصطفى على الشيخين، ودارت بالحنانشة القوم دور خلخال، خوفا أن يتغيب عنهم بعض الرجال، وساروا إلى أن بلغوا القبّة الحمرا فقصدتها الحنانشة فقال لهم الحاج

مصطفى : ما هذا مقام الشيخين، ادخلوا باردو.

فساروا إلى أن دخلوا باردو بأجمعهم، وأنزل الحاج مصطفى الحنانشة في دار بعيدة عن المحكمة، وكان الباشا علي لما رأى الشبّكة قد أحاطت بالسّنبلة أمر باش حانبة الترك أن يحضروا عنده من الحوانب، ويبعث للّذي هو غايب، في [348] تونس، وعجّل بجمعهم، فظنّ باش حانبة الترّك أنّ الباشا لمّا دخلت خيل الحنانشة إلى باردو أراد أن يكثر عليهم الرّجال معه فحضرت الحوانب في الحين.

وأمّا محمد الصغّير وسلطان قصدوا بيت الملك ودخلوا على الباشا علي، فلم ياقف لهما بل قبّلا يده وهو جالس وسلّم عليهما. وكانت عشيّة، فبعث الحاج مصطفى المثارد[1] ما يكفي الحنانشة، وجاءت السفّرة للأخوين فأكلا وأكل معهم الباشا وطاح اللّيل، وجاء الويل، وكتب الباشا في كاغظ خطين للحاج مصطفى أن يأمر باش حانبة الترّك وكاهيته وتقف الحوانب من الدّروج إلى باب النّحاس، فإذا توسّط سلطان ومحمد الصغّير باب النّحاس يمسكوهما، وحضر النّصارى في بيت الخنق من باب النّحاس يتمكّن عليهما وتدور بهم الحوانب إلى أن يوضلوهم إلى البيت وكسر أرقابهما وادفنهما في الجنينة إذا رايتني صوبّت لدار العيال بعد صلاة العشاء، ولا يجيء ربع اللّيل إلاّ وهما تحت الترّاب. وطواه وأعطاه للقزق[2] فوصلّه للحاج مصطفى فقراه وعجّل بمقتضاه، والباشا صلّى المغرب

---

(1) المثارد : ج. مثرد : إناء من الفخار للثريد. من ثرد الخبز فتّه ثم بلّه بالمرق.
(2) في الأصل العزق : والأصح القزق وهي كلمة تركية تعني رجلا مسلحا، ويرى مترجما الكتاب أنه يمكن أن يكون نوعا من الحراس نظمهم الباي. انظر النص المترجم ص 244.

وقعد مع الرّجلين وتحدّث معهما وحدّثوه بمجيء علي[1] ولد عمّه، وكيف بعثوا للباي حسين بأنّ الباشا سرّج إليك من تونس فهرب في اللّيل وطلب الصحرا حتّى تعدّى يونس. وعلي باشا يمدح ويشكر فيهما، وجعل يلعب ويضحك عليهما ويقول لهما : لو جيتكما ما كان معي صنيعكما فيزدادا شرهة إلى أن أذّن العشاء فصلّى علي باشا ثم رجع إلى مسامرتهما، وتحدّث معهما قليلا وقام وتركهما ونزل إلى الدّار.

وكان الحاج مصطفى هيّأ ما أمره به الباشا، ولمّا رأى الباشا نزل إلى الدّار دخل عليهما الحاج مصطفى فقال لهما : أنتما تاعبون فقوموا فارقدوا إلى يوم يبعثون . فقاما والرومي بالفنار بين أيديهما إلى أن وصلا سقيفة باب النّحاس [وكان باش حانبة الترك واقفا من ناحية وكاهيته واقفا من ناحية، فلما توسّطا بينهما مسك باش حانبة سلطان]، ومسك كاهيته محمد الصّغير ودارت بهما الحوانب فأوّل ما سلّ خاتم الذّهب من أصبع سلطان باش حانبة [349] فالتفت سلطان إلى أخيه والعقل منه ذهب وقال لأخيه : إلى هذا أوصلتنا يا أبا البنيّة. وأوصلوهما الحوانب [إلى بيت الخنق اللي في سورية في سورية] وسلبوا ما عليهما من الحوايج[2] وأدخلوهما البيت وخنقوهما، ولما خرجت الرّوح منهما رفعوهما وإلى الجنينة أدخلوهما وتحت التراب واروهما.

ثمّ سارت الحوانب إلى خيل الحنانشة واختاروا ما أرادوا منها، وقفلوا عليهم الدّار وباتت العسّة عليهم إلى أن طلع النّهار «فساء صباح المنذرين»[3]. فكثرت عليهم الحوانب

(1) أي علي بن حسين بن علي باي.

(2) أي الثياب، والسورية : قميص رجالي فضفاض كماه إلى المرفق.

(3) تضمين من القرآن من الآية 177 من سورة الصافات.

وسلبوهم وتمكّن كل حانبة بواحد، وأمر الباشا علي أن يطلعوهم إلى حبس قصبة تونس، ويقولون للحاج سافار أن يجعل قطينة بين اثنين في أرجلهما ويخدمهما في مونة[1] الحايط الذي بناه الحاج سافار من الجهة الشّرقية قريب باب القصبة المقابل للتّربة، فطلعوهم الحوانب.

ولمّا وصلوا للقصبة والحاج سافار إذاك آغة بالقصبة جعل في رجل كلّ اثنين قطينة وخدمهم الحاج سافار في ذلك الجير والتّراب وهم في رقاع السّفاسر ما يجد واحد منهم بما يستر به عورته، وهرعت إليهم أهل تونس وغيرهم يتفرّجون عليهم فالحنيّن إذا رآهم يبكي والقاسي إذا رآهم قال : هذا هو السلّطان من أولاد علي تركي. وشاع الخبر بقتل الأخوين سلطان ومحمد الصّغير شيخي الحنانشتين، ووصل الخبر بقتليهما إلى نجعهما فما قدروا على شيء إلا الرّحيل.

قيل لمّا قتل الباشا علي الرّجلين وكانا ليس في حكمه ولا مملكته وإنّما هما من عمّال وجق الجزاير والباشا علي ليس له عليهما يد ولا حكم ولا أمر استحس من دولاتلي الجزاير إذا سمع بقتلهما وأنّه لا يريد من يحكم في رعيته ومشايخه أمر أن تكتب وثيقة بأنّ الحنانشتين من أهل الفساد، وأهل ظلم وعناد. فلمّا كتبت الوثيقة بباردو وفي الوثيقة أكثر من ماية شهود بما ذكرنا. فلمّا جاؤوا دار القاضي إلى المجلس بين يدي الباشا علي رمى إليهم الوثيقة وقال لهم : [350] حطوا خطوطكم

(1) في الأصل كلمة غير مفهومة ،الاصلاح من نسخة ص

بسفك دماء المفسد في الأرض فحطّوا خطوطهم وكتبوا تحتها خنافسهم[1]، وكتب يخبر الدولاتلي بمسكهم وقتلهم، وهذا المال ديتهم، وبعث إلى الدّولاتلي سيارته ومعه وثيقتهم وديّتهم، هكذا أخبرنا بعضهم والله أعلم.

وبلغ الخبر إلى بوعزيز فما وسعه إلا الرّحيل والفزيز، وحلف بأيمان غلاظ أن لا يدخل مدينة ولا محلّة ولا يزور قرابة، قيل له بل تُمسك تحت السّحابة، وتبكي عليك الاباعد والقرابة، وحصانك مهجور في قصبة تونس يركبك عليه يونس، كما ياتي إن شاء الله تعالى والله أعلم.

ولمّا رجع يونس بمحلّة الشتّاء ووصل إلى تونس لم يمكث إلاّ أيّاما قليلة، وأمر بتجهيز محلّة فحضرت كلّها ترك، وسافر يونس بمحلته أول الرّبيع وسار إلى أن نزل سليانة واتخذها دارا، قال بعضهم : غرسنا قلوب البطيخ عند باب الخباء، وصرنا نسقوه الماء فرمى من البطيخ واحدة أو اثنين قدر الرّمانة، فما رحلنا من هذه الدار إلا أكلنا ذلك البطيختين هكذا قال والله أعلم بصدقه.

وصاف الصّيف وجاء وقت خروج محلّة الصيف لوطن باجة وهو سنة ثمانية واربعين وماية وألف [1148] وإذ ذاك يونس غايب [في محلة سليانة كما قدمنا ولم يحضر يونس لموت ولدي عمار والله أعلم، وفكّر الباشا علي فيمن يسفر بمحلة الصيف، ولما دخل الدار على كبيرة مامية أم الأولاد حادثها الباشا وقال لها : إن سيدي يونس غايب] وقد

(1) ج خنفساء : وهو إمضاء عدل الإشهاد ويحتوي على اسمه بصورة منمقة وفريدة، توضع كعلامة على إشهاده.

وجب خلاص رعيّة وطن باجة، ولم ندر من نبعث بالمحلّة، فقالت له زوجته : إن دللّتك على من يقوم مقامك ما تعطيني؟ قال لها : ومن هو؟ قالت : سيّدي محمد [اليوم رشد ومن حذاقته وفطانته لايهن به أحد، قال لها : سيدي محمد صغير] : وهذا وطن باجة يحتاج إلى رجل كبير عالم بالتّدبير، يفرّق بين الكبير والصّغير.

قالت له : استخلفه وأنا ضامنة، ما ترى منه إلاّ ما يقرّ عينك ويضحك سنك، فعمل بقول زوجته، وأمر برمي كتان محلّة الصيف وتخريجها، وجعل مع الترك أخبية زواوة. ولا زال علي التميمي بالباشا ويظهر له النصايح إلى أن ردّ وجق زواوة على ما كان عليه، وعلي التميمي خوجة زواوة. ولمّا خرجت المحلّة استخلف فيها ولده محمد ورحل بالمحلّة، ولما سمع يونس بأنّ المحلّة حاكمها أخوه محمد رجف منه القلب [351] ونفض الكبد، وقال : اللّه واحد «لو كان فيهما آلهة إلا اللّه لفسدتا»[1] وسكت ووصل محمد باي إلى أن نزل ببلد باجة وأقام بها إلى أن خلصت القيّاد المال وأطاعت الجبالية، وجاءه الضيف شيخ نفزة وجميع مشايخ الجبالية، وأهدوا له الخيل هديّة، وصارت القيّاد : بالك بالك، والرعيّة مالك مالك، خوفا من علي باشا ويونس، واجتمعت عند محمد باي مجاباته وصيفياته عربي وريحاني[2] وبلدي، وأرسلها إلى أبيه الباشا

(1) قرآن : الأنبياء، 22.
(2) ريحاني : الريحانة هي حلي نسائي من الذّهب أو الفضّة على شكل سلسلة حلقاتها مستديرة ومنبسطة تضعها المرأة على صدورها فوق الملابس (معجم الكلمات والتقاليد الشعبيّة بصفاقس لعلي الزواري ويوسف الشرفي، صفاقس 1998).

علي، وصار منتظرا في أبيه في الروّاح إلى باردو تونس، فجاءه أمر أبيه علي باشا بالرّحيل إلى تونس، فرحل وسار إلى أن وصل الحريريّة، وعرضته علماء تونس وخواص أبيه وأصحابه وخدّامه، ودخل باردو ودخل دار أمه بعد أن قبلّ يد أبيه وفرحت به أمّه وزغرتوا عليه في الدّار.

وأمّا يونس والتّرك الذي معه، قيل أقاموا بهذه الدار أربعة أشهر ونصف، وقد ضجّت الأوضاباشيّة من شراء الكمانيّة[1] لما تأكل الترك، ولما فرغت الكمانيّة تسلّفوا الدراهم واشتروا بها كمانيّة، ثمّ تسلّفوا دراهم أخرى إلى أن ضجّوا وسمع بهم يونس فقال لهم : من أراد منكم الرّاتب من دار الباشا فليقدم ويشقى ويخدم وإن قلتم كان السفر اربعين يوما تلك أيام سلفت وأمّة قد خلت، وأنا ما أكره أحدا على النزول في الرّاتب بمحلّتي للسفّر ستّة اشهر، فمن أراد منكم أن يسلم ويذهب فليذهب.

وبعد هذه المدّة رحل وسار إلى أن دخل باردو تونس في أول الخريف، ودخل عام تسعة واربعين وماية وألف [1149] وجاء العسكر من برّ الترك، وارتاح يونس مدة قليلة [وأمر برمي الكتّان، فرمت المحلّة الكتّان[2]، وأخذت راتبها وأخرجت للمحلّة حرجها، ودخل الأخبية عسكرها، ورحلت، وقد كثر عند يونس قومها، واجتمعت عليه خيلها ورجلها وبغلها[3]، وسار إلى أن نزل

(1) الكمانية : أي مؤنة.
(2) رمي الكتّان : نصب الخيام لمحلة العسكر.
(3) ص : في نجعها.

قريب القيروان وحصرها، وجاع الضعيف بها فخرج إلى المحلّة منها وبدا النقص في أهل النقص، وصارت القيروان القوم بها دايرة من كل ناحية، فيخرج إلى ظهرة البلد الأمير حسين بأهل [352] القيروان وما عنده من الخبر وأولاده معه وكلّ واحد منهم معه حوانبه فتفزع خيل المحلّة وتفزع خيل المدينة، وتتقاتل الفرسان، برهة من الزّمان، ويرجع كلّ واحد إلى مكانه وظهر غلاء النّعمة بالقيروان من هذه الحصرة، فصار الباي حسين يأخذ من أهل القيروان [وعند التجار] ويصرفه على من هو معه.

وأمّا يونس فإنّه سمع أهل مساكن وقع بينهما القتال في الشّوارع فمات من العسكر ومات من أهل مساكن، ولمّا علم أهل مساكن أنّهم مغلوبون نادوا بالأمان يا سلطان، فأمنهم يونس على رقابهم وأولادهم وأموالهم أن لا يأخذها أحد، ورمى عليهم خطيّة[1]، قيل ثمانون ألفا، خلصها عصمان آغة الباجية، وتركه بها، وسار وقصد القلعة الكبيرة، ونزل عليها ومغلّطوه لأنّه كبسهم على تمام الخندق، وقالوا له : نحن خادمون، وشيخنا الحاج حسين في سوسة، فإذا قدم إلينا قدمنا إليك، وخرجنا فماطلوه ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع ما شعر يونس إلاّ بحسّ البارود كأنها [الرعود] قال ما هذا؟ قالوا : القلعة نافقت، فعضّ على إصبعه فأدماه وقال يا ندماه، ثمّ إنّه أمر العسكر بقتالهم، وقعد يونس في وطاقه، فتقدّم عسكره إلى أن وصل معصرة قرب

(1) خطيّة : أي أداء.

الطّابية، فحرقوهم أهل القلعة الكبيرة بالرّصاص، فلما لم ير العسكر معه يونس، قال وعلى من أموت؟ الحاكم هرب في وطاقه عزّت عليه روحه، ولا لسان ولا إحسان، ولا نظرت العينان، فروحي أعزّ من روحه عليه، ويرجع إلى ورايه وتتقدم زواوة، فإذا رأتهم أهل القلعة كلب كلبهم وجروا إليهم فترجع زواوة هاربة.

فلمّا علموا أهل القلعة أنّ جيش يونس ما له قدرة عليهم بعثوا الرسول إلى الباي حسين أن اصدم عليهم من ورايهم، فإذا صدمت أنت عليهم خرجنا كلّنا وصدمنا عليهم من قدّامهم فنحن وأنت فلا نبقي من يرد الخبر، إلا الذي أجله لم يحضر. فلمّا وصلته الرسل [353] جمع أحداث القيروان ومن معه وخرج بهم وسار، فلمّا توسّط الطريق قيل له : إلى أين؟ فقد انتهت دولتك، فارجع على عقبك إلى أن يحضر أجلك، فرجع من وسط الطريق ورجع من معه إلى القيروان.

وأما عسكر يونس فكلّ يوم في القتال مع أهل القلعة، هذا مجروح وهذا مطروح، وهذا يخرّج في الروح، فيرسل يونس الصحاح من المجاريح إلى جمّال وأخذت الراكب أهل القلعة ولا زالوا يحصرون على عسكر الترك إلى أن صار العسكر يهرب من مقابلة أهل القلعة، فغضب يونس على من معه من العسكر وبعث إلى أبيه علي باشا يخبره بما صنع العسكر، فأمر الباشا بعسكر آخر يلحقه من تونس وركبت الشواش ونذرت على القهاوي والفنادق والأسواق : وارْ وارْ إلى القلعة الكبيرة فالذي

خاف خرج والآخر لم يخرج، وقعد في بيته وسكت، ووصل العسكر إلى المحلّة وكثر على أهل القلعة الخاطر فخافوا وأرسلوا إلى الباي حسين إمّا أن تقدم بيدك أو ترسل إلينا نجدة تعاوننا على قتال عدونا وإن لم ترسل إلينا من يقاتل معنا فلا تلوم علينا في خدمتنا، فلمّا وصل الخبر إلى الأمير حسين التفت إلى مشايخ القيروان وأخبرهم بما بعثوا به أهل القلعة الكبيرة، فأخذتهم الحميّة واجتمعوا وعيّنوا ثمانماية تراس كلهم بالعدّة والمكاحل، وأعطاهم علي باي لكل رجل نصف سلطاني، وتقدمت للمسير بعض من المشايخ مع النصرة، وخرجوا من القيروان عشيّة ومشى معهم من يخبر المواضع الذي يأخذ بهم إلى أن يصلوا إلى القلعة، ولا يفطن بهم احد، فخرجوا من القيروان في ظلام الملوان[1]، وسترهم الرّحمان، إلى أن وصلوا القلعة ودخلوها وسرحوا[2] المكاحل على فتيلة واحدة حتى اهتزت الأرض وقام الزغاريت في القلعة وسمع يونس [حسّ البارود]، فقال : ما لأهل القلعة؟ قالوا له : قد جاءتهم من القيروان النّصرة. فلما سمع يونس هذا الخبر، أيس من أمر القلعة وغلبتها أو خدمتها، فلما طاح الليل [354] أمر بالرحيل، فلما طلع النّهار لم يبق للمحلّة آثار، فتشوفوا أهل القلعة في الأماكن الواطية فلم يقفوا للمحلة على أثر، فركب الحاج حسين

(1) الملوان : الليل والنهار أو الدهر.
(2) في الأصل : سرجوا.

الخيل وبعثهم ينظرون له أين المحلّة، فأخذوا خبرتها بأنها رجعت إلى ثنيّة تونس، وقد غضب على العسكر يونس، فعندها خرجت الرجال إلى دار المحلّة، فوجدوا بها مجاريحا شارفين على الموت وبعضهم يدري على نفسه يطلب من الذي يراه شراب الماء فزادوا عليهم أهل القلعة وقتلوهم، ورجعت القراوة إلى بلادهم، ولمّا رجعت المحلّة إلى تونس وقتلا أولاد عمّار ونافق بوعزيز، صابها الباي حسين مندوحة فأمر ولده علي أن يقضي حوايجه ويشاور من خدامه من يسير معه، فمن أحبّ السّفر معه أعطاه بما يقضي حوايجه، ومن لم يحبّ السّفر في القيروان تركه، وحدّثته نفسه الباي حسين بجلب بوعزيز ليكون معه فبعث إليه ولده.

حدّثني بعض خدام علي باي قال : لمّا أراد أن يخرج علي باي من مدينة القيروان ركب فرسه ومعه أصحابه وقصد سيدي سعد الهمامي نحو الرّحبة فلما رأى علي باي الشيخ سيدي سعد نزل وجلس وقبّل راس الشيخ ويديه، فسكت الشيخ ولم يخاطبه بكلام، فبعد أن شرب ثلاثة سباسي[1] تكروري وسبسي دخّان، قال له : اركب يا علي، فركب وقام الشيخ فحمل له وقال الشيخ سعد : اذهب فأنا ضامن لك، وسار من عند الشيخ وقصد نجع بوعزيز إلى أن وصله، ففرح به بوعزيز وأنزله وأخرج له خيمة. وأنزله فيها، ثم بعد مدّة قال

(1) سباسي ج سبسي : الغليون.

له : أريد أن أزوّجك بابنة ولدي وهي بنت مشهورة بالجمال، اسمها ميرة العكري، من قوة بياضها وصفاء دم وجهها، قال له علي باي : أنا ما جيت لأجل أن تعطيني ابنتك، ولكن ان شاء اللّه نتهنّى وأنا ناخذها، ومع هذا إنّ خالها وعمّها لم يخاطبوني بما قلت لي. فلما سمعوا بما تكلّم به علي باي جاؤوه وقالوا له: نحن خواطرنا طايبة مبروكة عليك ان شاء الله [355] تعالى. فلمّا سمع منهم هذا الكلام عقد عليها، وأظن أنّها دخل بها في تلك الأيام، هكذا قيل واللّه أعلم.

ذكر مجيء مسعود كاهية من القيروان
وما جرى له حتى خدمه يونس

ولمّا سمع الباشا علي وولده يونس بمسير علي باي من القيروان إلى بوعزيز وأكرمه، وزوّجه بابنة ولده، كاد أن يموتا حنقا، وأن ينفلقا قلقا، حلف يونس أنّه لابدّ أن يسير إليه إمّا ناخذه أو نقتله، فأمر في الحين برمي محلّة كبيرة وعسكر كثير وبعث إلى الديوان وقال لهم : نذروا على الاضاباشية يقصوا على الأولضاشات[1] كمانية[2] ستة أشهر، والذي لم يقدر على السفّر، وغيبته ستة أشهر يسلّم في الرّاتب ويخدم على روحه، ما أنا نغصب عليه السفر ولا على الخدمة.

فلما قالت الخوجات للاوضاباشيّة على قصّ الكمانية والسفّر ستّة أشهر فما قدروا أن يقولوا شيئا، والضعيف والكبير من الأولضاشات كثيرهم سلّم. وكان في هذه الأيام وردت مركب فيها ما يزيد على المايتين من الكرنتيلة[3] من برّ التّرك، فالذي عزبه[4] راتبه

---

(1) أوضاباشي : كلمة تركية : قائد فريق عسكري. وأولضاشي : رتبة عسكرية.

(2) كمانية : يعني مؤنة.

(3) كرنتيلة أو الكرنتينة : البقاء أربعين يوما للمسافرين خارج المدينة قبل دخولها احتياطا من داء الطاعون.

(4) عزبه : قطع عنه راتبه.

وكان الراتب كثير أخذ عوضا من هذه الأتراك بالغا ما بلغ، ويأتي إن شاء الله خبر الباشا ما فعل بعسكر تونس القديم، وما فعلوا به، وخرجت المحلّة في الربّيع سنة تسع وأربعين ومائة وألف [1149] وقصد نجع بوعزيز، ولما سمع بوعزيز بمجيء يونس إليه رحل، وكثر التراب بينه وبين يونس، واتّخذ بوعزيز عيونا له [من مزارقيته يأتونه بخبره]، وصار يونس يرحل وينزل ويقيم في جرّة بوعزيز، وصاف الصيّف وجاء وقت خروج محلّة الصيف لوطن باجة، فأمر الباشا برمي محلّة عسكر [و]زواوة، فرمت المحلّة الكتّان وخرجت [356] وخرج محمد باي بها ورحل قاصدا باجة، فلما علمت جبايلية عمدون وغيرهم بعثوا سيّارة ومعهم مكاتيب إلى الباي حسين سامحه الله وهو بالقيروان، أن اقدم إلى باجة ونحن منتظرون لقدومك، فإذا سمعنا بك اجتمعت الجباليّة كلّها، وغيرهم من الأعراش، وناخذ المحلّة مادام يونس غايبا في الغرب، وإذا صارت هذا بيدك ووطن القيروان بيدك فانحصر علي باشا في تونس إن شاء الله تحصره وتاخذه، فبعث [اليهم] : أنا عالم بأهل افريقية وما عسى أن يكون من البوادي ؟ رحم الله علي باشا في قولته وقد تركها مثلا.

قال أهل الله : من كانت قومه أعرابا وردّ إليهم الباي حسين الجواب، فلم يطل الحال وردّوا إليه السيّارة بالتأكيد والأيمان الغلاظ ما يحول بيننا وبين المحلّة إلاّ الموت، وقد خفنا من علي باشا كثيرا وإذا لم تقدم أنت بيدك ارسل لنا أحد

أولادك وأنت تسمع ما نصنع، فما قدمت عليه السيّارة وعلم ما بعث إليه الجباليّة فكّر في نفسه وقال : نرسل أحد ولدي، فهذا لا أفعله، ولكن نرسل إليهم مسعود كاهية وهو يعرفهم ويعرفونه ويعرف البلاد كلّها، فإن أقبلت فبها ونعمت وإن أدبرت فبها وبيست.

فلما دخل مسعود كاهية عليه قال له : يا مسعود! يا هل ترى هل تعود؟ قال له : يا سيدي خير إن شاء الله. قال له : هذه أهل افريقية والجباليّة بعثوا إلينا أن نقدموا عليهم وناخذوا محلّة محمد باي ولد الباشا لأنّه صغير مادام يونس غايبا في الغرب، قال له مسعود كاهية : أنا ما نقول لك شيئا، وأنا واقف مع أمرك، فإن أمرتني بالمسير سرت، وإن أمرتني بالجلوس جلست، إن قلت لك كذا ما تصدّقني، وإن قلت لك كذا ما تصدّقني. وأنا ما أعرف مولى لي غيرك، والمحيا محياك والموتى موتاك. فقال له : سر على بركة الله والغيب لا يعلمه إلا الله. قال للباي حسين : بشرط أن نترك ولدي عندك وأنا نمشي. فقال له الباي حسين : وكيف أفرّق بينك [357] وبين ولديك فسر أنت ومن تريد من أصحابك، وما قضى الله تعالى يكون. فخرج مسعود كاهية من عنده، وأخبر من معه من الباجية بأنه ساير. فقال له الحاج خلفة بن الشاكر : أنا نسير معاك ونترك أخوي عند سيدّي محمد بسوسة، وقال له علي الدمغوني الذي تقدم ذكره : أنا أسير معك ونترك أخوي عندك، وكذلك أناس أخر من غير بلد باجة.

ولما أراد الركوب دخل مسعود كاهية على الباي حسين وقبّل يده وبكى وبكى الباي حسين وبكى من حضر، وقال لهما لسان الحال : الملتقى غدا بين يدي الله تعالى، وشيّعه الباي حسين إلى باب الدار، ورجع وسار مسعود كاهية هو وولداه ومن معه من القيروان، وكانت محلّة محمد ولد الباشا نازلة بباجة، وصار مسعود كاهية كلّما رقد فإذا قام تفقّد من معه أين فلان أين فلان، وكذلك مهما نزل للمقيل، فإذا أراد الركوب يتفقدهم واحدا [واحدا] ولا زال كذلك ساير إلى أن وصل واد الزّرقة وحمت القايلة وسكرت وحرقتهم الشّمس والعطش ولا وصلوا للواد والقنطرة إلا بعد عطش شديد، وخوف في قلوبهم مديد، فوصلوا إلى القنطرة ونزلوا تحتها وشربوا الماء وارتاحوا.

فلما ارتاحت أجسادهم نامت أعينهم فرقدوا وكان مع مسعود كاهية رجلان من غير باجة فاستفردا عن الجماعة واتفقا على أنّهما يتركان مسعود كاهية ومن معه غاطسين في النوم ويسيرا[1] إلى أن يصلا محلّة محمد باي ويخبراه بقدوم مسعود كاهية ومن معه وانهما تركناهم في واد الزرقة فيؤمننا محمد باي على أنفسنا ونرجع إلى أهلنا ولا بقينا نخاف من الباشا إذا أمننا ولده محمد. وأما مسيرنا مع مسعود كاهية فهو مضرّ لنا وما يحصل بأيدينا شيء. فتركا مسعود كاهية نايما هو ومن معه وكان الوقت إمّا الظّهر أو بعد الظهر. وسار[2] الرجلان قاصدان المحلّة. وأما مسعود كاهية فإنه فاق من

(1) الأصل : ويسيرهما والاصلاح من نسخة ب.

(2) الأصل : وصار.

منامه وفيّق أولاده وأصحابه وفقد [358] الرجلين فلم يقف لهما على خبر، فقال لأولاده وأصحابه : اركبوا خيلكم فإن الرجلين غدرا بكم، ولمحمد باي باعوكم، فخذوا جرّتي قبل أن تصل اليكم القوم، فركبوا على خيلهم وأخذوا جرّته وترك الثنية والقريب منها وسار ومعه جماعته، ودخل ودخلوا الغابة.

وأما الفارسان، فإنهما وصلا المحلّة التي فيها ولد الباشا قبل أن تطيح الشّمس بمقدار ساعة، فدخلا على محمد باي وأخبراه بقدوم مسعود كاهية وأنّنا تركناه راقدا هو وولده فلان وفلان تحت قنطرة واد الزّرقة، فتركناهم وهربنا إليك، فأمنّا، فأمّنهم محمد باي ثمّ نادى على من عنده من الكواهي ومن معه من حكّام الصبايحيّة والحوانب، وقال لهم : اركبوا فركبوا كل من في المحلّة من الخيل وكان الوقت قريب المغرب وأظنّ أن معه في هذه المحلّة علي التميمي ففرّق الخيل جماعات وكلّ جماعة تأتي شرقا وأخرى تأتي قبلة، وجماعة أخرى تقصد ظهرة باجة وفرّق الخيل وسارت كل جماعة إلى ناحية.

وأمّا مسعود كاهية فإنه عارف ببلاده، وقالوا في المثل : يقتل الأرض خبيرها وتقتل الأرض غير خبيرها، فلمّا وصل مسعود كاهية فم الغابة تحقّق عنده أنه بيع، فأخذ يتبع في أغوار الذي يعرف إلى أن وصل بلد[1] باجة، ثمّ قصد [جبل] المسيد ثمّ قصد المصلّى ونزل منها وقصد بين السوّاني عند باب

(1) ب : واد

البلد، وأخذ بين السّواني، وسار وقصد سيدي خلف وسار ودخل جبل النجار والتهى كلّ أحد بنفسه.

أما علي الدّمغوني فإنه أخذ ثنيّة سيدي بيّوض فلاقته خيل محمد باي آخر الثنيّة، فشدّوه وقلّعوه وسلبوه ورجعوا به. وأما مسعود كاهية تعدّى على سواني الفقوس وفيها مواليها من الباجيّة، وترك عند صاحب السّانية بغلة عيتْ وسار في تلك الأحداث إلى أن وصل ثنيّة الغيرية وقصد الجبل المقابل لها فعندها [359] وقف وارتاح وتنفست فرسه وسار ودخل جبل عمدون. وأما علي الدمغوني فإنه جاؤوا به إلى محمد باي وحطّوه بين يديه فحدثه وأخبره بما كان، فألقى في رجله قطينة[1] وسجنه، وفي الحين بعث إلى أبيه علي باشا وأخبره بقدوم مسعود كاهية فبعث إليه علي بن ميلاد ومعه خيل وحوانب وركب الخيل إلى ولده يونس يخبره بقدوم مسعود كاهية إلى الجبالية، فحين يصلك أمرنا فارجع، وكان يونس تبع بوعزيز في الصيف الصايف وجرى بالعكس العجب فيرحل في اللّيل ويسير في النّهار كلّه، وينزل العشاء وتفرّق بعض أصحابه، ومات بعض من العسكر إلى أن وصل إلى غيصران الذي نازل به بوعزيز، وفي علمه أنّ يونس لم يصل إلى ذلك المكان، فما شعر بوعزيز إلا بعيونه تركض ووصلت إليه وقالوا له : ها هو يونس قد وصل إليك، فركب وركبت خيله وكبسهم يونس، فساقوا انعامهم وتركوا بعض خيامهم وتركوا خيمة الشيخ بوعزيز

(1) القطينة : قيد من حديد يوضع في القدم.

فارغة وتركوا فيها جرو كلاب، وأنا رأيته في محلّة يونس وبيت بوعزيز منصوبة والجرو فيها سمّوه أهل المحلّة بوعزيز، ويا هل ترى هذا بوعزيز جدّمنه أو هو استهزاء بيونس وقومه حين ترك لهم جرو كلاب غنيمة : خذوها يا قوم يونس.

فلمّا وصلت إليه سيارة أبيه علي باشا رجع من جرة بوعزيز قاصدا وطن باجة. وأما مسعود كاهية وصل إلى أولاد بن شريط مشايخ عمدون وصلهم في اللّيل ففرحوا أولاد بن شريط بقدومه وأدلجت التّريس في اللّيل إلى مشايخ عمدون الذين ظهرة الجبل وقام البارود والصريخ في الجبل وعَوَوْا وايْ وايْ، فاجتمعت من كل جبل، وسمع عرش نفزة وكل جبالي، وجاؤوا إلى مسعود كاهية وسلّموا عليه ونهقوا فيما بيدهم يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا[1].

واجتمعت الاشتات من كلّ ناحية وبعثوا إلى الأعراش فاجتمعوا معهم [360] وكثرت الطّماعة في نهبهم المحلّة، ولمّا اجتمعوا كلّهم اتّفقوا على يوم يفتنوا فيه المحلّة ويأخذونها. وجاء اليوم وقصدت ذلك الخيل والتّريس وهم كثير، ووصلوا إلى ظهرة المحلّة ووقفوا ولم يقدروا على الوصول إلى المحلّة، ونزلت خيلهم وخرجت إليهم الخيل من المحلّة وتقابلوا ووقع الضرب بينهم بالرصاص فمات شاوش من شوّاش الباجية، وركب اليهم بعض خيل دريد، وتقابلوا بالركض وضرب الرصاص وهذا جهدهم.

(1) اقتباس من سورة النور، 39، والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء.

ولمّا مات الشاوش أمر محمدّ باي ولد الباشا أن يخرج ثلاثة سناجق من عسكر زواوة، فخرجوا وقصدوا ذلك العربان، فلما قربوا منهم هربوا وهرب معهم مسعود كاهية ورجعوا ولم يقف منهم واحد، ورجعت زواوة إلى اخبيتهم وسار مسعود كاهية وهو حاير في أمره إلى أين يذهب ولم يرجع إلى جبل عمدون، وقصد عرش نفزة ومكث به، وبعث محمد باي ولد الباشا إلى الجبالية من ياتيني بمسعود كاهية أسيرا أو براسه فله كذا وكذا من المال، وطمعت الجبالية قبّحهم اللّه في المال، وسمع مسعود كاهية بما بعث به محمد باي فأخذ حذره وصار يتنقل في الليّل إلى موضع، وفي النّهار إلى موضع، وضربوه في الليّل بالرصاص فلم يصيدوه فانتقل من ذلك الموضع، وصار هايما في أمره وقدم يونس بمحاله ونجوعه ومن معه ونزل بلطة.

وبعث [إلى] مسعود كاهية بالأمان فما صدق مسعود كاهية أن أمنّه يونس فردّإليه يونس : أنّي أمنّتك من خوف الباشا وأماني أمانه، وبعث إلى أخيه فأمر يونس [بإدخال وطق أخيه محمد وينصبونه إلى جنب وطاقه وادخل محلة أخيه مع محلته وصارت محلة واحدة] وضمّ السّناجق والطبول إلى وجقه ودخل محمد باي إلى وطاقه، واحد من جملة الأصحاب ودخل وطاقه وقلّت أتباعه، فدبّ فيه الحسد دبيب النمل، ولمّا وصل أمان يونس إلى مسعود كاهية سار من حينه هو وولداه والحاج خلفة إلى أن وصلوا إلى يونس وهو (361] ببلطة ودخلوا عليه وقبلوا يديه، ودعوا له بخير، وسبق الخبر إلى علي باشا بوصول يونس إلى وطن باجة وتخديم مسعود كاهية وتأمينه.

ثمّ رحل يونس ووصل إلى بلد باجة وكانت دخلت سنة خمسين وماية وألف [1150] وقصد باردو[1] ونزل به، ثمّ زار الشيّخ الصمادحي ورجع، ورأى على أبواب باجة من الأزبال فأمر بإزالتها وكان محمد باي ولد الباشا قبل قدوم أخيه سعى بعض الظلّمة ببعض أبناء عم مسعود كاهية وهو صبايحي، وأنّه يبعث إلى [ابن عمّه] الرّصاص والبارود إلى الجبل، فبعث إليه محمد باي ومسكه، فلمّا وصلوا بالرجل إلى المحلّة أمر محمد باي أن يسطروه[2] في باش شاطر فسطّروه، وكذلك سعوا في قايد البلد أحمد الغربي ومعه جماعة، فربطه محمد باي فشحّم[3] على نفسه لأصحاب محمد باي فبرّوه من التهجريس[4] وستره اللّه فأطلقه، وسعت أصحابه في بعض النّاس فخطاهم محمد باي، ووقع الظلّم في النّاس وتفيّت السوّاني، وأمر يونس بالزّيادة في برجها وقعدت أهل باجة تنقض في الزّبل مدة ثلاث سنين أو أكثر.

ثم رحل يونس من باجة ومعه مسعود كاهية ووصل الخبر إلى الأمير حسين سامحه الله ندم أشدّ الندم على بعث مسعود كاهية والحاج خلفة، [وكان الحاج خلفة] ترك أخويه بسوسة عند محمد باي بن حسين باي رحم اللّه الجميع. آمين.

ودخل مسعود كاهية تونس والتقى بولده علي، وكان رجع إلى تونس مع القوم الذين رجعت من جرّة الباي حسين

(1) أي باردو باجة. (2) التسطير : مثل الضرب بالساطور.
(3) أي اعطى رشوة.
(4) التهجريس : هو التآمر على الباي للإطاحة به والهجارس في الفصحى شدائد الأيام.

حين أراد أن يغرّب كما تقدّم، ووجد مسعود كاهية داره وعياله في أشدّ ما يكون من الضنك، فسأل عن الأمانة التي أمنها عند بعض الباجية فأخبروه أنّها وصلت إلى الباشا هي وأمانة الحاج بلقاسم زوج ابنتك وابن عمك فزاد همّاً إلى همّه، وتركه علي باشا وولده يونس في زوايا الاهمال يلوّج في شوارع تونس، وجاءت محلّة الصّيف وطلع مع يونس إلى باجة فأعطاه [362] يونس صيفيّة عمدون يقبلها، [وروح الى تونس ولما صوب يونس إلى محلة الجريد ومات محمد ولد مسعود كاهية في القتال مع قوم القيروان، وبعدها مات ولده أحمد وبقى هو وولده علي.

وأما الحاج خلفة فعرفوه أولاد الباشا، أخذ هناشر اللزمة من عندهم، وظهر بالصدق بينهم فخدمه الباشا وأولاده وحين وصل يونس إلى تلك البلاد ولم يبق عنده ثبات أي بلد، سمع يونس بخبر مسعود كاهية]، وأنّه يرسل سيّارة زوج شواشن سود إلى القيروان وإلى سوسة فقال يونس: الكلب خاين. ولمّا رجع يونس من المحلّة صوّب إليه مسعود كاهية يسلّم عليه فربطه وبعث يونس الحاج خلفة ومعه الحوانب إلى ولده علي وهو بهنشيرهم في فطناسة، له فيه مدة هارب عن الأعين، ومن قوّة حنق يونس عليه أنه لما جاء الصباح الحاج خلفة لباردو وقبّل يد يونس قال: اذهب إلى بيت خزنادار واجلس ثمّة حاجتي عندك، فمضى الحاج خلفة إلى بيت خزنادار فجلس بها من الصبّاح إلى أن أذّن الأول[1] ولم يأته أحد فقال أنا مربوط.

(1) الأول: أي لصلاة الظهر على المذهب الحنفي في منتصف النهار.

ولما أذّن العصر أيّس من خلاصه، وقال أنا مربوط إلى أن أذّن المغرب فجاءه بوّاب وناداه فقام إليه وذهب معه إلى محكمة يونس فقال له: اركب في هذه السّاعة أنت والحوانب وهذه الفرس حاضرة وسر إلى علي ولد مسعود كاهية أنت والحوانب واربطوه وآتيني به وإلاّ راسك يسدّ في رأسه.

فركب الحاج خلفة والحوانب وساروا في اللّيل وساروا[1] النّهار إلى أن وصلوا إلى الهنشير فوجده الحاج خلفة فنزلوا إليه الحوانب وقيّدوه في الحديد ورفعوه إلى أن وصلوا باردو فأدخلوه على أبيه في الزّندالة[2]. وأمّا الشّوشان الإثنان فشنقهم في الباطل مظلومين بل اللذان مشيا للقيروان غيرهما وهما في رهط الشواشن، فلما سأل يونس هل عند مسعود كاهية شواشن؟ قالوا له: عنده زوج من الشواشن، فما شكّ في الحديث، وبلغه الخبر في حينه بأنّ هذين الشّوشانين ليس هما اللذان قالوا لك عليهما بل غيرهما، ومثل هذا الشوشان وأخيه لا يقتل وهما من مماليك الملوك، فركّب يونس الحوانب ليأتوا بهما فوجدوهما قد شنقوهما.

وأمّا مسعود كاهية لمّا ادخلوا عليه ولده علي فجع وأخذته الجوف[3]، وكذلك ولده، فتوفيا في الزندالة رحمة الله عليهم. آمين.

(1) في الأصل: سار.
(2) الزندالة: سجن باردو.
(3) الجوف: البطن أي وقع له إسهال أو أوجاع في البطن.

[363] ذكر وصول يونس إلى صفاقس وجربة وكيف أمر بقتل الشّيخ سعيد من أولاد بالجلود

ولمّا رجع من هذه المحلّة وارتاح أيّاما قليلة أمر أن يرموا محلّة، فأخرجوا الأخبية ونصبوا محلّة كبيرة وأخرجت المحلّة وخرج العسكر إليها ودخلها يونس، وسار يقطع المراحل ويطوي المنازل إلى أن وصل صفاقس، فهربت من بين يديه المثاليث والسوّاسي، ولم يقابلوه، فقال له بعض خدّامه من صفاقس : إن أردت خدمة المثاليث وغيرهم فعليك بولد الشيخ سيدي علي النّوري فإنّه لو قال لهم خوضوا البحر فخاضوه، فبعث إليه يونس فخرج إليه من البلد وقابله فأكرمه، وقال له يونس : نحن نحبّوك لأجل والدك، ومالك أنت لا تأتينا ولا تجالسنا ولا تنام عندنا لأجل المسامرة؟ فقبّل الشّيخ يده وقال له : ما نحن إلاّ عبيدك. وأقام عنده في الوطاق فلما جلسا للمسامرة، قال له يونس : أعندك علم من المثاليث والسوّاسي [لم] يقابلوني ولم يخدموني؟ فقال : إن كنت تريدهم فهم يقدمون عليك ولا تعمل في خاطرك شيئا من أجلهم، وأنا ناتي بهم إليك.

فلمّا طلع النّهار بعث ولد الشيّخ بعض خدّامه إلى مشايخ

المثاليث وقال لهم : قال لكم ولد الشيّخ غدا الملتقى بيني وبينكم المكان الفلاني، فركب الخديم، وسار إلى أن وصل مشايخ المثاليث وأخبرهم [364] بما بعثه به ابن الشيّخ فركبوا وساروا إلى أن تلاقوا هم وولد الشيّخ وتحدّث معهم في أمر الخدمة، وضمن لهم ولد الشيّخ [كلّ ما ياتي اليهم من تونس، فسمعوا قوله وساروا معه الى أن دخل بهم على يونس واعطى للمشايخ عوايدهم ورجعوا من عنده وفي علم ولد الشيخ انه فاز عند يونس وصار من أكبر أحبابه وأصحابه، فلما جلس للمسامرة مع يونس أخذ ولد الشيخ] يتحدّث على الباي حسين ويذمّ فيه، واستنقصه إلى أن قال قدّام يونس : لو بيع راس حسين باي بماية ألف لاشتريته! فانفعل يونس من هذا الكلام واستغاض عليه، وولد الشيّخ في علمه أنّه يتحبّب إلى يونس وإليه يتقرّب. فسكت عنه يونس وطلع النّهار وهو عنده وطاح عليه اللّيل وهو معه.

فلمّا طلع النّهار قال ليونس : ائذن لي أن نمشي إلى البلد. قال له : وما تصنع في البلد؟ أقم عندنا يومين أو ثلاثة أخر. فصبر وأقام ثلاثة أيّام. وفي اليوم الرّابع قال له : اذنك المبارك أن نسير إلى داري، فقد أوحشتهم وأوحشوني، فقال له يونس: ما تمشيشي هذه الأيّام إلى أن نرحل من هنا. قال له ولد الشيّخ : قل لي أنت محبوس. قال له : حيث اشتهيت الحبس أنت مسجون، ارفعوه إلى خباء خزنادار، فرفعوه إلى خبائه، قالوا ثمّ بعث له يونس وقال له : نريد منك أن تعاونّي بشيء من المال وإلاّ أرفعك لتونس. قال المخبر : فبعث ولد الشيّخ إلى

داره وجاؤوه بشكاير من المال، فبعثها إلى يونس، فلمّا اطّلع على ما بعث إليه قال لهم يونس: قولوا الولد الشيّخ أنت قلت أنا نعطي في قصّ رأس حسين بن علي ماية ألف، ولو[لم] تكن حاضرة عندك ما قلتها، فابعث إليّ بالماية ألف التي قلتها. فلمّا وصل إليه الكلام بعث إلى داره زادوه مالا آخر فلم يرض به يونس وبعث لولد الشيخ : اعطني المال. قيل بعث إلى داره وقال لهم : ما بقى عندي إلا عشرون ألفا ريالا صحاحا، ولا بقى عندي غيرها فادفعوها له، فإن سرّحني فبها ونعمت وإلاّ يفعل بي ما يشاء.

قال : فلما وصل هذا المال الأخير إلى يونس وسمع ما قال، أمر خزنادار أن يسرّحه، ومن عندك يروّح [365] إلى بلده ولا يقابلني.

وقد كانت جاءته هديّة شيخ جربة، وكان يونس عنده خبر فرس عند الشيّخ سعيد بالجلود لم يركب عليها سلطان. فلمّا وصلته الهديّة بعث إليه يونس يقول : اعطني الفرس الفلانية، فلمّا وصل إليه الخبر بعث إليه بزوج مراكيب أخرى، فقدموا بهم إلى يونس. فلمّا رآهم يونس قال : قولوا له يعطيني الفرس الفلانيّة، وكانت هذه الفرس عزيزة على الشيّخ سعيد، ومع ما هو عليه من التكبّر والتجبّر فلم تسمح نفسه ببعوث الفرس فسكت عنه الشيّخ سعيد ولم يبعث إليه الفرس، فرحل يونس وطوّع ذلك البلاد، ولا زال سايرا إلى أن وقف على مرسى جربة، وقبل قدوم يونس أمر الشيّخ سعيد بذلك الصنادل[1] التي يقطعون فيها إلى جربة فنقبهم كلّهم وغرّقهم

(1) الصنّادل : ج صندل، زورق.

لئلا يركبوا فيها قوم يونس ويدخلون الجزيرة، فلمّا نظر يونس إلى الصنادل رجع من مكانه ولا قدر أن يعمل مع الشّيخ سعيد شيئا، ورجعت محلتّه، وأضافه جميع النّاس، ورحل، كلّما جاء على عرش خدمه، ورجع إلى تونس وجلس على سرير ملكه.

ولما جاء وقت تبديل النّوبة[1] في البلدان قال يونس لخوجة الديوان : بولكباش الذي يمشي مع النوبة آغة في جربة أرسله إليّ، حاجتي عنده، فلما حضر الوقت الذي تبدّل فيه النّوبة ركبت الخوجة نوبة جربة جاء طريق بولكباش تركي عجمي، وتعيّن طريقه آغة في جربة، بعث إليه الخوجة فجاءه إلى داره فقال له الخوجة : إنّ سيدي يونس قال لك : اقدم إلى باردو، حاجتي عندك. قال له : نعم، فلمّا طلع النّهار صوّب ذلك بولكباش إلى باردو وأخذ الإذن، ودخل على يونس، وقبّل يده، ووقف. قال له يونس : تكلّم! ما تريد؟ قال له بولكباش : بعثني الخوجة في بيت باش حانبة، إلى أن قام يونس من حكمه ودخل إلى بيته وبعث [إلى] بولكباش مملوكا فناداه [366] ودخل به على يونس فساره، وقال له : إن كنت تريد رضايا ونزيدك نوبة أخرى في جربة فانظر كيف تعمل في قتل الشّيخ سعيد على يد بعض الأتراك. فقبّل يده وقال له : ببركتك إن شاء الله، ولا تشتغل بشيء إلاّ به، وخرج من عنده كأنّه حمّله نقل جبل، ولا قدر يتعذّر له، ورجع إلى تونس واجتمعت أصحاب النوبة للسّفر وسافروا إلى أن وصلوا جربة وكان هذا الشّيخ سعيد في غاية ما يكون من التكبّر والتّجبر والعتوّ والعدوان والظّلم.

(1) النوبة : الفرقة الموسيقيّة أو تبديل العسكر.

وكان جعل لنفسه حوانبا كثيرة يقفون بين يديه لابسون عددهم، فلا يدخل عليه أحد إلاّ أن يمسكاه إثنان، واحد من يمينه وواحد من شماله، ويوقفونه بين يديه، وهو أقوى من علي باشا في الأنفة والنّفس المنحرفة لا يقدر أحد أن يعلي صوته بين يديه، وإذا جاءه يولضاش فلا يدخل عليه إلاّ أن يفتّشوه فإن كان عنده حديد ولو صغيرا نزعوه له وأدخلوه بين رجليه واقف، حتّى يقضي حاجته من عنده.

ومن قوّة تكبّره وعتوّه أنّ له أكياما[1] يسكنون فيها عبيده تحت صرايته قرب داره، وكان إذا جلس الشّيخ سعيد [في] بعض شبابك هذه الصراية ينظر من فوق إلى ذلك الأكيام، وفيهم عبيده وأولادهم كبارا وصغارا، وكان يوما ينظر من الشبّاك واقف بين يديه [بعض التراسة من ذلك العبيد وكانت عنده أخت مولدة صبية في ذلك الأيام فخرجت من الكيم واقفة وإذا عبد متعدّ عليها فكلمها وكلمته والشيخ سعيد ينظر من الشباك اليها وهي تتكلم هي والعبد الآخر فقال : يا أحمد، يا أحمد على أخيها الواقف بين يديه] : انزل وقصّ راس اختك وأنا انظر لئلا يتحدثوا أهل جربة ويقولون : شوشانة الشّيخ سعيد تكلّم في رجل. فما سمع ذلك العبد أخ البنت إلاّ أن نزل وفارق على أخته من الكيم وذبحها، وقصّ راسها، والشيخ سعيد ينظر، وشاع ظلمه في جزيرة جربة وقتل كثيرا من أهل جربة وأخذ من أهلها أموالا كثيرة.

ولما وصل آغة جربة إلى جربة ومن عادة شيخ جربة إذا كان يوم

(1) أكيام : ج كيم : كوخ.

السّوق ينزل بيده للسّوق وله محل يجلس فيه، فإذا فرغ السّوق ركب الشيّخ فرسه وركبت معه أتباعه وأصحابه ويرجع [367] إلى قصره، وهو بعيد من السّوق، واشتغل الآغة كيف يكون قتل هذا الرّجل نصدم عليه إلى داره، فأتباعه أضعاف ما معي من العسكر، نقتله إذا تقابلت أنا وإيّاه. لهم يوم في الجمعة يتقابل فيه الشيّخ والآغة، فما لي قدرة عليه وصا ر يترصدّ له فما وجد إليه حيلة. وكان معه في العسكر رجلان أعجميان واحد اسمه قارة محمد كأنّه وصيف أسود، وكان هذان الرّجلان يخرجان [كل يوم] يصطادان في جزيرة جربة، والآغة قاعد في سقيفة البرج كل يوم يدخلان ويخرجان. فقال لهما الآغة يوما: كل يوم تخرجون بعددكم وترجعون ولا رأيت منكما خصلة.

فلمّا جلس قارة محمد في بيته متفكّر في كلام الآغة الذي قاله وما مراد الآغة بهذا الكلام ثمّ قال: والله لنقف عليه في بيته في اللّيل ونستخبره ما مراده فانا لم نعمل خصلة. فلمّا طاح اللّيل، دخل قارة محمد البيت التي فيها الآغة فوجده جالسا فرحّب بقارة محمد وسقاه قهوة وتحدّث معه فقال له قارة محمد: بالله عليك يا الآغة ما مرادك اليوم بقولك ما نعمل قال له الآغة: كلمة جاءت على لساني فقلتها، وإذا كانت عندي حاجة وقلتها لك فما عسى أن تفعل؟ الرّجال ماتت ولا بقي أحد ينفع نفسه ولا غيره. فقال له: سبحان الله قل لي حاجتك التي تريد أن نقضيها لك، فقال له الآغة: إن أردت أن نقولها لك فتحلف بدلايل الخيرات[1] أن لا تخرج سرّي لأحد.

(1) دلائل الخيرات: كتاب يشتمل على أدعية وأحزاب للإمام محمد بن سليمان الجزولي، له طبعات عديدة.

فقال [له]: نعم، هات «دلايل الخيرات». فحلف له أنّه لا يفشي سرّه لأحد ولو قتل. قال له الآغة: حيث كان الأمر هكذا إذا فعلت الذي أقوله، لك ناصريان طاراقي[1] ولك تسكرة في أربعة أذرع ملف، وتسكرة في أي طريق تختاره إن قتلت الشيخ سعيد شيخ جربة وإذا أظهرت هذا الكلام لغيرك فلا تلومنّ إلاّ نفسك! إن كنت تقدر على هذه الحاجة [368] فاقرا معي الفاتحة، وإن لم تقدر عليها فلا تخبر غيرك بها، فقال له قارة محمد: إن شاء الله نقضي هذه الحاجة إذا حضر أجله.

وقرا مع الآغة الفاتحة وخرج من عنده وأخذ يترصدّ من كلّ وجه فما وجد له سبيلا. ولمّا امتلى لشيخ جربة صاعه وحضر أجله كانت له ثنيّة يسير من داره إلى السّوق في ذلك الثّنيّة، وفي الثّنيّة طابية تغطّي الرجل ممدودة مع الثنية ووراءها صحراء خالية من المنازل، وبعيد منها منازل يهود، فقال قارة محمد: إن لم نقتله من هذه الطابية ما نقتله من مضرب آخر، ولكن كيف نزيل الرّيب عنّي ولا يفكّر أحد في شاني؟ فقال: نستعمل الصّيد في هذه الصّحراء أنا وصاحبي، فإذا صدنا طيرا شويناه قرب الطّابية وأكلناه، وصار كلّ يوم يقرب ويبعد في جرة الصيد ثمّ يتغيّب، ثمّ يرجع هو وصاحبه، فرآهم يهودي شيخ كبير، فقال: ما علّة هذه الأتراك الذين ما يصطادوا إلا في هذا الموضع وأظنّهم أنهّم لابدّ لهم من شيء في هذه الصحراء. ولما تعدّى الشّيخ سعيد على هذه الثنيّة

(1) ناصري طاراقي: نوع من النقد.

تعرّض له اليهودي وأنذره منهما، فقال له الشّيخ سعيد : اثنان وما عسى أن يفعلا ؟ لمّا عمى اللّه بصيرته وحضر أجله مع ما فيه من قوّة التّحذّر من الترّك، قيل أخبره بعض العزابية[1] من الجرابة، وكان عنده جفر[2] ولاة حكام جربة من أولاد بالجلود ولهم مدّة مديدة مشايخ بجربة خلف عن سلف قال له : يقتلك تركي ويكون كذا وكذا. فكان الشّيخ سعيد آخذا حذره من الترّك.

قال الناقل : ولمّا حضر أجله، وجاء يوم السّوق وركب الشّيخ سعيد على عادته معه أتباعه ووصل إلى محلّه بالسّوق وجاء قارة محمد يتصيّد ويبعد ويقرب من الطّابية، فالشيخ سعيد جالس قبل فراق [السوق] قبل الزوال أو بعده وهو يشرب في العراقي[3] [369] وإذا بواحد من مماليكه دخل عليه وقال له سر : اليوم، لمّا ركبت أنت وخرجت من الدار رأيت خزنادار مملوكك تكلّم فيه جارية من الشبّاك وهو يكلم فيها. فلمّا سمع هذا الكلام من الرجل قال لمن حضر قدّامه : ايتيني بالفرس، واتباعه كثيرها متفرّق لعلمهم أنه ليس وقت ركوبه، فركب الفرس وهو سكران وسار إلى أن وصل إلى قريب الطّابية فنظره قارة محمد هو وصاحبه، فجرى قارة محمد إلى الغنتير[4] الذي جعل في الطّابية ووقف ينتظره حتّى يحاذيه. فلمّا حاذى الشّيخ سعيد الغنتير، جاءت اتفاقية وقف في السرّج، ونظر هل يرى أحدا

(1) العزابية : فرقة إباضية.

(2) الجفر : هو علم الحروف، علم يدعي أصحابه أنّهم يعرفون به الحوادث إلى أنقاض العالم.

(3) العرق : نوع من الكحول مسكر جدا.

(4) الغنتير : ج غناتر وهي كرات توضع في المدفع.

وراء الطّابية فضربه قارة محمد على صدره بلوح رصاص، فطاح من ساعته على وجهه، وهربت الفرس وهرب من كان معه وهرب قارة محمد وصاحبه إلى البرج وغلق الآغة باب البرج.

وأمّا إخوة الشّيخ سعيد وأبناء عمّه فلمّا سمعوا بموت الشّيخ سعيد رفعوا العزيز عليهم وركبوا خيلهم وساروا إلى طرابلس فدخلوها ومكثوا بها، وكتب الآغة ليونس وأخبره بمن قتله. فلمّا وصل الخبر إلى يونس فرح فرحا شديدا، وكان هذا الشّيخ سعيد قد كاده وحار في أمره منه، وحيث كان الطّالع في الاستقامة والاقبال دبرّ في قتله كيف يكون، فوافقه الحال، ولمّا رجع قارة محمد من النّوبة أعطاه يونس الملف، ثمّ ركب قارة محمد البحر قرصانا فأسروه النّصارى، فلما سمع به الباشا علي فداه ورجع إلى تونس، وبعث الباشا علي سامحه اللّه إلى جربة عسكر من زوارة ومعهم بعض الترّك فدخلوها وفيّوا فنادقها من السلّع، وفيّوا الحوانت وغنموا منها غنيمة كبيرة، وهدّ الباشا ديار أولاد بالجلود حتى تركهم كوما، والذي في تونس والذّي هرب لطرابلس مكث هناك وجعل الباشا في مقامهم [307] مملوكا يحكم، وجعل نظر الجزيرة لمشايخها، والشّيخ الذي في تونس هو الذي مواجه للسلّطنة، وأمور جربة كلّها على يده. وبقى أمر جربة كذلك إلى أن أخذ مملكة تونس ولدا المرحوم حسين بن علي، فردّ أمر جربة إلى أولاد بالجلود وشيّخوهم بجربة كعادتهم السّابقة، وبنت أهل جربة ديارهم وما هدّم الباشا منها، ثمّ كثرت بهم الشكايات إلى

البيات من كثرة ظلمهم. قيل عزلوهم وردّوهم إلى تونس، وجعلوا مملوكا يحكم كما فعل الباشا في حقّ أولاد بالجلود والله أعلم. والمعذرة من قلّة تفصيل خبر جربة لأنّي بعيد الدّار منهم. وهذا ما سمعته كتبته كما قال النّاقل، والخبر من حيث هو يحتمل الصّدق والكذب.

ولما خدمت أعراب صفاقس اجتمعوا حول صفاقس فسمع بهم الباي حسين رحمه الله ورجع يونس إلى تونس جمع الباي حسين [الجموع جلاص وغيرهم والقوم] الذين معه وسار إليها وأخذ سعي ذلك الناس الذي قرب صفاقس، ومات من شواشه علي بن دلهومة واقتسمت ذلك الانعام القوم الذين ساروا معه ورجع إلى القيروان.

ذكر دخول محمد باي سوسة ونفاق المهدية وما جرى بالكوارغليّة

ولمّا نافق كثير أهل سوسة بعث إليهم الباي حسين أحمد شلبي والقايد أحمد الغربي الباجي. دخل أحمد شلبي البرج وتمكّن منه، وكان محمد باي غايبا عند النمامشة بعثه أبوه، ولما رجع من عندهم بعثه إلى سوسة ودخل قصبتها وتحكّم [فيها] وتزوّج بنت الشّيخ جمال الدين، ثم سمع على قايدها [371] الحاج علي اليمني ومعه أحمد الغربي الباجي وجماعة أنّهم هجرسوا ويريدون أن يخدموا يونس، فبعث إلى والده الباي حسين يخبر علي اليميني فركب من حينه هو ومن معه من الخيل وسار الباي حسين إلى أن دخل برج سوسة من باب غدر، وبعث الرجال إلى الحاج علي اليمني ومن معه فشدّوهم وكتّفوهم. وأمّا أحمد الغربي فإنّه ركب فرسه وانخنس من بينهم ولم يدر به أحد فسار على وجهه إلى أن وصل باردو تونس، وقابل علي باشا ويونس فأمّناه وروّح إلى باجة ثم أخذ قيادة باجة وتمكّن من الباشا وولده [يونس غاية التمكن، لا قول إلا قوله عند الباشا وولده]، ولمّا زهقت روحه فلما صار فيه من الحزم والكلمة جاهر الله بالمعاصي وظلم

العباد وزاد في ظلمه وتقلّد أناسا كثيرة عند علي باشا إلى أن شنق الحاج عبد الله العبّاس رجلا من أعيان باجة ومعه واحد آخر عربي فأمر علي باشا حين تقلّدهما عند الباشا علي سامحه الله فأمر بشنقهما من غير توقّف. وهامت الناس من شرّ هذا الرجل فصادفته بعض الدعوات من بعض المظلومين فمرض قليلا وتوفّى والله وليّ الانتقام.

وأمّا الحاج علي اليمني ومن معه بعثهم إلى القيروان في الحديد مع خيله إلى أنّ بلّغوهم القيروان، ومكث الباي حسين بعده أيّاما في سوسة مع ولده محمّد ثمّ رجع إلى القيروان وطالب الحاج علي اليمني في المال وأكل العصا وتركه مسجونا في القيروان، واجتمعت عند محمّد باي رحمه الله ما يقرب من ماية من القوم ورايسهم الحاج سلامة الجبيني وصار يعسّ[1] على من لم ينافق من أهل الساحل وغيره، وصار يركب كل يوم بذلك الخيل.

وبعث محمد باي لسلطان مالطة وتكلّم معهم في الصلح فصالحه سلطان مالطة وصارت مراكب مالطة تاتي لمحمد باي بما يأمر به ويرفعون من عنده ما يؤمرون به. وعمّر الغلايط[2] التي عنده في سوسة، وصاروا يقرصنون في [372] البحر على من يتعدّى إلى تونس من صفاقس وجربة وغيرها، وتاتي المراكب الكبار من مالطة فإذا سمع محمد باي بقدوم مراكب في البحر من صفاقس أو جربة يخرج إليهم الغلايط ومعهم ذلك المركب الكبير من نصارى مالطة فتقف لهم في البحر حتّى

(1) ب : يغز.
(2) الغلايط : ج غلياطة : دخيل من اللاتينية galéotta وبالفرنسية galiote نوع من المراكب الهولندية ذات الأشرعة، المقدم من المركب والمؤخر في شكل دائري.

يأخذونها وعلي باشا في تونس ياخذ سلع أهل سوسة والمنستير القديمة والتي وردت في البحر، وهذا يأخذ قوم هذا وهذا ياخذ قوم هذا، وصارت العباد كالقمح بين الرحاتين، وهذا ما قدّره الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

وأما خبر نفاق أهل المهدية اعلم أنّ هذه المهديّة سكّانها كلّها كوارغليّة وهم يزيدون على ثلاثماية والساكن من غيرهم بينهم قليل، ولها برج ونوبة وآغة يأتي إليها كلّ عام من تونس. وكوارغليّة المهديّة كلّها على كلمة واحدة وفيهم شجاعة دون غيرهم، ولا يعرفون الفساد في بلادهم، وإن سمعوا شيئا عن بعض أولادهم قتلوه، وهم أصحاب رواتب كبار، فلمّا تولّى الباشا علي البلاد ونافق أهل المدن من الساحل فلم ينافقوا كوارغليّة المهديّة لأجل رواتبهم بتونس فإذا نافقوا انقطعت عنهم الروّاتب، فأطاعوا الباشا علي ودخلوا في وجقهم وخدموا مع أبناء عمّهم وهم أصحاب أنفة على غيرهم من أولاد الكويات[1]، وشجاعة على جميع وجق تونس، وهم مغرومون في بلادهم بسواني الدلاّع و[هو] يعظم عندهم كثيرا، فإذا طاب يثقبون الدلاّعة في راسها وهي في عرشها لا يقصّونها ويأتوا بالعسل مقدار رطل فيصبّونه في تلك الدلاّعة ويردّون عليها غطاءها ويسدّونها من الريح ويتركونها مدّة معلومة، ويأتون لذلك الدلاّعة ويهزّونها فيجدونها كلّها ماء فيصبّونه في قصعة ويصفّونه من القلوب وغيره ثم يجعلون ذلك الماء في الفواشك[2]

(1) الكويات : ج كوية، من الكوة، الخرق في الحائط وتستعار للمزارع.
(2) ج فاشكة : من الفرنسية Fiasque، قارورة ضخمة البطن، طويلة العنق تستعمل لحفظ العطور.

القزاز ويحطّونها في الشّمس معلقّة مدّة ثمّ يخملونها [373] في بيوتهم، فإذا أراد أحد منهم أن يسكر وتحصل له نشوة الخمر أخذوا من تلك الفواشك وشربوه هم وأولادهم وعيالهم على الطّعام في العشاء والغذاء، وقالوا إنّها حلال على مذهبهم كالنبيذ لأهل العراق. وطالت مدّتهم في هذه القرية وخصوصا في دولة الأمير حسين سامحه الله، فالرّاتب الكبير إلى نهايته، والسفّر القليل وعوضه فكثرت أموالهم وزاد نسلهم. ولمّا خدموا مع وجقهم وجدوا القوانين تغيّرت مع كره الباشا علي وولده يونس في كوارغليّة البليدات[1]، وبأقل قليل حتى إذا لم يحضر كورغلي البليدات نهار تاخذ داره الرّاتب، وجاء بعد ذلك لدار الباشا طالبا راتبه فلم يعطوه الرّاتب ويضربون عليه في الدّفاتر فقاست الكوارغلية الذي في البليدات الشدّايد من السفّر لتونس كلّ شهر، فلم تألف ذلك كوارغليّة المهديّة مع بعد بلادهم، وإن قدموا قبل الرّاتب أقاموا بتونس في الفنادق بخيلهم فما يجيء طريق الواحد منهم حتى ياكل في تونس أكثر من الرّاتب الذي ياخذونه فرجعوا إلى بلادهم المهديّة ونصبوا بينهم ديوانا على النفاق ويخدمون للباي حسين، فاشتهى كثيرهم والعاقل منهم والكبير لم يرض بهذا النفاق، وفقدوا منهم جماعة كبيرة [هي] غايبة بتونس فبعثوا اليهم فجاءهم البعض، وسمع الآغة والعسكر الذي معه بأن كوارغليّة المهديّة عاملون على النفاق، قيل هرب الآغة من البرج والذي معه، ولما راوهم هربوا قاموا النفاق في المهدية قبل تمام بني عمهّم بالكلّيّة، وقيل قتلوا الآغة وقيل اطلقوه ولم يضروّه، وبعثوا للأمير

(1) البليدات : مدن كان يعيش فيها الكوارغلية مثل الحمامات ونابل والمهدية.

حسين بالخدمة والطّاعة، ففرح بنفاقهم فرحا شديدا، وحصل له بعض طمع في الملك فبعث إليهم محمد قزدغلي الذي كان نفاه من تونس في أواخر أيامه بتونس وبعثه إلى المهديّة منفيا. ولمّا وقع ما وقع على الباي حسين لم يرجع إلى تونس ولا خدم الباشا وهو كان [374] آغة صبايحيّة الترّك عند الأمير حسين، ونفاه إلى المهديّة ومكث بها ولم يكافيه بما فعله معه، فبعث إليه الباي حسين بأمر الدولاتلي بتونس ماذا يكذبون ليلة يخطبون، وولاّه حاكما على كوارغليّة المهديّة وعمروا غلايط[1] في البحر وصاروا يعرضون على من هو مسافر لتونس سواء كانوا حجاجا أوتجارا فياخذوهم ويقسمون ما معهم من الرزّق بينهم. ولمّا وصل الخبر إلى علي باشا وولده يونس بنفاق المهدية ركب الحوانب في الحين يلوجون هل يجدون أحدا من أهل المهدية قالوا : جاؤوا بواحد أو اثنين للباشا فأمر بخنقهم ووجدوا زوج اخوة شايبين توامة كبعضهم بعضا لا تفرّق بينهم، لابسين لباسا واحدا لهم مدّة في تونس، فلمّا شدّوهم الحوانب وربطهم الباشا بروّهم من كلّ عيب، فأطلقهم في تونس وضرب على رواتبهم فقعدا في تونس يطلبان القوت من الذي يعرفونه وأظنهما أنّهما توفيا بتونس والله أعلم.

وزاد الباشا في غيظه على الكوارغليّة، ولكن ما طال[2] عمّه في القيروان لم يقدر على انتقامهم جميعا، وبلغ مراده منهم وتمّوا في نفاقهم إلى أن أخذت القيروان وفتحت سوسة

(1) غلايط : انظر تعليق ص 156، عدد 2.
(2) أي مادام.

وبقيت المهدية، فصاحب المال هرب منهم بولده وعياله إلى طرابلس وغيرها.

وأمّا الذين طمّنهم بأمانه وخدموا وفتحوا البلد فرجع عليهم وأخذ أموالهم وقتل منهم وماتوا غمّاً ممّا أصابهم وتشتّتوا في البلاد وخلت وأقفرت منهم المهدية ولا بقي بها اليوم إلاّ القليل في غاية المذلّة والاحتياج. اللّهم استرنا بسترك، وأمنا عقابك، وهذا ما قدّره الله ولا يعلم الغيب إلاّ الله.

وظهر محمد باي في سوسة وغيرها وتقوّى وكثرت خيله ورَجله، وقويت شوكته، ولمّا كانت القلعة الصّغيرة خادمة للباشا علي وولده يونس وركب إليها الباي حسين وجمع الجموع ومعه خدّامه القدم، وسار إليها وحاصرها وكان معه في هذه الغزوة [375] جاب الله بوفردة المقدّم الذكر ومعه حمّودة والي من أبناء تونس، ووصلا إلى سواني أهل القلعة الصغيرة، وكان الإثنان سكارى فوصلهم الخبر إلى أن دخلا زنقة ومعهم ثالث والهندي يحيط بذلك الزنقة، فلم يدروا من أين يخرجوا والباي حسين ومعه رجعوا حيث لم يقضوا شيئا.

فلمّا رجعت أهل القلعة الصّغيرة رأوهم يدورون بين تلك السّواني المتخمة بالهندي، فلما رآهم عجلّوا إليهم والرّجلان سكارى شدّوهم والذي معهم وكتفوهم ورفعوهم إلى القلعة الصّغيرة، وفي الحين ركبوا وأخبروا الباشا علي بالرجلين جاب الله بوفردة وحمّودة والي، وكلاهما خبره عند الباشا، وما فعل، فركب إليهما حوانب الترك وحوانب أولاد عرب وأوصاهم الباشا إذا رجعتم ووصلتم بهم إلى تونس، فركّبوا

جاب الله بوفردة على بهيم وراسه عريان وقيد في رجله ولا تتركوا عليه الا جبّة، وعرّوا راس حمودة والي وكتّفوه وخلّوه يمشي على رجليه إلى دار الدولاتلي. وأمّا جاب الله بوفردة فأدخلوه من باب عليوة وأخرجوه من باب بوسعدون، وأوصلوه إلى باردو وحطّوه في الزّندالة.

فركبت الحوانب وساروا إلى أن وصلوا القلعة وأخذوا الرّجال وساروا راجعين إلى تونس، فلمّا وصلوا إلى تونس وسمعت بهم النّاس أسرعوا إليهم من كلّ مكان ليتفرّجوا عليهم، ودخلوا بجاب الله بوفردة [وحمودة والي على ذلك الحال، فأما حمودة والي فلما دخل دار الدولاتلي في الحين خنقته النصارى ولوحوه قدام القصبة، وأما جاب الله بوفردة] فصوّبوا به إلى باردو وحطّوه في الزّندالة. ومن الغد بعث به الباشا إلى رحبة قصبة تونس وقال: كسرّوا يديه ورجليه قدّام القصبة ثمّ اربطوه في ذيل بغلة وكرّوه في شوارع تونس، فطلعوا به وحطّوه قدّام القصبة وجاؤوه بالنّصارى وجابوا له معاون الحدّادة والعياذ بالله وضربوا قصب رجليه وكذلك يديه ورجليه قدّام القصبة، [وربطوه في ذيل بغلة] وداروا به الأسواق والشوارع وراسه يتقرقب على الحجر حتى القوه في سقيفة باب البحر، ولم يمت وباقي حيّاً. وبعثت له ابنته سفساري [376] أحمر لفّوه فيه، وصارت تبعث له كل يوم ما يقتات به وهو لم يمت أياما إلى أن تعدّى من ذلك الموضع يونس فرآه، فقال: هذا الكلب لم يمت! اذبحوه وقصّوا راسه. ففعل به كما أمر يونس.

وأمّا المرحوم حسين باي وقيل ولده علي هو الذي غزا القلعة الصغيرة وغزا أكودة، وقيل غزا أكودة وجمّال أبوه الباي حسين، أمّا أكّودة فإنّه فزّع إليها القراوة وجلاص وغيرهم وقاتلها قتالا شديدا، فلمّا علموا أنّهم منهزمون بعثوا أولاد الكتّاب وفي صدورهم الألواح وقدموا على الفزوع، فلمّا رأوهم رجعوا عن قتال أهل أكّودة وقالوا [غدا] نخدم إن شاء الله. فشدّوا الأولاد عندهم، ولمّا طاح اللّيل هربوا أهل أكّودة وتركوا بلادهم وما فيها من المتاع، وتركوها خالية من النزاع، ولمّا طلع النّهار وجدوها خالية من السكّان، فأخذت الفزوع في نهب ما في الدّيار.

وأقام الباي حسين أو ولده أياما يجرّون في الشّعير منها، قال المخبر : جرّوا منها اثنين وعشرين[و] ماية شعيرا جرّوه إلى القيروان، وكان قد انقطع الطّعام من القيروان ووصل الصّاع التونسي ريال ونصف، وفيه وصلت ويبة القمح اثنين وخمسين ريالا، ومات ضعيفها بالجوع للّذي لم يقدر أن يخرج، والذي له قدرة على الخروج جعل يده في يد زوجته وإن كان لهما أولاد رفعوهما، فإذا طاح بهم أحد سلبوهم وصار بهم العجب، وإذا نزلت المحلّة وحصروا القيروان يخرجون إلى المحلّة باللّيل، فمن في قلبه رحمة من العسكر أو غيره أعطاهم بعض الطّعام فإذا أكلوا أدخلوهم الوسطية فتصدّق النّاس عليهم، ومن المحلّة يتفرّقون كل أحد إلى أين يريد ولا بقي في القيروان إلاّ من له مال كثير، وإذا احتاج الباي حسين في

الطّعام وغيره يتكلّم مع وكيله دعدوش فيكتب له زماما خذ من عند فلان وخذ من عند فلان فيبعث إليهم الباي حسين [377] ويقول لهم : سلّفوني وأنا نردّ إليكم وقتا آخر، فإن جحد الرّجل ولم يعط ربطوه في الحبس حتّى يعطي ما طلب فيه، وكذلك طلب أهل سوسة وأهل المنستير ثمّ رجع إلى جمّال هو أو ولده علي وقاتلها ولم يصير منها شيئا، ورجع إلى القيروان وظهر النقص في حاله، وهربت عليه خدامه وخيله، وجاءت محلّة الشتاء، ونزل قريبا منها يونس وحاصرها فخرج إلى المحلّة خلق كثير، وكذلك إلى جبل وسلات، ولمّا أراد الله بقرب الوعد وانقضت أيامه استبطى علي ولده في مسيره إلى بوعزيز، فبعث إلى ولده محمّد وأمره أن يركب في موضعه أخاه محمود ويسير هو إلى أخيه علي، فإن قضيتما حاجتكما فارسلوا إليّ وإلاّ ارجعا على عجل، فلم يقدر محمد باي على مخالفة والده وجهّز روحه ومن اختار المسير معه من أصحابه، وسار قاصدا أخاه فوجده عند بوعزيز لم يقض شيئا، ليت الفجل يهضم نفسه، فأقام قليلا ثمّ سار هو وأخوه إلى قسنطينة ودخلها، قالوا تكلّم محمد باي هو وباي قسنطينة فحلف أن يسير إلى الجزاير وترك أخاه علي بقسنطينة وقصد الجزاير، هكذا قيل والله أعلم.

ذكر قتل الباي حسين
وما جرى بأهل القيروان وخلايها
وهدم سورها

ولمّا خرج محمد باي من سوسة وسار إلى الغرب فكان مسيره سببا في قتل أبيه، لأنّ يونس لمّا مضت شوكة محمد بسوسة وكثرت أتباعه صار يونس متحذّرا منه، ولمّا سار محمد باي بخيله من سوسة بعث نجدة من الصبّايحيّة إلى مساكن وأكّودة، باجيّة وغيرهم وعليهم عصمان آغة وصبايحيّة الكافيّة وآغتهم يحمون تلك البلاد من غزو خيل الأمير حسين، وقعدوا مدّة ثمّ[378] جاءهم الخبر وقال لهم إن أردتم أن تفدوا النقمة من جلاص ومن معهم هاهم نازلون بعيدا من القيروان، والنجدة بعيدة عنهم، فاجتمع الآغتان ومن معهم من الكواهي والشوّاش ونصبوا ديوانا، وقالوا لعلّنا نعمل خصلة تبيّض وجوهنا عند الباشا علي وولده يونس، فاتفق رايهم على الغزو على جلاص، ثمّ أمروا الخيل الذي معهم من الصبّايحيّة وغيرهم أن يجهّزوا أرواحهم ويجتمعوا، ولما رآهم من هو حبيب للباي حسين عملوا على المسير في اللّيل سبقْ قبل خروج القوم ووصلوا إلى الباي حسين وكان وصول الخبر في

الليل، فلمّا سمع الباي حسين بهذا الخبر أمر أن يسرّح مدفعا كبيرا لتسمع به جلاص فتهرب من ذلك الموضع، وهكذا كان لأمر قدّره الله المدبّر الحكيم، فسرّحوا المدفع من الجهة التي فيها عرش جلاص، فسمعوا صوت المدفع جلاص في اللّيل وهو غير معتاد عندهم، فوقفوا وقالوا ما سرّح هذا المدفع في هذا الوقت إلاّ لأمر مهمّ، فقال من ألهمه الله : هذا صوت المدفع من القيروان ينذر عليكم أن ارحلوا حين سماعكم، فوافقوه على قوله، ورحلوا بنزلهم وسعيهم وساروا إلى أن وصلوا القيروان ودخّلوا عيالاتهم إلى البلد، ففرح بهم الباي حسين والذي انذرهم به وافقوه.

واجتمعت عند الباي حسين، سامحه الله، جميع من كان حاضرا وقالوا له : هذا الغزو الصباح يصل إلى ديارنا وهو ما له علم فرحولنا واجتماعنا فاسمع كلامنا، نخرج إليهم ونتفرّق عليهم من كل ناحية وندوروا بهم ونكمنوا حتى لا يرانا أحد فإذا وصلوا وحصلوا في وسطنا هجمنا عليهم من كلّ ناحية وهم مطمينون بأنك ما عندك قوم، فوافقهم الباي حسين على ذلك، وبعث إلى من في القيروان من الخيل فركبت واجتمعت خيل جلاص وغيرهم وساروا، فلما قربوا من المكان الذي كانت فيه جلاص تفرّقوا كراديسا[1] وكمنوا ناظرين [375] لمن يقدم عليهم.

وأمّا الآغتان لمّا أظلم الظّلام أمرا بركوب الصبايحيّة

(1) كراديس : ج كردوس ج كرادس : ما تجمع وتضخم من الأشياء أي تفرقوا مجموعات.

وغيرهم فركبوا وساروا، والأنواع المختلطة لا يجتمعون على كلمة واحدة، وكثيرا ما تقع فيهم الملحمة، وركبت الصبّايحيّة كرها دون الرّضى، مكره أخاك لا بطل، وركبوا الخيل وساروا في اللّيل، كلّ واحد منهم يدعى بالليل إلى أن [طلع] الفجر ووصلوا إلى منازل جلاص فما وجدوا غير الغراب في الديار ينعق : الخلاص الخلاص، فاجتمع الآغتان ورؤوس القوم يدبّرون في أمرهم، فواحد يقول الرّجوع أحسن إلينا. وآخر يقول : تقدّم حتّى يرونا. واختلط أمرهم، فطلع النّهار فما شعروا إلاّ بالخيل صدمتهم من ناحية القيروان، فوقفوا ينظرون إليها، وإذا بكردوس الخيل الذي عن يمينها، وصار الآغتان وقومهم في الوسع، ودارت بهم الخيل من كلّ ناحية حتّى ظنّوها أنّها آلاف، وكان عصمان آغة الباجيّة راكب السّرحان[1]، فأطلق له العنان وتبعه خدّامه فلحقوهم الفرسان، فقلعوا بعضهم وانفلت منهم عصمان آغة، ومن نجا من الموت، وباقي القوم وآغة الكافيّة أحاطت بهم الخيل يقتلون وياسرون ويسلبون، فقتل آغة الكافية ومن معه من صبايحيّة الكافيّة، وأمّا الذي حصل وأسروه من صبايحيّة الباجيّة فلم يقتل منهم أحد. وأصل سبب حياتهم أن الباي حسين [لما] أخذ محلّة الفحص ثمّ رحل ونزل على تونس هرب إليه بعض النّاس، منهم رجل من كوارغليّة الباجيّة اسمه يونس بن مبزعية.

ولمّا هزم حسين قبلة تونس كما قدّمنا سار معه هذا الكورغلي وروّح معه إلى القيروان، وخدم الباي حسين وصار

(1) السرحان: الذئب.

الكورغليّ من خدام البيت، وعرفه الباي حسين وأصحابه، وكان رجلا ظريفا مقبولا في نفسه، فلما رأى نقصان الأمير حسين ندم حيث لا ينفعه النّدم، وبقي ملازما للباي حسين. ولمّا خرج الباي حسين في هذه الخطرة خرج معه، فلما رأته صبايحيّة الباجيّة تعلّقوا به ليمنعهم من [380] الموت فمنعهم وأدخلهم القيروان وصار ياتي إليهم بالطّعام لأمر ما، وتخيّل في نفسه أنه إذا وقع على الباي حسين وشدّوه وهو معه وكانت الصبّايحيّة حاضرة يشفعوه فيه عند يونس أو أبيه، وإذا رجعوا من القيروان وبلغوا إلى عصمان آغة يشكرونه عنده فيكون سببا في خلاصه، ولمّا رات صبايحيّة الباجيّة فعل يونس بن مبزعيّة معهم فهموا عليه أنّه أراد أن يتّخذ عندهم يدا فزادوا في كذبهم حتّى انّهم قالوا له : نتكلّم للباشا بما فعلت معنا ونجتمعوا كلّنا ونشكر ليونس والباشا هذا الرجل من أحبابكم وإن شاء اللّه ناخذ لك الامان من الباشا، ونرسلوا لك، والخايف يتعلّق بخيط العنكبوت، وبقي حاركا في أمرهم حتّى خرجوا من القيروان.

حكى بعض من حضر الوقعة قال : لمّا دارت الخيل بالخيل، وصرنا في وسطهم يفعلون بنا ما أرادوا وإذا بصوت نسمعه ولا نراه وهو يقول : أنا سحنون، أنا سحنون، هل تعرفوني؟ وقال بعضهم : لمّا حصلنا في وسط القوم رأيت طيور بيضا تدور على رؤوسنا قبل أن يقلعونا فعلمت أنهم أولياء وأنهم حضروا لنصرتهم علينا، ثمّ لمّا قتلوا ما قتلوا وأخذوا ما أخذوا رجع كلّ واحد إلى مكانه.

وفي تلك الأيام اجتمعت عند الباي حسين اشتاتا من كل صنف، وجلّهم زواوة قال بعضهم يزيدون على المايتين. وصار الباي حسين ما يخرج الا في وسطهم، وقيل عاهدهم أنّه إذا وقع عليه وحصروه ما يهرب عليهم، هكذا سمعنا واللّه أعلم.

ولمّا حضر وقت خروج محلّة الصيّف خرجت المحلّة وسافر بها يونس إلى باجة ودخل باردو باجة إلى أن تخلّص مجابي الرّعيّة وقمح الصّيفيّة، ووقف بفرسه على صيفيّة عمدون وهي قريبة الخلاص، فرأى جبلا من القمح فقال : هذه البلاد وهذا المدخول للسلّطنة وهي القايمة بالسلّطنة. فجدّ في نقل ذلك الازبال عن أبواب باجة وأسوارها وخصوصا في الزبلة التي ياتي عليها من باردو ويدخل [381] البلد اسمها زبّالة المعيز، وسرى في ذهنه أنّ هذه البلاد برعيّتها وجباليتها إذا نافقت على سلطان تونس فهي تكفيه وتقوم به. وزاده حرجا على ما تخيّل في صدره أن آغة البرج التركي وكان إذاك الباشا جعل نوبة من الترّك في باجة، بعد عام تبدل لمّا نزل من البرج وقصد يونس حين جاء يسلّم عليه، فلما قبّل يده أمره بالجلوس فحادثه ثم قال له : هل هذا البرج حصين مانع لم ينافق فيه؟ قال له : يا سيدي هو برج على الصّفا[1] لا يعمل فيه اللّغم شيئا ويمنع عشرة أنفس إذا حصروا فيه إلا أنه ضيّق ما يكفي عسكرا كثيرا. فزاد هذا الكلام حرجا ليونس.

(1) الصفا : الصخر.

ولما خرج الآغة من عنده بعث يونس لقايد البلد وهو إذّاك أحمد الغربي المقدّم الذكر، فلمّا حضر بين يديه قال له : ارجع إلى البلد وارفع معك أمين البنّاية، واطلع للبرج أنت وإيّاه، وانظر في البرج هل يمكن فيه زيادة وقصبات أخر للمدافع فرجع أحمد الغربي وبعث لأمين البنّاية فجاءه فطلع معه إلى البرج ولوّج فيه ونظر في أواخره فاتّفق نظرهما أنّه يقبل الزيادة من كلّ جهة وخصوصا من جهة البلد فإنّه يلصق تحته برجا آخر كبرجي الكاف، واحد فوق واحد.

ونزلا من البرج وسار القايد وأمين البنّاية إلى يونس وأخبراه بما اتّفقا عليه، فأمر القايد أن يحرك في الجير، وأخبره أمين البنّاية أن بالقرب ديار لهذا البرج الجديد فإذا دخلا في وسطه كان نهاية في الوسع فأمره يونس من الغد أن يبدا بالهدم إلى أن يحضر الجير، ففصلّ هذا البرج والقصبات الخارجة ولا غفلة عن أمري أو زهدة. وجاء القايد إلى يونس وأكّد عليه في نقل الازبال والبنيان في هذا البرج من كلّ جهة. وشرّق يونس بباجة «يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا»(1). ولما كانت باجة كثيرة الأوخام وأكل يونس من غلّتها، فلما جمع أمواله وقمحه وشعيره رحل إلى مستقرّ عزّه واجتمع بأبيه ومدح له وطن باجة وما فيه من [382] النفع وهي القايمة بالسلطنة، والباشا رجل مبروك، سيفه سابق غضبه، وقوله سابق فعله، فلمّا سمع هذا الكلام من ولده يونس بعث مملوكا من عنده لياقف على نقض الازبال [وبعث لأمين البناية العجل

(1) تضمين من القرآن من سورة النور الآية 39.

العجل في الهدم والبني، وقاست أهل باجة الشدايد في نقل هذه الأزبال] مدّة ثلاثة سنين إلى أن صار من وقف عند باب السّبعة يقابله باردو باجة، وتمكّنت الحمّى من يونس والأطبّاء يعالجون فيه بالمبرّدات، فال يونس عاما كاملا وتطير بوخم باجة، فصار إذا طلع إلى وطن باجة ينزل بمحلّته في موضع يقال له بلطة بينه وبين البلد ما يقرب من عشرين ميلاً، ووافقه هواء هذا المكان، حتّى انّ أباه الباشا علي لمّا شكر له هذا المكان ومدح له الماء الذي به وهو يجري من عين أمر الباشا ذلك الرّعيّة التي بقرب بلطة أن يرفعوا الحجر التي في مكان المحلّة ويطرحونه بعيدا من نزول المحلّة، وقاست في نقل الحجر من دار المحلّة النّاس الشدّائد، ثم أمر ببناء العين وسمّى ذلك المكان دار يونس.

ومكث يونس في باردو إلى أن حضر وقت خروج محلّة الشتّاء فأمر برمي محلّة كبيرة دورها ماية خباء عسكر، وحرّج [نفسه] من جاء طريقه في هذه المحلّة، وأمر يونس بتخريج المدافع الكبار وحرج نفسه وأمر أوجاق الصبايحيّة والمزارقيّة وجمع جموعا كثيرة ثم رحل من تونس يسير إلى أن نزل قريبا من القيروان فرأى أمرها قد شرف على الزّوال، وقلّت منها الرّجال، قيل بلغ نفاقها وحصرها أربع سنين، وهذه السّنة الخامسة، قالوا : ما كان رافع حملتها هذه المدّة إلاّ الشّيخ سيّدي سعد الهمامي، قالوا كان كل يوم يقف على رجل واحدة وينقزّ على رجل واحدة ويدور بالقيروان وقالوا : يقول : أنا سعد أنا سعد يا أمّاه.

ثمّ رحل يونس من تلك الدّار التي كان ينزل بها كلّ عام ونزل قبل جنان الأمان، قيل: قيل للباي حسين رحمه الله: أنت ترى ما حصل لنا ولك من عدم المال وقلّة الرّجال [383] وصرنا على جرف عال فاخرج بنا في اللّيل ونطلب أرض الله الواسعة ونرتاح من هذا الغصص، قال لهم: إني عاهدت الله أن لا نخرج من القيروان إلاّ أن يقصّوا راسي، أو من هنا نرجع إلى ملكي، ونجلس على الكرسي، فسكتوا ولم يردّوا عليه جوابا ولبسوا للبلاء جلبابا، وأيّسوا من أنفسهم وأيقنوا بقصّ رؤوسهم، وصاروا مرتقبين للموت.

ولمّا نزل هذه الدّار أمر أن يكتب من العسكر سردانا[1]، ووعدهم باللّسان إحسانا، فصار هذا السردان كلّ يوم يقرب من مدينة القيروان ويناوشوهم أهل القيروان من فوق السور بالرّصاص وضرب المدافع.

قيل في يوم من الأيام أخذ الشيخ سعد حاله ثمّ قال: الجمع بيني وبينكم يا أهل القيروان، الموقف بين يدي الملك الديّان! وخرج ينقزّ على رجل واحدة إلى أن قرب من العسكر وصار محاذيا لهم والعسكر يروغ عنه يمينا وشمالا فما شعروا به إلا وهو ممدود على الأرض فأسرع إليه بعض رجال العسكر فوجدوه ميّتا مضروبا برصاصة، فوصلوا الخبر إلى يونس فأمر بغسله وكفنه ودفنه.

وأيقن يونس أنّ مدينة القيروان بعد الشيّخ مأخوذة،

(1) السردان كلمة تركية: حافظ السر وتعني قائد الجيش.

وحين سمعت أهل القيروان قام فيهم الضّجيج والبكاء عليه، وعلموا أنّهم في شبكة الحصر، سوقة وحضر، ومن قوّة الحصر زاد الغلاء بها فمات من مات، وخرج من خرج، وربع الرّبيع ويونس معهم في القتال وصار الباي حسين يركب فرسه ويخرج وحده أو معه واحدا أو خادمه، يدور بسرح القيروان وهو تحت رمية المدفع من الصبّاح إلى اللّيل ويرجع وحده، قيل وأظنه مبالغة: إذا جاء أحد إلى دار الباي يسأل عن الباي حسين يقولون له جلاص: هو سارح، وقاسى من هذا الحصر الشدايد، وهربت عنه الأقارب والأباعد.

ولما مضى على عادة العسكر في السفّر ستةّ أشهر بعث يونس إلى أبيه علي أن يرسل إليه الخوجات الذين يقبضون للعسكر الراتب، ويبعث معهم عسكرا آخر الذي طريقه في المحلةّ القادمة، فإذا [وصلوا إلى] عندي أعطي راتب العسكر بين يديّ، فالقديم يرجع [384] إلى بلده والجديد يدخل محلتّه، فبعث إليه بالخوجات والعسكر الذي طريقه في المحلةّ القادمة، ووصلوا إلى محلةّ يونس ودخلوا الخوجات وطن يونس وفرشوا السفّرة، وحضر العسكر القديم والجديد قدّام الوطاق لينظر أهل القيروان إلى كثرة العسكر وأعطي الرّاتب لمن هو قايم بالمحلةّ ودخل العسكر الجديد المحلةّ وتعاوضوا ورجع لتونس العسكر القديم مع الخوجات.

ونزل يونس الحطّابيةّ قريب الشيّخ سحنون، وأمر السرّدان أن يمترزوا قرب سور القيروان فاتخذوا المتارز قرب

السوّر، ومن في القيروان يناوشوهم بالرّصاص مناوشة مسلّم وآيس، وبعث يونس إلى أبيه علي باشا أن يرسل إليه مدفعا كبيرا وطبجياً[1] كبيرا، راميا مصيبا، فلماّ وصل كتابه إلى أبيه أمر أن يختاروا مدفعا كبيرا وطبجياً راميا فحضرّوا المدافع قدّام القصبة، وركبوا على عجلته وأخرجوه، ومشى مع المدفع باش كرستي[2] وهو علي بن شك الباجي له معرفة تامة بتحريك الأثقال في السهّل والجبل، وساروا يحاولون في تكركير ذلك المدفع الرجال والجمال والأبغال والخيل إلى أن وصل إلى المحلةّ ذلك المدفع وركبوه على عجلته وأخذوا النيشان على قطعة من القصبة وصاروا يضربونها فتنهدم قطعة بعد قطعة، ثمّ تقدّم العسكر إلى أن وصل إلى سور القيروان متريز بعد متريز، ثمّ أخذوا يحفرون في ساس السوّر في الليّل فطاح ساس السوّر على خمس وثلاثين ما عاش إلا إثنان والباقون ماتوا تحت الردّم.

حدثّني بعض من حضر قال : لماّ حفروا اللغّم تحت السوّر وفرغوا من شغله أعطوه النّار فما ترى قطع السوّر إلاّ في الهواء، ودوي كدويّ الزلزلة والغبار غطىّ الأبصار، فما نسمع إلاّ الضجّيج والصيّاح والبكاء والغواث ونسمع يقولون الشفّاعة يا رسول اللّه، فإذا سمع هذا الكلام من في قلبه رقةّ ورجع إلى المحلةّ والعجب من قضاء اللّه وحكمه أنّ الباي حسين رحمه اللّه قاعد في داره مجتمعة عليه أصحابه وزواوته [385] وسور البلد قد وصل هدمه إلى الأرض وأهل القيروان

(1) الطبجي : هو المدفعي.
(2) باش كرستي : كذا.

كأنهّم واقفون في يوم العرض، وإذا انبرم الحكم الجاير، غاب سيدي عبد القادر[1]، ولا له رد في من سكن المقابر، وهذا ما قدرّه المتكبرّ، «قل اللّه مالك الملك تؤتي المُلك من تشاء وتنزع الملك ممنّ تشاء وتُعزُّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخيرُ إنكَ على كلّ شيء قدير»[2].

قيل ليلة ولد يونس للباشا علي جاء بعض الخدم وأخبر حسين بن علي بأن ابن أخيه علي باشا ازداد له ولد ذكر واستبشر الباي بهذا المولود فأعطى للمخبر بعض الدرّاهم لما بشرّه به. وأناخ يونس بعسكره وخيله وقومه ومن جاء بأسير من جِلاص سرّحه في مدفعه، ودامت محاربته لأهل القيروان، ولما طال الحال للوسالتيةّ فوردوا عليه رجلية وأمرهم أن يحاربوا أهل القيروان من الجهة الشرّقيةّ واشتدّ الحال، وذهبت عقول الرّجال، من شدةّ الجوع والخوف والحصر والقتال، ويونس محارب لمدينة القيروان شتاء وربيعا وصيفا وخريفا وشتاء، ولماّ دخل الربّيع ووصل إلى مارس وطاح الخص كما قال بعض أرباب الأحوال في بلد بنزرت لما انتقل الأمير حسين سامحه اللّه فإذا أخذه حاله يقول بصوت عالي، وهو يدور في الشوّارع : راسه يقص إذا طاح الخص، فإذا

(1) عبد القادر الكيلاني أو الجيلاني : ولد سنة 470هـ وتوفي سنة 561هـ صاحب الطريقة القادريةّ الصوفيةّ، صاحب آثار عديدة منها : «الغنية لطالبي طريق الحق عز وجلّ» و«فتوح الغيب» انظر عنه كتابنا : «الضوء المبين في التعريف بأولياء تونس الصالحين» ص 131 ـ 139.
(2) قرآن : آل عمران 26.

سمعه بعض النّاس ما يسير ذهنه إلاّ لعليّ باشا لأن أولّ حاله لم تثبت اوتاده، فما علمت النّاس السّامعون لهذا الكلام الأخير ذبح الأمير حسين وقصّ رأسه في مارس زمن الخص.

ثمّ لما رأى يونس أنّ القصبة قد انهدمت أمر الوسالتية أن يصدموا على مدينة القيروان من الباب الشرّقي، وأمر العسكر أن يصدم من الفلّة المهدودة من القصبة فأمست الناس على هَي، ونام الحي. ولمّا طلع النّهار وافق يوم الجمعة فصدم العسكر ومن معه من الرّجليّة على القصبة ودخلها فوجدها خالية ينعق فيها غرابها. وصوّبوا من القصبة ووصلوا إلى المر وناوشهم بعض زواوة ومن [386] أهلها حصر، وصدمت الوسالتية من الجهة الشرّقيّة وقاتلهم بعض أهل المدينة فلم ينفع فيهم شيئا. وأما المرّ فطاحت فيه أناس كثيرة.

[مقتل الباي حسين:]

ولمّا اشتدّ الحال ركب الباي حسين فرسه وتبعته زواوة يسير واحدة واحدة والمقاتلة في حربهم لاهية، فإذا تعدّى الباي حسين ومن معه على جماعة من العسكر صدّوا بوجوههم، ولم يقابلوه إلى أن خرج من باب القيروان، هو ومن معه من زواوة، وهو في وسطهم، واشتغلت النّاس بالنهب وجمع الأثاث والفضّة والذّهب ودخلت أهل القيروان زوايا المشايخ، وكثر في أسواقها وشوارعها النايخ.

وأمّا يونس فإنه واقف عند دار البارود، قيل لمّا خرج

الباي حسين من القيروان لحقه رجل يقال له ابن ملوكة من دريد يقوله له: أين تذهب وأين تمنع، وصار يدور به ويحصره ويقول له: كافاك اللّه بأفعالك وقد حبستني ظلما منك وعدوانا في سجنك! فعندما جاء الخبر إلى يونس بأنّ الباي حسين خرج من تلك النّاحية وها هو ساير وحده ما معه الا زواوة، فلمّا سمع ركّض فرسه وتبعه اغواته وحوانبه وخيله، فما زال يركض إلى أن قرب من الباي حسين، فلمّا رآه الباي حسين قادما عليه، وقد وصله ركّض فرسه فعثرت وطاحت إلى الأرض، وطاح الباي حسين لطياحها. فلمّا أراد أن يقوم وصله يونس وشدّه ثمّ أضجعه وجعل رجله على رأسه وذبحه.

وأما زواوة فإنّها التقفتها خيله وحوانبه فما نجا منهم أحد إلا من لم يحضر أجله، ولمّا ذبح يونس عمّه وجرى دمه، قيل لأبي حنيفة[1] رضي اللّه عنه: إن فلانا قال ما أحب أبا حنيفة، قال أبو حنيفة: وكيف يحبني وهو ليس بابن عمّي ولا جاري؟ فلمّا رأى يونس أن روح عمّه خرجت قال لعصمان آغة: قصّ راسه. فقال له عصمان آغة: ما أقص راسه ولو قصصت راسي. فأخذ محرمة ورجع وفرشها وقصّ راس عمّه وجعله فيها: وركب فرسه ورجع والراس في المحرمة [387] في يده، ودخل وسط العسكر وهو يقول: يا أولاد عمّي هذا راس العدو الذي أمره أهمّني قد تهنّيت أنا وارتحت وأنتم قد ارتحتم من السفّر والتّعب.

---

(1) أبو حنيفة: صاحب المذهب الحنفي هو ابو حنيفة النعمان ولد بالأنبار سنة 80هـ وتوفي سنة 150هـ، عرف بأنه إمام أهل الرأي، ولقب بالإمام الأعظم. انظر عنه كتابنا: الامام مالك ابن أنس وائمة السنة.

ورجع إلى المحلّة ودخل وطاقه والراس في يده وجلس على كرسيّه، وأمر الحوانب أن تركب فركبت وأعطاها الراس، وبه سارت على الخيل داخلون الليل، وسبقهم الخبر إلى باردو تونس على جناح طاير وشاشت[1] الناس واجتمعت في بطحاء القصبة لرؤية الراس، فوردت الخيل بهذا القايم المقايض الجزيل، ودخلوا باردو وشاوروا على راس عمّه فقال: ارفعوه إلى قبّة الرؤوس لتراه الناس، فرفعوه وحطّوه على أعلى القبّة وقال لسان الحال: إن رفعت أعلى القبة فأنت يا باشا يمدوك أسفل القبّة بعدما جاؤوا بك على عمد رافعتك بغلة والقوك مسجى فإن تفرّجت النّاس في راسي فكذلك فيك الفرجة، وتفرّجت الناس في الراس وعاينوه وبعد ساعة رفعوه وغيّبوه.

وأما يونس لمّا أمر الخيل برفع الراس أمر صاحب كرّيطة أن يمشي إلى جثّة الأمير حسين يرفعها ويوصلها إلى تونس، فربط صاحب الكريطة خيله وسار إلى جسد الأمير حسين رحمه الله ورفعه وسار إلى أن بلغ باردو وأخبر الباشا بجسد عمّه وما يفعل به، فقال: ارفعوه إلى تربته واجمعوا بين الجسد ورأسه، وادخلوه تربته وغسلوه وكفّنوه، وفي قبره خارج الشبّاك ادفنوه، فسار الكرارطي به إلى أن أدخله التربة الجديدة وحطّه ثمّ غسلوه وكفّنوه وبالتراب غطّوه، رحمه الله وأكرمه بالشّهادة وقال لروحه: يأيها الرّوح المرضيّة «فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي»[2].

(1) شاشت: من المثل الشّعبي: «قامت قيامتهم وشاشت نعامتهم» أي اضطرب أمرهم، واضطربت خواطرهم واحتاروا.

(2) تضمين من القرآن: الفجر، 29، 30: ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي ...

[عبث يونس بالقيروان:]

هذا وجميع الجيوش آخذ في النّهب والسلّب والحفر والتفتيش، ووقفت خواص الباي حسين أيديهم إلى التهلكة واستمطروا للتّسطير[1] وقطع الرّقبة ومسك منهم جماعة وبعثهم إلى أبيه علي باشا، كل واحد منهم مريض يتغاشى.

قيل بعث إلى أبيه عامر باي [388] وأحمد شلبي وولده علي وابن مريقة ومحمد رزة صاحب الطابع ومعهم آخر لم نسمعهم، ووصلوا بهم إلى تونس فخصّهم الباشا بأمر يونس وأما بقية الخواص فقيدّهم وجعلهم في خباء ساعة فساعة يخرج منهم إلى باش شاطر، ويسطرّوهم حتّى يسقطوا إلى الأرض في التّراب يغطّوهم وبعضهم أكلتهم الكلاب، واجتمع على بقيتهم الذياب، وما ترك في الخباء الا اثنين الكورغلي الباجي يونس بن مبزعيّة ومعه ولد خليل آغة، كما قيل: فقالوا الباي عفا عنهما. فمن الغد أمر بتسطيرهما وجاؤوا ليونس برجال كثيرة من أهل القيروان وعرّفوه بطرقهم عند الباي حسين هذا وكيل وهذا أمين وهذا حريص على النّفاق والعصيان، فأمر بهم إلى باش شاطر، وسطرّوهم ودمهم يتقاطر، وأمر يونس أن يخرج من مدينة القيروان ولا يبقى بها أنسيّة ولا إنسان، فأسرعت الخيل إلى الخروج فيتلقفوهم الوسالاتيّة وغيرهم فيسلبونهم ممّا عليهم من الحوايج، ولا اجتمعت أهل القيروان لصلاة الجمعة إلاّ في نجع دريد وثنيّة وسلات والمحلّة، ومسك

(1) تسطير: أي الضرب بالساطور والتقطيع قطعا.

يونس من هو متهوم بالمال، وطالبه وعذّبه وقطع لحمه فبعضهم مات تحت العذاب، وبعضهم طلّع له ما وراء تحت التراب، وغرنق عليهم الغراب تغرنيقا هذا فعلكم فلا تلوموا إلا أنفسكم «جزاء وفاقا»[1] وقد هرب من القيروان خياركم وقعد فيها أشراركم فعليكم قامت الساعة.

وأمر يونس من حضر بهدم سور القيروان، وأسكنها البوم والغربان، وعمّر جوانبها باليربوع والفيران، ولا بقي بالقيروان حسّ ولا حسيس، ولا أعلى ولا خسيس، إلا ما قيل عند أوقات الصلّوات يسمع فيها من يؤذن ولا يرون شخصه، وفزعت أهل جبل وسلات إلى مدينة القيروان بالحفير وهدم الطويل من الحيطان والقصير، والعجب من [389] مدينة القيروان كان على يد الأمير حسين إحياؤها[2] وعلى يديه كان خلاؤها وخرابها، والتفت يونس إلى تلك الرّعايا بالسجن والخطايا، ووافق هذا الأمر العظيم والبلاء الجسيم سنة ثلاثة وخمسين ومائة وألف [1153].

ثمّ رحل يونس وقصد تونس إلى أن دخل باردو وأسرعت إليه للتهنية جلّ الناس، عام وخاص، ومن وقت ذبح عمّه، وأسال على الأرض دمه، وسوست القلوب كأنّها اطلّعت على الغيوب، أنّ يونس يأخذه الصرّع[3] ويدهش ويغيب، ولا يفارقه الطبيب، ثمّ شاع هذا الأمر، وفي المملكة اشتهر، وتكلّموا به في

(1) تضمين من القرآن، النبأ، 26.

(2) في الأصل: إحيازها.

(3) في الأصل: السرع.

السرّ والجهر، وفرغت أيام التهنية وجلس في محكمته وترك الكلام والحركة في حق محمود ابن عمه ولم يعبأ به وتركه يتخبّط في خوفه، وبلغت من أهل سوسة القلوب الحناجر، وتمنّوا الموت وسكنوا المقابر.

[خبر محمد باي ومحمود باي:]

وكان محمد باي بن حسين باي رحمه الله آمين، لما صالح أهل مالطة وصارت المراكب بينهما غادية ورايحة بعث إلى سلطان مالطة أن يبعث إليه مركبا يعدّها لنفسه، وإذا استحقّ شيئا في برّ آخر يكون رايس المركب تحت سمعه وطاعته، وقيل المركب رايسها جنويز وقيل فرنسيس، فوردت المركب إلى مرست سوسة تارة يبعثها محمد باي بن حسين وتارة في المرسى محبوسة إلى أن قدّر الله بقتل الأمير حسين وخلاء القيروان وبلغ الخبر يوم الواقعة إلى محمود بن حسين باي رحمه الله، فصبر صبر الكرام والتهب صدره بكتم الوجع المضار، وإذّاك الحين محمد باي في مدينة الجزاير، والمركب المعدّة اتخذها محمود لنفسه ودايم راسيها حاضر، فعمل محمود بن الأمير حسين على الهروب في المركب فبعث إلى رايس المركب واتّفق هو وإيّاه على أمر مموّه أن يتنافس هو والنّاس بمحضر من النّاس ويرجع الرّايس إلى مركبه غضبانا عاملا على السفّر ما يبقى حينا، ولمّا اجتمع عند محمود باي في القصبة بعث الناس [390] صوب الرايس، من مركبه وطلع

إلى القصبة وجهه عابس، وكان عشيّة فدخل محمود [وتكلم معه إلى أن] غاصبه فحنق عليه محمود ونهره فحلف الرايس بالصلّيب أن لا بقى يقيم في هذه المرسى ويحلّ قلوعه، ويغيب وصوّب من عند محمود عاملا على السفّر ففشا هذا الخصام بين الناس واشتهر.

ثمّ إنّ محمود زاد على الناس جحودا أن بعث إلى جماعة من أعيان سوسة وقال لهم : أريد منكم هذه العشيّة أن تركبوا في فلوكة وتسيروا إلى هذا الرآيس وتسعوا بيني وبينه في المصالحة، فصوّبوا من عنده عشيّة وركبوا فلوكة ووصلوا إلى المركب واجتمعوا بالرآيس، وتكلّموا معه واعتذروا عن محمود باي فقال لهم الرايس : وحقّ مريم والمسيح، ما قلتم وبه اعتذرتم، لأجل جبر خاطري كلام مليح، وأنا بسبب قدومكم أجبر خاطركم وقد رضيت، وغدا أنزل من المركب ونجتمع عند محمود أنا وأنتم، فصوّبوا من المركب وركبوا الفلوكة إلى أن وصلوا سوسة وطلعوا إلى محمود، وأخبروه أنّهم أخذوا على الرآيس العهود، أنه لا يحلّ كتّانا على العمود، وعند الصبّاح نجتمع نحن والرآيس عندك. فشكرهم محمود وجلسوا عنده إلى أن أذّن المغرب وافترقوا، وستر الظلّام والطآلب فيه، عملا وجمع ما يعزّ عليه وأمر من يثق به إلى أن يرفعه وشعل شعلة مقابلة المركب وهي الأمارة بين الرآيس ومحمود.

فلما رآها الرآيس أمر بتنزيل الفلوكة وسارت إلى محل موعود فيه ووقفت، وصبر محمود حتى نامت النّاس، ونعس العسآس، وغابت الحرآس، وقال للخديم : الذي رفعته وصلّه

إلى الفلوكة وارجع إلي على عجل من باب غدر[1]، فوصل الخديم ذلك العزيز وبقيت الخدام راقدة فأيقض من أراد أن يسافر معه وأمره برفع المهم. وخرج محمود من هذا الباب وتبعه الأصحاب وترك ورقة مكتوب فيها : سلاّم على أهل سوسة، قد رحلت من بلدكم [391] المنحوسة، وأنتم ان سمعتم قولي فاعملوا بضرب مثلي : من طارت في أول مشوار وصلت حدّ المنع وتعيش، ومن قعدت في بقيع الدآر لا هي بالحياة ولا بالريش، وساق خدآمه قدآمه رافعين حوايجه إلى أن وصل الفلوكة وركب فيها ووصل [إلى] السفينة وطلع [ودخل] إلى القمرة وقال : أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأن محمدا عبده ورسوله، هذا فراق بيني وبينكم، ثم رفع الرآيس مخاطيفه وحلّ قلوعه وقال: بسم اللّه مجراها ومرساها إن ربّي لغفور رحيم[2]، ووافق الرّيح المركب وجرت جري اللاعب أياما وليالي في البحر الأخضر إلى أن كشفت مدينة الجزاير فدخلت المركب المرسى وأخذت منها الخبر العساكر فاسرعوا إلى محمد باي وأخبروه بقدوم محمود أخيه فسار إلى أن وصل إلى الشطّ والتقى بأخيه والدمع من عين كل واحد منهما ينط، وبالشّهيق كل واحد صدره يغط، وطلعا من الشط، وسارا إلى أن وصلا دار محمد باي فسأله عن كل شيء فأجابه عنه وما فرط.

وأما أهل سوسة لما طلع النهار وسرحت الأبصار، نظروا إلى المرسى، فلم يجدوا المركب في المرسى، فقالوا : الرايس

(1) هو أيضا اسم باب من أبواب تونس قديما وهو أحد أبواب القصبة قبالة زاوية عبد اللّه الشرّيف.
(2) ب : شكور.

هرب في الليل مغتاظا من محمود لأنّه أكثر عليه فاصعدوا إلى محمود واخبروه فصعدوا إلى القصبة وأمروا البواب بفتح الباب، ففتح لهم الباب، وهو ليس عنده علم بالذي غاب، فدخلوا وقالوا البعض من هو من الخدّام : خذ لنا الاذن من محمود، فطلع إلى محال وبيوت محمود المخصوصة به وبمنامه فلم يلق أحدا فرجع لمن هو واقف يريد الاجتماع بمحمود فأخبره باني طلعت إلى محلّ نومه وسرّه فما وجدت الا الجراري والجلود، ومحمود وخواصه ليس لهم وجود، وكأنّهم غابوا تحت اللّحود، وصرخ الصوّت في سوسة، محمود وأصحابه فقدوا فتيقّنوا أنه هرب إلى المركب في الليل وتركهم في الليل، وضاقت منهم النفوس من عقاب يونس، وصاروا هايمين، على تلك الأرواح عاملين، وقالوا : لا حول ولا قوّة إلا باللّه القويّ المتين، ووصل الخبر إلى الباشا علي وولده يونس [392] فاجتمع يونس بأبيه وصاروا هايمين على تلف الأرواح عاملين، وتخاوضا في الحديث وقالا : قد خلا الجوّ ولا بقي لنا شغبة وختلة الا مرسى تامكرت[1] وطبرقة فالرّاحة منهما [أولى] من القلعة الكبيرة وسوسة. فقال له أبوه : الباشا تغدّى بهما قبل العشاء، فإن حبلهما قد رشى، قبل وقت محلّة الصيّف فاركب وسر ولا تخاف، فإن أمرهما قد شرف على الاتلاف.

(1) تامكرت : محطة في ضفة البحر الأبيض شمال تونس، كان الفرنسيون يباشرون فيها التجارة منذ سنة 1666 م بمعاهدة تجارية بين فرنسا وتونس، كان ميناء تصدّر منه الحبوب إلى أوروبا، وقام علي باشا سنة 1741 م باسترجاعه إلى تونس، وتسمّى Cap negro

ذكر أسارى طبرقة وجلب نصارى تامكرت وهدم الجزيرتين وسدّ البحر وتعمير بالعسكر البرجين وما هو ملحوق بهما من الفتن

لمّا اتّفق يونس وأبوه علي على أخذ الجزيرتين، قال يونس لأبيه : كيف يكون أخذهما؟

قال الباشا : أنا أدبّر حربهما، فبعث إلى رايس غلياطة[1] من غلايطه فورد عليه فأمره أن يخرج مركبه ويهيّيه فإذا [فرغ] ياتيه فخرج من عنده واشتغل بالمركب وشؤونه وطلع إليه كل ما يحتاجه وأوقفه على مخاطفه، وطلع إلى الباشا علي وأخبره، قال له : خذ هذه التّسكرة واذهب بها إلى الديوان يعيّنوا معك عسكرا للقرصان، [فإذا اجتمع العسكر في المركب ولا بقي الا أن تذهب فارجع الي لآمرك بأمر أين تسافر إلى بعض الجزر فطلع إلى الديوان وأخبرهم بما كان وكانت الصفرة منصوبة للراتب فكل من أتى ياخذ راتبه، اختار الخوجة منهم أولاده حتى أكمل العدد وأمرهم ان يجهزوا أرواحهم للقرصان،] فجهّزوا أرواحهم

(1) غلياطة : انظر تعليق ص 156، رقم 2.

وقصدوا المركب وطلعوا إليه، فمشى الرآيس للباشا وأخبره بتمام شغل المركب، وطلع إليه عسكره فقال له الباشا : حل قلوعك وسافر إلى أن تدخل إلى جزيرة طبرقة وادخل مرساها وموّه على أهلها انك توقع في مقاذيفها، ومكّن العسكر في القرية يدخلها إلى أن ياتيك سيدك يونس جزيرة طبرقة فرمى مخاطيفه وطوى قلاعه واجتمعت عليه النّصارى وجاؤوه بعوايد البحر من البوشماط[1] وغيره من الزيت ولحم البقر وشردوا والتفتوا وتشوّفوا «كأنّهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة»[2].

فلما رآهم الرآيس على هذا الحال أخذ [393] يخيّط وينجّر ويرقع في الحبال، وأمر العسكر ودخل المساكن وتلذّذ بها واختلط بنسايها أمر ولده يونس أن يركب هو ومعه من أراد وأحبّ، واجتمعت الخيل وسار في الليل لأن الوقت لجا إلى الظلّ الظليل، وسار وأخذ طريقه على ماطر، وكلّما أتى على عرش ركبت معه المشايخ حتّى كثر عنده الخاطر إلى أن وصل قريب طبرقة فسمعت به نصارى طبرقة وبقدومه، فعلموا أن قريتهم قد تملكت، ونفوسهم قد هلكت، ولا قدروا أن يصنعوا أمرا لأجل تمكن العسكر براً وبحرا، فركب القسّيس الكبير والرّبان الصّغير وقبطان الجزيرة وأعيان الدشيرة ورفعوا معهم الانجيل وتلقّوا يونس بالتّبجيل فتبسّم في وجوههم ورحّب بهم وقال للنصارى : ارجعوا واجمعوا ما هو عزيز عليكم، وحطّوه في الكنيسيّة لأني أخاف عليكم أن ينهب أحد متاعكم وقال للقبطان : سر أنت معي. وقد أشار إلى بعض

(1) البشماط : خبز مبشمط، أي يعاد وضعه على نار لينة، ويبقى صالحا لمدة زمنية طويلة.
(2) قرآن : المدثر 50.

خواصه أن يسبق إلى البرج ويدخله هو وبعض أصحابه.

وركب يونس في ذلك الشرّكة من البحر ووصل إلى الجزيرة هو ومن معه فوجد العسكر متمكنّا من الشوارع وغيرها، وقصد البرج المنيع الرفيع العالي البنيان، المدعّم الأركان، فدخله يونس وصعد إلى أعلى بيت فيه ودخلها وجلس.

وأما النصارى لمّا لعب بعقولهم وجدّ عليهم قوله، كلّ من عنده شيء له قيمة ونفايس عزيزة أدخله إلى الكنيسيّة وقفلوا عليه واستحضروا لما يأمر به، فهم في هذا الحال اذ ورد عليهم محمد بن سلطانة [الباجي وهو إذاك خرندار فقال للنصارى : اعطوني مفاتيح الكنيسية، فجاؤوه بهم، وعلموا انهم مأسورون، ثم لما تمكن محمد بن سلطانة] من المفاتيح قال لمن حضر حوله : يا غمّة ففزع العسكر والقوم إلى ديار النصارى ونهبوا ما فيها.

ولمّا اشتغلوا بالنّهب أمر يونس وهو في البرج محمد بن سلطانة أن يدخل الكنيسيّة هو والحوانب ويخرجوا ذلك الصّنادق والرباعي[1] والأفنقة[2] وغيرهم الذين فيهم ذخاير النصارى، أن يكتبهم محمد بن سلطانة في زمام ويرفعوهم إلى الغلياطة، فجروهم إلى الغلياطة ولا تركوا بالكنيسيّة [394] شيئا، وبعث في الغلياطة كبير النصارى وسافرت إلى تونس وأخبر أباه علي باشا بما يقدم عليه وهو مقيّد بالزمام.

ولمّا فرغ من مكاسب النّصارى أم باحضار الخيل وركب الحوانب وأخرجوا من في طبرقة من بني آدم نساء وأولادا

(1) ج ربعة : صندوق صغير لحفظ الأوراق أو المصوغ.
(2) ج فنيق : كيس طويل من الجلد أو القماش تحفظ فيه النقود ويتحزم به في السفر او التنقل خوفا من السطو.

وشبانا وكهولا، وشيخ وعجوزا، وساروا بهم الكثير منهم على رجليه يسوقوهم الحوانب سوق الغنم حارسون لهم، وكان الوقت أول الصيف فما وصلوا بهم إلى باجة حتى مات بعضهم في الثنيّة من الحرّ، وأدخلوهم باردو بأجمعهم، وجعل قايد باجة وهو اذاك علي بن ساسي عليهم حارسا وعساسة وتفرج فيهم بعض أهل باجة وبعث اليهم القايد بالطعام والخبز صباحا ومساء إلى ان جاء امر يونس في توصيلهم الى تونس فرفعوهم الى تونس، ولما سمع الباشا بقدومهم وهو عالم بعددهم قال لأصحابه : اي دار في تونس ترفع هذه النصارى بأجمعهم] قالوا له : دار الحاج علي السبعي قايد الباي حسين رحمه الله ترفعهم وتكفيهم وهي إذ ذاك خالية من السكّان، وأولاد السبعي مع مخدومهم أبادهم الزّمان، فذرهم يأكلوا ويتمتّعوا ويلهيهم الأمل فسوف يعلمون، وقد علموا بأمر الباشا علي أن يدخلوهم إليها وأجرى عليهم الرزق من عنده في كلّ شهر، وارتاحوا من كلفة المعيشة وفرحوا واستطابوا تونس، وكان هذا الأسر أوله عليهم نقمة ثمّ رجع لهم رحمة.

قيل إنّ بهذه الدار سبعين بابا وهي بربط باب سويقة بناها الحاج علي السبعي وهو إذ ذاك قايد عند الباي حسين على البلاد القبلية قايدا وأخوه قايد في المنستير لما نافقت مع سوسة والقيروان، حدّثني بعض حجّاج باجة عليه حين أسروهم أهل المنستير لما دخلت المركب إلى مرساها عطلوها عن السفر لأن الحجّاج كلّها من تونس ومن باجة ومن غيرهما وبعثوا إلى محمد باي وهو بسوسة بخبر الحجاج والمركب فبعث إليهم وقال :

خذوا الرزق الذي فيها، واطلقوا الحجاج إلى بلادهم. فلما جاء الخبر للسبّعي قايد المنستير ركب في فلوكة وجاء إلى جزيرة صغيرة قرب المرسى، ونصب له خباء ونزل بها وأمر الحجّاج أن تنزل إلى ذلك الجزيرة، فنزلت واجتمعت في تلك الجزيرة.

قال الحاج : فلما رآها جعل يشهق ويبكي حتى علا صوته وهو يقول : لا حول ولا [395] قوّة إلاّ بالله، زوّار رسول الله، وحجّاج البيت ياسروهم ويأخذوا رزقهم، قال : فقعدنا في تلك الجزيرة وأمر السبّعي بتهبيط ما فيها من المتاع، وأحضرنا قدّامه فإذا حطّوا بين يديه مقطف أو غراير[1] قال للحجاج : لمن هذا؟ فيقول صاحبها : هي متاعي. فيقول له [السبعي] : أمارتك عليها؟ يقول له : كذا وكذا، فيكتبها في زمام وكذلك إذا وجد سلطاني يقول لصاحبه. كم عدده؟ فيقول له : كذا وكذا. فيكتبه في الزّمام إلى أن كتب بضايع الحجّاج.

ورجع إلى البلد وحارت الحجّاج في أمرها وكثر نحيبها وخوفها، فنحن في ذلك الحال وإذا بواحد من أصحابه قدم الينا في فلوكة وقال : البشارة يا حجّاج. الباي حسين لما سمع ما أداه هذا الفعل وقال : هذه حجّاج وما ذنبهم أطلقوهم وردّوا عليهم رزقهم ومتاعهم، ولا تأخذوا لهم شيئا، وبعد ساعة قدم إلينا السبّعي وأمر أصحابه أن يحطّوا بين يديه الذي خمّله، وهو يضحك مستبشر، وجعل الزّمام في يده ينادي كلّ أحد باسمه ويعطيه أمانته ولا يتركه يتحرك من بين يديه حتى يقول له : فقدّ بضاعتك، فيفقدّها فيقول له : ما نقص منها شيئا،

(1) غراير ج غرارة : هي وعاء من نسيج الوبر توضع فيه الحبوب.

فيقول له : الحمد لله ويضحك، فإذا أعطاه الرجل حاجة أو سلطاني فيحلف بالله أنه لا ياخذ منه شيئا ويقول : إنّما أريد منكم أن تدعوا لنا أن يخلصنا الله من هذه الوحلة ويستر حالنا قال : فيدعو له الحجّاج، فيقول هو : آمين.

ثمّ لمّا فرغ من الأماين جاؤونا أصحابه بالطعام فأكلنا وسرحنا، فمن الحجّاج من فارقنا وسافر إلى أهله في البرّ، ومنهم من ركب السفينة وسافر إلى أهله في البحر، [وسافرنا] ودخلنا سوسة وأقمنا بها وقابلنا محمد باي ولم يأخذ منّا شيئا، ثمّ سافرنا إلى تونس ووصلنا مرسة حلق الواد، وبلغ خبرنا لعلي باشا فلم يضر الرّايس ولا ضرّنا ولا عطّلنا على النزول والشّاهد في أولاد السبعي وفعلهم الخير، وأظنّ أنّ هذا السّبعي لمّا أخذ القيروان هرب بعياله وأولاده إلى طرابلس ومات بها والله أعلم بغيبه وأحكم.

[396] ولمّا استقرّت نصارى طبرقة بتونس واستانسوا بها وكثرت خدمتهم بتونس ومعيشتهم على خيرهم، وكان اختار من بناتهم الجميلات يونس وهو في طبرقة اثنين وحجبهم وبعثهم إلى داره بباردو، ولما رجع من طبرقة ودخل داره حاول واحدة منهم على الإسلام، فأسلمت بعد تهدّد وتخوّف فتزوّجها، قيل إنّ ولده اسماعيل هذا الحيّ اليوم وهو في قسنطينة، بعد هروبه من وسلات يأتي خبره إن شاء الله تعالى في موضعه.

ووقع الصلح بين علي باشا والجنويز، بعث الباشا إلى نصارى طبرقة وهم بتونس تحت ملكه إن أردتم أن تسافروا

إلى بلدكم جنوة فسافروا بها أنا سرّحتكم فسافروا أناس منهم إلى جنوة فلم يتركوهم أن يدخلوا جنوة وعيّنوا لهم جزيرة في البحر لا ماء ولا مرعى قريبة من جنوة، وأمروهم أن يبنوا في الجزيرة قرية ويسكنوها، فندموا النصارى على خروجهم من تونس، وسمعوا الذين لم يسافروا، بأنّ صاحب جنوة لم يتركهم يسكنوا المدينة وأمرهم أن يعمّروا جزيرة كذا، فلم يرضوا بذلك، ومكثوا بتونس تحت الأسر ومهما ظهرت في بناتهم بنت جميلة رفعها الباشا علي أو واحد من أولاده، وكذلك الذكور يرفعهم الباشا ويربيّهم مع المماليك الصغار والذي تظهر فيه نجابة من ذلك الأولاد أمره الباشا بالإسلام فيسلم ويقولها كرها فيوليه الباشا طريقا ويطهّره[1] في حينه ويسميّه مصطفى أو إسماعيل أو غيره.

قال إسماعيل آغا الباجيّة : والله هذا الدين ميشوم عليّ، قيل له : وكيف ذلك؟ قال : لأني ليلة أسلمت ماتت أمّه، ويأتي بقيّة خبرهم إن شاء الله تعالى في محلّه.

رجعنا إلى ما كنا بصدده :

ولما خرجت من طبرقة النّصارى وخلت، أمر يونس بهدم القرية، وعزّ عليه هدم البرج [397] أو علم أنّه لا يقدر عليه، عيّن له نوبة عسكر من تونس ثمّ فكّر في نفسه ونظر في أمره انّ هذا البرج داخل هذه الشركة من البحر، والجزيرة مقطوعة لا يومن على البرج ومن فيه من النّصارى فنظر قطع البحر على الشطّ

(1) أي يختنه.

وبه برج ضايع، فيه نوبة زواوة دايما من سابق الزمان، قيل وجدوا تاريخ طبرقة حين عمّرتها النّصارى، الجنويز إلى حين أخذها لأربعماية سنة وزيادة، وهي أقدم بعمارة النّصارى من دولة بني حفص[1] وقريب من برج زواوة محلّ مرتفع في ربوة مقابل لطبرقة فيه أثر بنيان يقال له : برج مولاي حميدة وأظنه حميدة الحفصي[2].

فلمّا قطع يونس إلى الشطّ ونظر إلى الرّبوة وذلك البنيان اقتضى نظره أن يبني برجا رفيعا منيعا ويجعل فيه نوبة من التّرك، فهذا البرج يمنع من أراد أن ياخذ الجزيرة والبرج الذي داخل الجزيرة يحمي هذا والخارج الجزيرة يحمي هذا، فأمر يونس من هو حاضر عنده أن يجلب الحجر ويحرق الجير وتركهم حاركين فيما أمروا، وركب وركبت خيله. وكان قبل ذلك وهو ببرج طبرقة بعث إلى بنزرت أن يرسلوا اليوم الفلاني إلى جزيرة تامكرت وهي للفرنصيص صلح مع المسلمين فيقدموا عليّ، وسار من طبرقة إلى جزيرة تامكرت، وهذه الجزيرة عمّرها سلطان الفرنصيص سابقا، ولم نعلم تاريخ العمارة وبنى بها برجا وبيوتا وغيرها للتّجارة من وطن افريقيّة يتّجرون في القمح والشعير والزّيت والشّمع والصّوف وجميع الحبوب، وجعل فيها قبطانا وترجمانا وكتّابا وعسّاسة [وخدامة] كلّهم من غير نساء، ما فيها إلاّ الرّجال فوصل إليه

(1) العهد الحفصي دام في تونس من سنة 600هـ إلى سنة 950هـ / 1204 ـ 1543م.

(2) حميدة الحفصي : هو محمد بن الحسن الحفصي، آخر ملوك الدولة الحفصية توفي سنة 1582م دخل الاسبان في عهده إلى تونس واحتلوها وخربوها.

يونس وليس لهم قدرة على قتاله فاستسلموا وعرضوه، ووصلت إليه المراكب من بنزرت فركّب ذلك الرجال النّصارى في الصّنادل[1] وبعثهم إلى دار القنصل الفرنصيص بتونس، واستحوذ يونس على جميع ما فيها من الأموال، وبعث أثقالها من مدافع وغيرها في الصّنادل إلى تونس وأقام هو [398] بأخبية عند الجزيرة لأنّها غير مقطوعة بل متّصلة بالبر، وفزعت إليه مشايخ نفزة ومقعد لأنهم قريبون منها بالطّعام والهدايا والخيل.

فلمّا طال عليه المقام بهذه الجزيرة أمر قايده ابراهيم بن ساسي أن يتخلّف بعده في الجزيرة ويهدم ذلك البنيان ولا يترك حيطا واقفا ولا بيتا ولا سقفا وكان هذا الأمر في سنة أربع وخمسين وماية والف [1154]، وركب وسار وأتى على عرش نفزة ومعه شيخه الشّيخ الضّيّف ومشايخ عمدون، وجاء على فطناسة ومعه جميع المشايخ، وسار إلى أن وصل باردو باجة ودخله هو ومن معه وأسرعت إليه النّاس بالطّعام وما يكفي من معه، وكان وهو ساير ومعه المشايخ قال لهم : يا مشايخ أحذركم من الباشا علي بالكم تمشوا اليه وتقابلوه فيربطكم. وانظر كيف يكون خلاصكم، وضحك معهم ضحك الأسد، ففرحوا وقبلّوا يده وساروا معه إلى أن دخلوا باردو وباتوا به، ومن الغد ارتاح يونس وجاءه الخبر من طبرقة بأنّ حجر طبرقة لم يتكوّن أن يكون جيرا، ومهما جمعناه ووقدنا عليه النّار طرشق[2] اطرافا وطار في الهواء، ولم يساعدنا منه شيء وأنت انظر.

(1) الصنادل : ج صندل، زورق.

(2) طرشق : انفجر وأحدث صوتا في الانفجار وتفرقع.

فلمّا علم هذا الخبر أمر أولاد بن ساسي أن يجمعوا الجيّارة ويعطوهم الدّراهم ويقصّوا الحجر ويحرقوه جيرا، فقال له ابن ساسي : فإذا حضر فكيف تصنع به ومن يرفعه إلى طبرقة؟ فقال له : أنا أرسل [اليه] الابل بحمولها من الحلفة ويرفعونه إلى طبرقة وإن لم تحضر الجير هرّسناك[1] في مهراس حديد، فطلع من عنده ابن ساسي وجمع الجيّارة وأعطاهم المال وأمرهم بالتّعجيل، ويونس لمّا طاح اللّيل وفقد جميع المشايخ الجباليّة وهو يعرفهم واحدا واحدا والمقصود[1] منهم الشيخ الضيّف شيخ نفزة لأجل عملته مع علي شعيّب. فلمّا رآهم كلهم مجتمعين في باردو عندهم الكسكس واللّحم متاع الباجيّة، فعندها أمر بقفل أبواب باردو عند المغرب، وأمر بمسك ذلك المشايخ [399] بأجمعهم وحطّهم في الحديد. وطال عليّ الحال ونسيت هل سجنهم في سجن باجة الصبح أو رفعهم معه إلى تونس.

ولمّا طلع النّهار وركب وسار إلى أن دخل باردو تونس وسلّم على أبيه ورجع إلى داره وجلس على كرسيّه أمر بعض حوانبه أن يطلع إلى تونس ويأتيه بأمين البنّاية، فجاءه به وقابله، فقال له يونس : امضي إلى طبرقة وارفع معك البنّايين أصحاب معرفة يحفرون أساسه كذا وكذا من ذراع من كلّ جهة، فركب أمين البنّاية ورفع معه المعلّمين وسار إلى أن وصل طبرقة ونظر في موضع البرج وفصلّه وفرغ من تدبيره

(1) ب : أهرسوك.
(2) في الأصل المعضود.

وترك المعلّمين والخدمة يحفرون ساسه، ورجع إلى يونس وأخبره فبعث إليه المماليك ومعهم آلات الحفر والتكسير. ووصلت المماليك وهرعت إليه النّاس لأجل الخدمة وحضر الجير فبعث إبراهيم بن ساسي يخبره بحضور الجير، وكان قضى اللّه على الابل بالوبا والطاعون فبعث يونس الابل بأحمالها من الحلفة ووصلت إلى باجة وعمّروا ذلك الأحمال بالجير الغير المحلول ويرفعونها على الإبل وساقوها إلى طبرقة، فإذا جهد البعير وعرق وكثر عرقه دخل في ذلك الحلفة وسرى ذلك العرق في الجير فينتفخ ويطرشق ويصعد دخانه. فإذا سمعت الإبل ذلك الصوت والدّخان فوق ظهرها هجت وبرطعت ورغت وقامت أذنابها فما يقدر أحد على مسكها وردّها، فترمي ذلك الحمول من فوق ظهرها فما يمسكون الابل الا بمشقّة ويرفعون عليها الباقي من الجير في الحمل فيلصق بجنبها فتدمى اجنابها وتموت.

وجاء وقت الصيف وطلع يونس بالمحلّة على عادته ونزل دار بلطة، وهو يامر برفع الجير من باجة، تموت إبل يأتي بأخرى وهلمّ جراً، وفسدّ خزاين من المال في موت الإبل وبنى ذلك البرج وما وقفت حيطانه إلا بعد فراغ خزاين من المال. وما ثمّ البرج الا بعد عامين أو ثلاثة، ولمّا ثقل على يونس والباشا الحمل في رفع الجير من باجة وخسروا على توصيله [400] أموالا بطلوا حرق الجير في باجة وبعثوا إلى بنزرت أن يحرقوا الجير ويرسلونها إلى طبرقة في الصنادل فصار الجير

يرفعونه إلى طبرقة في الصنادل، ولمّا عيّن نوبة لبرج طبرقة الكبير ووصلوه ودخلوا عليه حبستهم الشركة في جزيرة طبرقة، وصاروا محبوسين فيها لا يخرجون لأحد، ولا يدخل إليهم أحد، بعثوا إلى الباشا وكان بعوثهم قبل تمام البرج الجديد، واعتذروا له بأنا لو دخلت إلينا فرقاطة لأسرتْنا ولا يصل إلينا أحد ينجدنا، فبعث الباشا علي أمره أن يقيسوا له عرض هذه الشركة، فقاسوها له كم من ماية ذراع وكتب أمرا للمعلمين الذين يبنون في البرج هل يمكن سدّ هذه الشركة من البحر، فنظروا فيها فرأوها جاءت قبلة الجزيرة، ويمكن سدمها، فبعثوا إليه وأخبروه بإمكان سدمها، فكتب أوامره إلى قايد ماطر، وإلى علي بن سعيد شيخ الغرابة، وإلى قايد باجة، وأمرهم أن يخبروا الرعية من مشى إلى طبرقة وخدم في سدم هذه الشركة فقد طيّحت عنه مجبا هذه السنة.

فوصل الخبر إلى الرعيّة ففزعت ومعهم القياد وعلي بن سعيد وغرابته ووصلوا إلى طبرقة وجعلوا يأخذون البنيان المهدوم، ويرمونه في البحر ويرمون فيه حجارة القرية وأرمالها ويطرحونها في ذلك الشركة، فتعيا أناس فتاتي أناس أخر وهلمّ جرا، وأمر الباشا يقدم إليهم بالتّحريض والتّهديد وهم في العمل مدة أكثر من عام، وهم يعالجون فيها إلى أن سدموها وصار الرجل يمشي فوقها إلى أن يصل إلى برج طبرقة ودخلت إليها الناس وخرجت منها.

فلما راوا أن الشركة قد انسدمت بعثوا إلى الباشا

يخبرونه بسدمها فأمرهم بالرواح منها، وتعجّبت الناس في هذا الرجل، والمرجان، وهو شيء كثير عوايد كل سنة يأخذونها سلاطين تونس من نصارى طبرقة وتامكرت، وقدم على زوج نوب في كل برج نوبة، وما يلزمه من رواتب ذلك [العسكر] ومؤنتهم وما يحتاجونه من غنم وسمن وقمح، أموال لا تحصى يخرجها من خزانته كل ستة أشهر.

ومع هذا ان خوف هاذين [401] الجزيرتين مامون من جهة النّصارى وهما بعيدان من العمارة وأيضا كانت رعيّته وجباليته ينتفعون بهذين الجزيرتين غاية الانتفاع وأكثر هذين الجزيرتين لأهل باجة [وعملها].

قيل قال الشيخ الصّمّادحي : طبرقة أخذت، وباجة خلت، وأعمالها هلكت، وكلّ الأمر كما قال والفضةّ كانت الأوقيّة بريال ونصف في مملكة تونس لما يدخلها من الريّال الصّحيح ولا بقي له أثر فصارت أوقيّة الفضةّ بأربعة ريالات، وكذلك الذّهب غلا وانقطع.

ومجاور لهذه الجزيرة التي هي طبرقة عرش ماكنة وعرش خمير ونهد ووشتاتة وجميع بيعهم وشرايهم وخلاصهم من المجبا وغيره كلّه من طبرقة، وإذا احتاجوا رهنوا أولادهم عند النّصارى، فلما أخذت الجزيرتان انقطع عنهم ذلك المعهود، واحتاجوا غاية الاحتياج وصاروا يسافرون لمرست الخرز ويبيعون ويشترون، وهي بعيدة عنهم فضجّوا وأغروا النصارى الفرنسيس لأنّ مرست الخرز

السّاكنون بها من الفرنصيص الصلح، وهي في حكم الجزاير من عمالتها، وكان المقدّر لمّا أخذ يونس نصارى تامكرت ووصلهم إلى قنصرهم بتونس وأخذ ما فيها من المتاع، بعث قنصل الفرنصيص إلى سلطان الفرنصيص يخبره بما فعل معهم سلطان تونس وهو قد أبطل الصلح معكم.

فلمّا وصل الخبر إلى سلطان الفرنصيص بعث لمدينة مرسى مراكبه واسمها مرسيليّة أن يعمّروا ستّة مراكب قرصان وهي مراكب كبار يقال لهم مراكب الغيرة، ومعناه مراكب القتال، وأن يسافروا إلى مرسى تونس ويرسوا فيها ولا يتركون شيئا من المراكب القاصدين إلى تونس يدخلونها والخارج من مراكبها يأخذونه.

فلما سمع القنصل الفرنصيص الذي في تونس بأن المراكب قادمة إلى تونس، خاف على نفسه من الموت فتنكّر في قيافته وخرج من داره مع أبناء عمّه طالبا النّجاة، ووصل المركب وسافر إلى طرابلس وتمنّع بها خايفا من الباشا ويونس، وبلغ خبره إلى الباشا علي فتلهّف عليه، وقلبه من منعته يغلي، ووصل مراكب الغيرة للباشا علي [402] فاستهون أمرهم وقال : ما عسى أن يجيء منهم، ووصلت المراكب إلى رأس دار ورست، والدّاخل والخارج منعت، ولمّا كان سعد الباشا علي في زيادته، فإذا تمنّى الباشا شيئا حصل في يده، وقد سبقنا أنه أمر ببناء البرج الجديد الذي بطبرقة، وفزع النّاس إليه من كلّ ناحية وبعث جعفر كاهية أكبر مماليك والده محمد باي، سامحه اللّه، فبعثه ناظرا لهذا البرج، وبعث الباشا

علي لباجة لقايدها أن يبعث شاهدين عدليين حاسبين ليضبط ما يصرف من الجزيرتان، ضاق حالهم وصعبت معيشتهم، صاروا يقصدون مرسة الخرز ويجلسون مع قبطانها ويتحدّثون في أمر طبرقة، ويتلهّفون على من يأتيها من يأخذها من النّصارى، والنّصارى من البحر ونحن الجباليّة من البرّ، ويهوّنون أمر النوبة التي ببرج طبرقة، وامنهم في هذا الصّيف كلّهم مرضى، وما يصلون في العدد إلى الماية لو صدم عليهم مقدار ماية رجل لأخذوهم وأسروهم، ففتح قبطان مرسى الخرز عينه وأنصت أذنه وطمع عقله فبعث إلى القبطان الكبير الذي في السّفاين التي حاضرة تونس وأخبره بالنوبة التي في طبرقة وضعفها، ولو قدم إلى برج طبرقة ماية رجل وعليهم رايس لملكوا البرج وأسروا النّوبة من الترّك، وأنّ الجبالية كلّهم يقابلون مع القادم إلى الجزيرة.

فلمّا قدم هذا الخبر إلى قبطان النصارى طمع في غير مطموع، وجدّ عليه هذا الهلوع، فقال : عمله بعملة الباشا أخذ النصارى ونحن ناخذ تلك النّوبة، وكان معه ولده في سنّ الشبّاب وقوّته، ونار طبعه شاعلة في جسده، فلمّا جلس هو وأبوه القبطان، أخبره بمكاتيب صاحب مرسى المرجان، وأطلعه على ما في المكاتيب، وما فيها من الأكاذيب، فقال الشّاب : وحقّ الصّليب لأسافر إلى هذا المرسى وأسمع هذا الكلام بأذني، وأرى بعيني، ان رأيت هذا كلّه حقّاً، فأنا أغزو بيدي، ومعي جندي، وآخذ هذه الجزيرة وأملك من فيها، ونوهن سلطان تونس بهذه المكيدة.

وجهّز [403] روحه، وركب صندلا كبيرا هو وخدامه وأصحابه، وسافر في البحر قاصدا مرسة الخرز[1]، فوصل إليها فعرضه قبطان المرسى وأتاه بمركوب ركب عليه ودخل [إلى] قرية مرسى الخرز، وبايعوه أهلها [وكبر عندهم مجيء ولد الري الكبير، وفزعوا اليه كبير وحقير، وسمعت بقدومه خمير ونهد وغيرهم فاجتمعوا وقدموا إليه،] ففرح بقدومهم وأكرمهم وسألهم عن العسكر الذي في برج طبرقة، فأخبروه بأن كثيرهم مرضى وأمّا الذين يبنون في البرج فأكثرهم خدمة، وهوّنوا عليه أخذ الجزيرة ومن فيها، وإذا ملك البرج وطلع إليه هرب كل من في البر، فجدّ عليه هذه الأكاذيب، وظنّ أمره يصيب، فأمر الصندل الذي في مرسى الخرز أن يمشوا معه، وجمع مقدار مايتي نصراني أو أكثر واعطاهم خبزا وعراقي[2] لمدّة ثلاثة أيام، وأخرج فراقط وعمّرهم بالبارود والمكاحل وما يستحقون، ولمّا فرغ من شغله ركب الفراقط هو وجنده وقصد طبرقة فوصلها ربع الليل أو نصف الليل، فهبط إلى شطّ الجزيرة هو وجيشه، وكانت النّوبة مقسومة منها في البرج ومنها في الجزيرة وباب البرج مقفول حايل بين من في البرج وبين من هو في خراب الجزيرة، وعسكر الجزيرة فيه من رقد وأخذه النّوم والباقي فاطن، فطلع القبطان وتبعه جنده وتقدّمت قدّامه نصارته، وصدموا على من في خراب **الجزيرة فقام من كان** راقدا واجتمعوا **وصاروا يدافعون عن أنفسهم وجاءت**

1) مرسى الخرز : هي قالة، انظر الترجمة الفرنسية ص 205، التعليق رقم 2.
2) العرق : نوع من الخمور، مسكر جداً.

النّصارى بسلالم من الحبال وأرادوا أن يصعدوا فيها إلى البرج فمنعوهم بضرب الرّصاص فرجعوا وصاروا يقاتلون في العسكر، وقام البارود من البرج وضرب الرّصاص، ولم يفتحوا باب البرج، وإنّما يضربون في اللّيل فضرّ الرّصاص من النّصارى كثيرا فصاروا يهربون من قبالة البرج ويقاتلون في العسكر الأسفل، وهذا الولد القبطان ينده في النّصارى، ويأمرهم أن يصعدوا إلى البرج فيرجعون إلى البرج، ويريدون الصعود إليه فيمنعهم العسكر بضرب الرّصاص فيرجعون.

وأمّا التي في الشطّ الآخر جعفر كاهية ومن معه وهم كثيرون فمنهم من هرب، وركب جعفر وركب من معه وصاروا في اللّيل [404] يتسمّعون لما يوقع في الجزيرة، ولا قدر أحد أن يقطع إليهم إلى أن بان الفجر وانفرق المسلم من الكافر وصار من في البرج يضربون النّصارى بالرّصاص فيهربون يمينا وشمالا.

ولما رأى آغة البرج الفراقط في المرسى ضربهم بالكور في وسطهم، فهرب أهل الفراقط ودخلوا البحر وتركوا القبطان ومن معه في الجزيرة، فلمّا رآهم القبطان هربوا ووهنوا خاف والتجى إلى حايط عالي وجلس فوقه هو وكاتبه ووصيفه، **وجعل يضرب في من قابله بالرّصاص، وطلع النّهار وأمر آغة البرج العسكر إذا حلّ باب البرج أن يصدموا على النّصارى صدمة واحدة، فلمّا حلّ لهم البرج خرجوا من بابه بأجمعهم،** وصدموا على النّصارى فغلبوهم، **فعيّطوا النّاس من النّصارى** بالأمان، والقوا مكاحلهم في الأرض وسلاحهم، **فقدم عليهم** العسكر فشدّوهم وسلبوهم وأخذوا لباسهم وأسلحتهم.

وأمّا أهل الشطّ جعفر ومن معه لمّا رأوا الغلبة للعسكر وأنّهم يأسرون ويقتلون فزعوا إليهم، فلمّا وصلوهم ما تركوا أحدا يسلب معهم، وسبّوهم ووبّخوهم. إمّا قبل هربتم وإمّا بعد فزعتم، ارجعوا إلى حيث كنتم لا بارك الله فيكم.

وقدم العسكر على القبطان فأنزلوه من ذلك المكان، وأعطوه الأمان، قيل إنّه مجروح، وفي الحين ركب بعض مشايخ ماكنة فرسه، وصار يركضه ليلا ونهارا إلى أن دخل باجة، فأمر القايد فأعطاه فرسا آخر ركبه ولم يخبره بما عنده، وتشوّفت الناس إلى هذا الراكض وقصده الباشا فبعد ساعة جاء الخبر إلى باجة بأخذ النّصارى، وأمّا شيخ ماكنة، قدم على الباشا وبشّره فأعطاه بشارته وكتب له أوامر وأمره أن يوصلهم إلى آغة البرج وإلى جعفر كاهية، وشكر الباشا العسكر والآغة وأمرهم أن يرفعوا النّصارى بأجمعهم إلى جعفر كاهية، وبعث إلى العسكر الاحسان، وأمر جعفر [405] كاهية أن يبعث إليه النّصارى، ويقدمهم على خيل الرّعيّة ويقصدون بهم باجة، فوصل شيخ ماكنة وأعطاهم الأوامر وعملوا بما فيهم.

ولمّا رأت سفهاء العسكر في النّصارى بعض شبّان مردان، صاروا يفعلون فيهم الفواحش فيقول النّصراني بلسانه الرّومي : كيسة جانصة (؟) يقول له العسكر : جانصة بربريّة، والمراد ببربريّة تونس، وهو اسمها عند النّصارى، فيقول النّصراني : ديابل، وهو عندهم الشّيطان على بربريّة، وفعلوا بهم العجايب.

ولمّا وصلهم أمر الباشا دفعوهم إلى جعفر كاهية، [وأخرج جعفر كاهية] القبطان، وجابره وأخذ بخاطره، وأحضرت البرادع وجعلوا كالمحفّة للقبطان لأنّه مجروح وسارت بهم الخيل إلى أن وصلوهم إلى باجة وعدوهّم على القايد، ورجعت الخيل، وأمر القايد أن يحبسوهم في قصبة باجة، فدخلوا بهم وسط باجة وتفرّجت عليهم الناس واستهزؤا بهم وضحكوا عليهم فما يقولون كلمة واحدة وأحضر لهم القايد البرادع وبعثهم إلى الباشا علي فوصلوا إليه.

ولمّا سمع النّصراني القبطان الذي في مرسى الخرز وقدمت عليه الفراقط وأخبروه بأنّهم تركوا إخوانهم ساكتا وعايطا : ولما خفنا من الغرق، هربنا وتركناهم في شدّة وقلق، فما وسع القبطان مكان، وصار كأنّه مالكه الجان، وخاف خوفا شديدا من القبطان الكبير أبو الولد فعيّن فرقاطة وكتب إليه واعتذر، وقال : هذا أمر مقدّر، وولدك ما عليه باس ولا ضرر، وسافرت الفرقاطة إلى أن وصلت إلى المركب، وأخبروا والده بأنّ التّرك أسروا ولده، فبعث إلى قنصل الانقليز يستخبره عن ولده، فأخبره أنّ ولده وصل إلى سلطان تونس وأكرمه وجعله في مكان، وهو عنده عزيز فبعث إليه ثانيا وأمره أن يوصل المكاتيب إلى ولده ويردّ إليه الجواب، فإذا وصلك الكتاب فارسله [406] إليّ على عجل، فبعث الكتاب إلى الولد وهو بباردو، فلما قراه كتب إلى أبيه، وقال [له] : ما فعل معي سلطان تونس إلاّ الإحسان والإكرام والضّيافة والجمع بالاخوان.

وكان الباشا جعل مع الولد فعله لأجل أن يكون الولد سببا في الصلح، فلمّا بلغ كتابه إلى أبيه ارتاح ممّا كان فيه، ومال قلبه إلى الصلح لأجل ولده، فكتب لعليّ باشا في أمر الصلح بشرط أن يسرّح إليه ولده ومن معه من نصارى الفرنصيص، ووصل الكتاب إلى علي باشا، فلما قراه استبشر وجهه، وبلغ مراده وبعث إلى الكولير[1] صاحب السفاين، وتردّدت [بينهم] الرّسل وحضرت القناصل عند الباشا علي، انقليز وفالمنيق[2] وغيرهم وعقدوا الصلح بينهم، واطلق الباشا ولده والنّصارى الذين معه.

ولمّا وصل الولد إلى والده هو وأبناء عمّه أقلع مراكبه وأخذ في البحر طريقه قاصدا بلاده إلى أن بلغه، وبما وقع أخبر سلطانه وجدّد الصلح من عند سلطانه، وبعث إلى تونس قنصل، وورد بهديته، ولمّا بلغت الباشا علي استعمل في هديّة وعيّن رسلا من أكابر العسكر فرفعوها وركبوا البحر وقصدوا مدينة سلطان الفرنصيص وهي في البرّ، فنزلوا في مرسيليّة وسافروا في البرّ إلى أن وصلوها، وقابلوا سلطان الفرنصيص ودفعوا إليه الهديّة، وهي محتوية على كلّ شيء نفيس، ومكثوا بمدينة السلطان أيّاما، وأكرم السلطان نزلهم سفرا ومقاما إلى أن رجعوا إلى بلادهم واجتمعوا بأهلهم وعيالهم، هذا ما سمعنا كتبنا، وما رأينا رقمنا، والله أعلم بالصوّاب.

(1) الكولير: دخيل من الايطالية Cavaliere، السيّد المنتمي إلى النبلاء قديما.
(2) Flammand من مقاطعتي فلاندر الفرنسية والبلجيكيّة على بحر الشمال.

ذكر خدمة سوسة والقلعة والمهدية وما جرى بالكوارغليّة

قد قدّمنا خبر محمود وخلاصه من سوسة، قال المخبر: وكان ذلك الوقت يونس غايبا في محلّة الصيف بوطن باجة، [407] مشتغلا في كلّ حاجة، فلمّا قضى اشغاله وخلّصت رعيّته، سهله وجبله، وخلّص قمحه وشعيره، وامتلات غرايره فرفعتها إبله، ورحل قاصدا بلده إلى أن وصل إلى مقر عزه فجلس على كرسيه يحكم فلا يردّ له حكم، عزيزا على الوالد والأم، وقد تهنّا من العم، وابن العم، خلا لك الجوّ فبيضي واصفري ونقّري ما شئت أن تنقّري[1]، راكب الحصان، مقبل عليه الزّمان، سالم من النّحوس، إذا أقبل من محلّة سلمت عليه مخدرات[2] تونس، كاشفات الوجوه بمشامم وحرقوص، كأن الواحدة منهن مهديّة إلى عروس، فمن نظر إليها وأعجبته ضاحكها وضاحكته، ولاعبها ولاعبته، ومن أمرها بخلع ثيابها خلعته، ثمّ تودّعه وطلعت إلى زوجها طلّقته مدّة أيّام الضيافة.

(1) مثل من شعر لطرفة بن العبد، قالها لقنابر تلتقط حبا كان القاه لهن ليصيدهن، فلما أعياه الانتظار انتزع الفخ وذهب، ولما رجع رأى القنابر مقبلة على الحب فتأسف وقال ذلك البيت.
(2) أي حسان تونس.

ثمّ يشتغل يونس بأمر الرّياسة إلى أن جاء وقت الخريف فأمر برمي الكتّان وحضور الفرسان ودارت المحلّة بالفسقية، ودخلها العسكر ورمت على الجمال الحويّة[1]، وخرج يونس ودخل المحلّة، ومن الغد رحل قاصدا سوسة، وسار إلى أن نزل عليها، فخرج إليه كبيرها وصغيرها، وقبلّوا يده، وبالخير دعوا له، ودخلت سوسة بأمره أصحابه، وفي المحلّة عسكره، فخرج من وطاقه أمره، ينادي : يا كوارغليّة البليدات ما عدا بنزرت والحمامات وغار الملح أن يخرجوا من المحلّة ويسافروا إلى بلادهم ولا يبقى أحد منهم في الأخبية كبيرهم وصغيرهم، فارجعوا إلى بلادكم لا حاجة لي بكم، فنهضت أولاد القرى ولبسوا سلاحهم وقد حصل في قلوبهم الدّمار، وساروا وقصدوا الديّار، لا بارك اللّه في أولاد القرى يقرب ما خرج من المحلّة ستماية أو سبعماية لو قاتلوا ما بقي في المحلّة، وصدموا على يونس لأثروا فيه وفي أصحابه فإن غلبوا أفدوا النقمة، وان غُلبوا ماتوا كراما أعزة، ولكن كما كانت الأعراب في ضرب أمثالها الخارج عن اللغة العربية قالت : لا يتخذ من الغيطوط[2] ترس يلمع ولا من البهمة[3] رماح طوال، ولا في أولاد الكويات[4] من ينفع ولا من أولاد الرعيّة رجال، فما قدروا أولاد الكويات، الا على المسير إلى [408] كوياتهم

(1) الحوية : كساء يحشى بهشيم النبات ويوضع حول سنام البعير.

(2) الغيطوط وهو خيط القنب : أي جنينة القنب والقنب نوع من الكتان يفتل من لحائه الحبال وخيطان القنب. وفي ب : الكيكوط.

(3) البهمة : والبُهمى نبات يشبه الشعير الا أنه أصغر منه ورقا وادق واقصر ساقا.

(4) الكوية : من الكوة : الخرق في الحائط وتستعار للمزارع.

جماعات بعد جماعات، إلى أن دخلوا على الأباء والأمّهات، وجلسوا في ديارهم، الذلّ كاسيهم، والعدوّ شامت فيهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وجمد البحر ومراكبه تعطلّت، كما قال القايل، فما يقوم على الذلّ غير الحمار والوتد، فهذا مربوط على التبن برمته، وهذا مخدوش الراس لا يرثي له أحد قد صبر، ونوايب الزمان وفراق الاخوان طالما أكلوا وتمتعوا والرّواتب الكثيرة ملكوا وتفرعنوا، وبالفساد في الأرض سعوا، «حتّى إذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون»[1].

واشتغل يونس برمي المال، على النساء والرجال، وبعث حوانبه إلى المهدية ومسكوا من فيها من الكوارغليّة وصادروهم بالمال شيئا فشيئا إلى أن فنيت أموالهم، فباعوا أملاكهم فزادوهم، فباعوا عزيزهم ووقفت أيديهم ومات بضرب العصا أكثرهم، ومنهم من هرب وخلت ديارهم، وخرجت أولادهم تشحت[2] في خدامهم، ومن كان في حمايتهم، ويونس لم يرفع عنهم قتالا إلى أن هلكوا بأجمعهم، أولادهم وبناتهم على رعاتهم عيالا وخلت منهم الديار وتفرقوا في القفار، وأما أهل القلعة الكبيرة فمسك شيخهم الحاج حسين ووصل إلى بين يدي الباشا علي فعذّبه وقتله. ورمى يونس على القلعة الأموال فدفعوا إليه، ما قدروا عليه، ولم يبق بأيديهم ما يعز عليهم وقالوا : نحن رعيّة، فعقابنا خطيّة، فأمرهم يونس أن يخرجوا

(1) قرآن : من سورة الانعام، الآية 44.

(2) تشحت : تستجدي.

من القرية ويهدموها ولا بقي أحد يسكنها، فامتثلوا أمره، وسمعوا قوله، وخرجوا من مسقط رؤوسهم وشمتوا بهم أهل القلعة الصغيرة أبناء عمّهم.

ولمّا تعرت أجسادهم وجاعت عيالهم وباعوا سرحهم أخذ يونس زيتونهم وجعل له قومة يحرسونه من السرّقة ويراعونه بالحرث والخدمة ويجمعون له ما حصل من دراهم القلعة، واتّخذوا أهل القلعة بقرب قريتهم أكياما ليظلّوا تحتها رؤوسهم وعيالهم وأولادهم وضنكت عليهم معيشتهم، وانكشفت مخدّراتهم «وماظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[1] «فأخذناهم بغتة»[2] «فبعدا للقوم الظالمين»[3] العاصيين، كم تركوا من أجسادهم مطروحة على الأرض ليس لهم عليهم دعوى الا الغرض جزاء وفاقا، وبعث يونس لما مليت خزاينه من أموال البلاد القبلية فأخبر الباشا والده بأننا تركنا الأعداء يضحكون، وعمرنا بهم المساجد فهم فيها معتكفون، فأمره الباشا علي بأن يتوجّه إلى كوارغليّة الحمّامات ويقتصّ منهم عوض الرّواتب التي قبضوها في أيام الراحات، وزدهم أضعاف في العقوبات، وسلط عليهم القوّاد وأهل البلاد، ليظهروا لك أموال أهل العناد، ففعل يونس ما أمره به أبوه، فتحزّمت القوّاد وأهل الحمامات لأمر ما وهو شراء الكسب والعقارات بثمن بخس أقل البيوعات، فدفعت كوارغليّة

(1) قرآن : النحل 16.
(2) تضمين من القرآن من سورة الأعراف 95.
(3) تضمين من القرآن هود 44.

الحمامات ما ادخروا من الحليّ والأموال ولا بقي بأيديهم ما يقوت به العيال، فباعوا أملاكهم لجيرانهم وأهل بلادهم والحبيب القريب من يشتري منهم، كيف ظنّوا وجدوا ولا بقت إلا الدّيار في بقيّة الأموال رهنوها، وبعد احتياجهم باعوها، ولما صحى عليهم سحاب البلاء فطنوا من الدّهشة فرأوا حالهم في الرخص بعد الغلاء، فهذا يستهزئ بهم، وهذا يضحك عليهم، فاجتمعوا وقالوا : يا أبناء العمّ ما بقى لنا دينار ولا درهم، فدبروا في شغل ندفع به هذا الهمّ، فاتفقوا على أن يخرجوا للغابة، ويحرقوا الفحم ويرفعونها ويبيعون لأهل بلادهم.

قيل واللّه أعلم بصحته، أنّ الباشا علي جلس يوما في محكمته لفصل الحكومات وأخذ الحقّ من أهله، وإذا بشاب كيف دار عذاره قد غيّر الهمّ محاسنه وبسواد الفحم مدربلاته[1]. فلمّا نظر إليه الباشا أعجبه حسن شبابه، فقال له : تكلّم يا ولد، فقال له : يا سيدي قد جلبت فحما من بلادي أبيعه لنقوت بثمنه والدي، فغصبه مني بعض الأتراك وزادني الضرب على القفا والاحناك، ورفع الفحم وأدخله داره، وحرت فيما ياكل والدي وناكله، فقال له : يا ولد من أي [410] القرى أنت؟ فقال له الولد: أنا من الحمامات، فقال له : أنت من أولاد العربيّة[2]؟ فسكت الولد. فقال له الباشا تكلّم : فقال له : أنا من الكوارغليّة.

قيل فلمّا سمع الباشا كلامه، سقطت على خدّيه دموعه وتحركت شواربه وهزّ راسه، ثمّ أمر للولد ببعض الدّراهم

(1) مدربلات : ثياب قديمة خلقة.
(2) ب : الرعية.

وبعث لظالمه التّركي فجاؤوا به فحبسه وقيل خنقه، ثم أمر يونس قايد نابل ومشايخ البلدان أن يكتبوا له زماما فيما في بلادهم من الكوارغليّة فكتبوا له زماما وأحصوهم فيه، أغنياء ومتوسّطة وفقراء، فلمّا وصل الزمام بعث حوانبه واجتمعوا مع القايد وحزبه، وبعث إليهم القايد واحدا واحدا، وأخبرهم بما على كل واحد من المال الذي تعيا بحمله الابغال، والقايد له فيهم أغراض سابقة وأحقاد ضافية، ونار في الصدر من تعذيبهم وحرقتهم شاعلة، «أزفت الأزفة ليس لها من دون اللّه كاشفة»[1]، واحضرت العصي واضربوا أكابر ما فيهم، فدفعت في حينها الأموال، وبكت البنات والعيال، ثمّ طلبوهم فيما هو مقدّر عليهم، أكلوه حلفا فغاطوه حبالا[2]، فأخرجوا السّرح للسوق، وبأقل ثمن باعوها، وإلى القايد دفعوها، ومن هرب منهم أخذوا عياله وربطوها وبالعصا خوّفوها، فتظهر لهم ما خفي، وتحيي لهم ما أثره عفا، فيرجع الكورغلي إلى داره سراً في اللّيل فيكثر عنده النّحيب والعويل فيخرج ويتملّق لجيرانه وأهل بلاده أن يشتروا منه سوانيه وغرسه فيلتفتون إلى ورايهم ويهزّون أكتافهم ويغيّبون وجوههم ويدخلون ديارهم ويتركون الكورغلي واقفا على الباب مجتمع على ظهره وراسه جميع الذباب، فإذا أيّس من هذا قصد هذا حتى يعلمون أنه طاب خزامه(؟) فإذا عاودهم حوقلواوبالزلط[3] تعلّلوا ثم يقول له جاره : سانيتك الفلانية نعطيك فيها [411]ماية ريال لأجل

(1) قرآن : النجم 57.
(2) من الأمثال : اللي كلاتو العنز جداري، طلع على ظهرها دباغ.
(3) من زلط اللقمة : ابتلعها من غير مضغ، والزليطة : اللقمة المنزلقة من العصيدة.

خاطرك وإلاّ مالي غبطة في شراء ملكك، وتلك السّانية قيمتها ألف ريال وأكثر فيتشكى ذلك الكورغلي للنّاس فيقولون له : ما عليك باس فيستغني أياما فتاتيه الحوانب قعودا وقياما عند باب داره فيخرج إليهم فيشتمونه، وبالعصا يضربونه، وإلى الحبس يرفعونه فإذا رأى حاله اشتد، بعث إلى جيرانه وصاحبه في البلد فيسلّم له سانيته أو ملكه بالذي سامه فياتيه بالشّهود فيسمعون منه بيعه، ويدفع ذلك البلدي للقايد المال، فبعض الكوارغليّة يموت قبل وفاء ما عليه، فيبيعون بعده داره، ويخرجون منها أولاده وعياله يستأجرون عند من كانوا يواسونه، وبعضهم وفّى ما عليه من المال وبقيت الدار فيموت، وتسكن فيها الكبار والصغار فالكبير منهم يغزل بالأجرة الكتّان، والصّغير منهم يسرح بالأتان، ولا بقي بنابل من الكوارغليّة الا بقيّة البقيّة.، وهم من جملة الرّعيّة، وكذلك أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد «وتلك القرى أهلكناهم بما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا»[1] فلا انفلت منهم رضيعا ولا وليدا، فحسبنا اللّه ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم.

ولما اقفرت من البلاد القبلية طوايف الكوارغليّة، بعث يونس إلى قايد راس الجبل وساكنيه أن يكتبوا له جميع ما في قريتهم من مترفهي كوارغليتهم، فاجتمعوا وقالوا : كيف نسعوا في هلاك اخواننا وأصهارنا وأنسابنا وما في حقّنا

(1) قرآن : الكهف 59.

ضيّعوا؟ فكتبوا إلى يونس زماما فيه صاحب ماية وصاحب مايتين وأكثرهم خمسماية، وكان يونس قد شبع بما جمع من الأموال وقنع، فبعث إلى كوارغليّة أهل راس الجبل الحوانب، فواسوهم بالرّغايب، وجمعوا ذلك المال كل أحد من الفاضل عليه ولا باعوا غرسا ولا عقارا فيه، وستر أهل بلدهم أحوالهم، وتركوهم بأموالهم، وجاء وقت غلاتهم فردوا ما كان [يونس] أداهم [412] فبعثوا المال إلى يونس، فما بحث بعدها على فلس.

ولما جاء وقت محلّة الصيّف خرجت المحلّة وقصدت وطن باجة ونزل يونس في داره المعلومة، قدم إليه الحاج سعد بن تليس، فنخسوا يونس في حقّه وقالوا له من الذهب يكسب ملي تليس[1]، [فنبش فيه أظفاره] فسجنه ورمى عليه المال فجحده أولا، فلما هدّده بالعصا دفع إليه المال شيئا فشيئا، ولم يترك ببيته من القمح خصاً وباع أملاكه وسرحه ووصفانه حتى وقف خيالا، وهرب منه الأولاد والعيال من غير جريمة منه سبقت ولا يده مسّت ولا رجله مشت ولا أذنه سمعت، فمازال مدانفا[2] على فقد ما كان به موالفا، وتوفّى وسار إلى رحمة اللّه، وغدا الملتقى بين يدي اللّه، ورحل يونس ونزل باجة وبعث إلى مسيعيد كاهية، قال له: استخبر عن أصحاب المال من كوارغليّة باجة، فطلع مسيعيد يستخبر ويسأل، فرحل يونس وتوجّه إلى تونس وستر اللّه من يتّهموه بالمال، ولا بقي في حقّهم قيل ولا قال، والحمد للّه ربّ العالمين، والعاقبة للمتّقين.

(1) التليس : الكيس، يقال وضع الدفتر في التليسة أي في كيسه.
(2) مدانفا : من دنف، ثقل من المرض وأشرف على الموت.

ذكر تحصيل يونس لبوعزيز شيخ الحنانشة

وتركيبه الحصان ليسطّروه في رحبة القصبة وشوت لحمه التّرك وأكلوه، وببني عمّه الحقوه، فهذا هو السحر الحلال الذي يحصلّ الرّجال، فما فعله ملك عربي أو أعجمي من الملوك الأقيال، سوى سلطاني تونس، الباشا علي وولده يونس، خسارة مثلهما ما كان كذلك الا فوق السّروج وزعماء الحرب قدّامهم بالك بالك.

وحين استلقى على ظهره يونس راقدا على سريره، قد ضجر من التعب، في جمع الفضّة والذهب، من العجم والعرب، تفكر فيمن كان عاداه فوجد قد بلغ مراده فيمن آذاه الا صهره الشّيخ بوعزيز، فإنّه كاده بكثرة الفزيز، فأخذ في فتل السبيب حبلا ليصطاد به حجْلا وصار كل من ياتيه من ناحية الغرب عجم [413] وعرب يسأله عن الشّيخ بوعزيز كيف حاله، فإذا رجعتَ إلى أهلك فبلّغه منّي السّلام، وقل له : قال لك صهرك يونس باللّه عليك صفّي قلبك، واترك الحسايف وما يرهبك، تلك أمة قد خلت من قبلها أمم [وأيام سلفت واعادي انقضت ولابقي بيني وبينك الا الوفاء بالعهود، والقيام بالحدود]، فإذا

وصل ذلك الرجل أهله قصد بوعزيز، وبما وصاه به ساررّه وحادثه فيصغي لما قاله الرجل، ومن الغد يرحل، ويبعد المنزل ويقول : قد سبق منّي يمين أن لا أسير في ضبابة ولا في واد كمين، ولا ياخذني هذا الطنين، وأنا على نفسي ضنين، آكل تحت ظل بيتي شعث الطعام، ويلذ لي المنام، ولا بقيت ألتقي بالحكّام، وبعد أمن حسين بن علي فعلى الدّنيا مني السلام، وسار ملازما لخيمته، محلقًا به عبيده ومزارقيته، إن رآى جائمة أكلها وإن رأى جافلة هرب منها لا يقرب بالنزول واد سرأط، ويركب هاربا إذا سمع العياط.

فلمّا سمع به يونس أنه على هذا الحذر والخوف، بعث إليه خال أبيه راس أولاد حسن مصطفى بن يوسف، وبعث معه دلايل الخيرات عهدا من يونس وذاكرا الذي فات ما فات وفي علم مصطفى بن يوسف أنّ الذي قاله يونس حق وبه يفي.

وسار مصطفى بن يوسف إلى أن بلغ نجع بوعزيز ودخل خيمته وسلّم عليه، ففرح به وأجلّه وأكرمه، وبعد انقضاء الضيافة أعطاه دلايل الخيرات وحلف له بالآيات البيّنات أنّي لو شفت أو سمعت في حقك ما يريبني ما كنت سرت إليك ولو قتلني، ولكن لمّا صفت له مملكته وبلغ مراده أراد أن يتهنى بك من الغرب وسيّارته، ويتّخذك عينا لباي قسنطينة وما يحدثه، فترسل إليه أنت وتخبره فياخذ على حذره لأنّ له نظرا في وجق الجزاير وقسنطينة، أبناء عمّه ساعيان في تشعيل النّار الكمينة، والقدر يغلب الحذر، فجدّ عليه بعض هذه المقدّمات لما فيها من التخيلات، وأكرم مصطفى بن يوسف وكتب جواب يونس وهنّاه من جهة

باي الغرب، والقفول إليك ليس له سبيل وأنا سبق مني اليمين أن لا أدخل محلّة [414] ولا مدينة ولا قرية، وركب وشيّع مصطفى بن يوسف ورجع إلى أهله، قد ظهر عليه الخوف، ومن الغد رحل، وبعد عن ذلك الدار، وركب خيله يأخذون له على يونس الأخبار.

ووصل مصطفى بن يوسف وحكى له ما قاله بوعزيز وهو منك خايف، فضحك يونس وعلم أنّه قد قرب صيد الحمار الوحشي وتحصيله. ثمّ قام من مجلسه وصعد إلى والده ومدّ إليه كتب بوعزيز ففكّه وقراه ثم قال لولده يونس : افعل ما ترضاه ولكن أزيدك بصيرة وحيلات، فإذا رحلت فاقصد بلد الكاف وارسل إلى فرحات ياتيك وأكرمه كرامات، وضبّب عينيه بالعطا، وقل له : هذه من الباشا لك مكافات، وهذه منّي لك ضيافات، ثمّ اعتذر له وموّه عليه. حتّى تصل في حديثك إلى بوعزيز، وكثّر عليه اللّوم حتّى تكون أنت مظلوما وهو ظالمك، فإنّ فرحات في رواحه [من عندك يقصده فابعث معه كتابا إلى بوعزيز واخبره] فيه أنك إذا كنت خايفا من غدرنا فهذا خالي وقريبي مصطفى بن يوسف إذا أتاك لنجعك فخذه رهنا عندك واتركه في بيتك حتّى تصل إلينا ونجدّد معك العهود والمواثيق، ولا نكلّفك [مالا تطيق] وارجع إلى أهلك سالما، واخرج من هذا المضيق، وعليكم منّي السّلام.

وأمر يونس برمي الكتّان[1] وجمع الفرسان وسار إلى أن وصل الكاف، ورجع من عنده فرحات كما قدّمنا، وقصد فرحات نجع بوعزيز وقام عنده ولامه ووبّخه، والظلّم كلّه منك

(1) رمي الكتّان : نصب الخيام لمحلة العسكر.

وفرحات هذا جهده، ليس له اطّلاع على ما في قلب يونس وما أضمره، ونخبرك أيضا أنّ يونس شرط على نفسه أنه يبعث إليك خاله مصطفى بن يوسف، فإذا وصل إليك فاتركه رهنا في بيتك عند أولادك وحمايتك، وشرط يونس على نفسه أيضا أنّك لم تدخل له محلّة ولا تقرب منها، وإنّما اليوم الذي تريد أن تلاقيه فيه فاخبره به يخرج له سحابة تجلس أنت وإياه فيها حتّى ينقضي المجلس بعيدة عن المحلّة، ولا ياتيك معه إلا خيل قليلة، وأنا ضامنك ورتّح نفسك من هذا التّعب واملا ذخايرك بالفضّة والذهب كلّه ليتهنّى [415] بك من جانب الغرب، وهذا كلّه من فرحات على جهة الصّدق، وودّعه وسار إلى أهله وقرأ بعده كتاب يونس وعلم ما فيه فقال في ضميره : إذا كان يرسل إلينا مصطفى بن يوسف ويتخلف بعدي عند أهلي وأنا لا ندخل المحلّة بل نلتقي أنا وإيّاه في محلّ آخر وما عسى أن يفعل معي ومعي أجوادي ومزارقيتي وأكثرهم معي فهو يخاف على نفسه منّي، وجدّ عليه هذه المموّهات التي غلبت عن تخيل التّشلوشات وكتب كتابا وأرسله إلى يونس بأنه يبعث له مصطفى بن يوسف، ليتّخذه رهنا مما يترقّب ويتشوف، وكان يونس عمل على قتل الشيخين مصطفى بن يوسف وبوعزيز، ومن قبل حريصا على قتل مصطفى بن يوسف لكن يترصدّ له فيما يوقعه فيقتله، فجاءت هذه الواقعة اتّفاقيّة. كما فعل المنصور العبّاسي أو ولده المهدي وكانت له أعمام كثيرة من أبناء العباّس فسجن بعضهم، وكان له عمّ آخر فدخل عليه ويجالسه ويساره ويدنيه منه ظاهرا، وأما خافيا فإنه يضمر له في القتل.

وكانت العباسيّة في كل عام تطلع إلى الحجّ بالركْب، وترجع بالركب، فلماّ أراد المسير إلى الحجّ جلس معه عمّه المقرّب عنده وقال له : يا عمّ، أنت تعلم أنّ عمّك وعمّي محبوس عندي وأنا طالع إلى الحجّ وأريد منك أني أتركه عندك، وبعد أيام فأطعمه السمّ ليموت فادفنه من غير أن يعلم بك أحد فأنعم[1] له عمّه. وحين أراد السفَر للحج بعث إليه عمّه سرا فأدخله داره، وجعله في بيت لا يراه فيه أحد وصار مهتما في قتل عمّه، وكان له صديق أنيس له موانس، فرآه في بعض الأيام مفكرا مشغولا في خاطره فقال له : يا أخي أخبرني أيّ أمر دهاك حتّى غيّبك عن نفسك؟ هل سمعت عليّ شيئا غيّرك؟ فقال له : يا صديقي إن أردت أن أخبرك بالذي شغلني وعن حسّي [غيبني] فدبرّ عليّ بما ينجيني، فقال له : اخبرني وربنا يهدينا إلى سواء السّبيل، فأخبره بما كلّفه الخليفة به في مثل عمّه، فقال له : ان سمعت كلامي فإن الخليفة يريد قتلك وقتل عمّك [416] بيدك وهو بريء عند عمومتك، فإذا قتله ورجع من الحجّ فيستخبرك على قتله، فإذا قلت له : قتلته وتحقق عنده أنك قتلته فيدس إلى أعمامه أحدا من أصحابه ويقول له : تشفّعو في أخيكم [عند الخليفة يسرحه فينعم لهم بذلك ويقول لهم : أنا انما اردت السفر إلى الحج تركته عند ابن أخيكم]. فلان مسجونا فيرسل إليك بحضرتهم ويقول لك : اطلق عمّك فلانا إلى إخوته، فإن جاه أعمامك مقبولة، وصلة الرحم مطلوبة، فارجع فاتنا به، فقابله

(1) أنعم : قال له نعم ووافقه.

بأعمامك، فإذا قلت له : أنت أمرتني بقتله [فقتلته ودفنته] فعندها ينكرك ويشدّد عليك في الإنكار ويغضب ويقول لأعمامك : ها هو أقر بالقتل وأنا لم آمر بقتله، فخذوه واقتصّوا منه كما قتل أخاكم فاقتلوه، ويسلّمك في أيديهم فيقتلوك في أخيهم، وبلغ الخليفة مراده بقتلك وقتله [وهو] بعيد بريء. ولكن يا أخي إن سمعت ما أقوله لك وعملت به فلا عليك، وكيد الخليفة يرجع في نحره وتسلم أنت وهو بينه وبين عمّه وعمّك، فقال له : اسمعني ما تدبرّ به عليّ. فقال له : اتخذ لعمك بيتا في قعر دارك واجر عليه طعامه وما يستحقه ولا تخبر به أحدا إلاّ من تعتمد عليه في حفظ سرّك، واكرم عمّك غاية جهدك، فإذا رجع الخليفة وقرّبك وأكرمك قدّام أعمامك، ثمّ يسألك بينه وبينك هل فعلت ما أمرتك به، فقل له : نعم، وكيف يتأخّر أمرك، ويعلم منك الجدّ بما أمرك، فانظر ماذا يفعل.

فعمل الرّجل بمشورة صاحبه، وأكرم عمّه وأجرى عليه ما يستحقّه إلى أن رجع الخليفة من الحجّ، وأدناه وقرّبه وبالعطيّة اتحفه وسأله : هل فعلت ما أمرتك به، فانعم له ورأى منه الجدّ، وتحقّق عنده، فعندها دسّ أحدا من أصحابه كما تقدّم، فقدموا على الخليفة [شفعا، فقال لهم ما تقدم ثم بعث لعمه كما تقدم فلما أقر بقتله بمحضر أعمامه قال له الخليفة] : حاشا اللّه ما أمرتك بقتله، وغضب وأنكر، وقال لأعمامه : خذوه وبقتل أخيكم فاقتلوه، وسلّمه اليهم فخرجوا به وتقدّم إليه بعض أعمامه وجرّد سيفه ليضربه به فقال له : يا عمّ أتقتلني؟ قال له : أي واللّه اقتلك بقتله. وأراد أن ينزل عليه

بالسّيف [417] ليضربه، فقال له : يا عمّ ارفع يدك فإنّ أخاك بقيد الحياة، لا بارك اللّه فيكم من قرابة، ردّوني إلى الخليفة الذي أراد أن يكسّر بعضنا ببعض، فردّوه إلى الخليفة، فقال له : أتامرني أن أرسل إلى أعمامك أخاهم؟ فقال له : ويحك أو ما قلت قتلته؟ فقال له : قد أطلعني الله على ما أضمرته، قال اللّه تعالى : «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم»[1]، فكأنّما ألقم الخليفة بحجر، وذهب إلى داره معه أصحاب الخليفة فقال لهم : ادخلوا اخرجوا الرّجل، ثمّ أعطاه في أيديهم فوصلّوه إلى الخليفة، فقال لأعمامه : اتركوه عندي، قيل بنى له بيتا وجعل تحت أساسه الملح وسجنه فيها، وأطلق الماء على الملح فذاب، فطاحت البيت على الرّجل فجذبوه ميّتا من تحت الرّدم ونجا ذلك الرجل من كيد الخليفة[2].

وكذلك أضمر يونس في قلبه إذ أرسل مصطفى بن يوسف على أن يتّخذوه رهنا في بيت بوعزيز ويسير بوعزيز إلى يونس ويشدّه، فإذا سمعوا أولاد بوعزيز بقتل أبيهم فيقتلون مصطفى بن يوسف بأبيهم ولكن أخرّ اللّه أجل مصطفى بن يوسف بعده بمدّة قريبة.

ولمّا ورد كتاب بوعزيز على يونس وأنه يرسل إليه مصطفى، ففي حينه أمر مصطفى بن يوسف أن يسير إلى بوعزيز : وإذا اتّخذوك رهنا في بيته فارهن نفسك حتّى يرجع إليك بوعزيز، فركب من ساعته، سار إلى أن وصل نجع بوعزيز

(1) قرآن : من سورة محمد، الآية 22.

(2) الخليفة المقصود هو المهدي العباسي، أورد الخبر الطبري في تاريخه (ج 4، ص 482–483) بنفس التفاصيل ؛ والعم المقتول هو عبد اللّه بن علي.

وقابله وأكرم نزله، وحضر أجله، ومصطفى بن يوسف حلف [له] فقال له: إنّي جالس في بيتك إلى أن ترجع، فلماّ جدّ هذا الأمر على بوعزيز حلف له أنّي لا أخلفك بعدي ولا ينتسب عليّ، وأنا بوعزيز اني ما سرت إلاّ بالرّهن ولو جرت بأرجلي الكلاب، فاكتب إلى يونس أنّ اليوم الفلاني نجتمع في وادي الرّمل، فكتب مصطفى بن يوسف وبعث إلى يونس، فلماّ وصله الكتاب، صار يترقّب في ذلك اليوم، ويصعد لبرج الكاف الفوقاني وينظر منه بالمراية[1]، إلى أن جاء ذلك اليوم الموعود، فأمر بالسّحابة فأخرجت وقال: انصبوها في ذلك المحلّ بعيدة عن المحلّة [418] وأمر باش حانبة بركوب جميع حوانب الترك، ولكن ما يسير معي إلاّ مقدار العشرة والباقي يركبون خيلهم ويقفون عند أخبيتهم، فإذا رأوني دخلت السّحابة أنا وبوعزيز ومصطفى بن سلطانة مملوكه وحيدر خوجة فتسربوا أنتم من المحلّة شيئا فشيئا حتّى تدوروا بالسّحابة، فإذا سمعتم في السّحابة حركة فأعطوا لخيل الحنانشة الرّصاص، فإذا هربوا فزيدوا عليهم بضرب الرّصاص حتى يهربوا كلّهم. وطلع إلى البرج وأخذ المراية وإذا نواصي الخيل ظهرت، فنزل يونس وسار إلى أن وصل قدام السحابة [والخيل قليلة، والمحلة بعيدة فطن بوعزيز ومعه أجواده ومزارقيته، ولازال بوعزيز سايرا إلى أن وصل يونس فنزل وسلم على يونس ثم دخلا السحابة]، وجلس يونس وبوعزيز، قيل بين أيديهما صحن مقروض وحيدر خوجة ثالثهما، ومصطفى بن سلطانة واقف، والحنانشة دايرة من بعيد، وتسربّت حوانب الترّك حانبة بعد حانبة ويقفون على خيلهم قريب

(1) المراية: منظار مقرّب للأجسام البعيدة.

السحابة، وكان قال باش حانبة للحوانب: فورة برنوص والمراد بهذه الكلمة اعملوا على القتال، فخلعوا البرانس، وتحدّث يونس وبوعزيز وهما يأكلان في المقروض.

قيل قال يونس لبوعزيز: [حصلت] يا غدار. فلماّ سمع بوعزيز هذه الكلمة أراد أن يقوم، برك عليه يونس وحيدر خوجة ومصطفى بن سلطانة، فلماّ سمعت الحوانب الحركة في السّحابة سرحوا المكاحل بالرّصاص، في وسط خيل الحنانشة، فهربوا فاتبعوهم والرّصاص في عقبهم إلى أن غابوا على الأعيان فرجعت الحوانب والحنانشة لم يلتفتوا وراءهم، ولا ارتاحوا من ركض خيلهم إلاّ في نجع بوعزيز، فأخبروا أولاد بوعزيز، فقام بينهم البكاء والفزيز، ورحلوا من تلك الدار، وقصدوا القفار.

أماّ يونس فإنه كتّف بوعزيز وجعل في رجليه قيدا، وأمر ببغلة ببردعتها فركبوا عليها وسار به يونس والقوم دايرة ببوعزيز من كلّ ناحية وفي ساعة وثُوقه ركضت الخيل إلى الباشا علي ليلا ونهارا وكان وصولهم وهو في المحكمة ونادوا الخيل لما وصلوا باب باردو: البشارة البشارة، ودخلوا يركضون خيلهم إلى أن وصلوا الدّروج[1]. فلماّ سمع الباشا قبل وصولهم، [419] وهو على الكرسي نزل ولبس إحدى نعليه وخرج حافيا برجله الأخرى إلى أن وقف عند راس الدروج ووصلته البشارة فأعطاهم بشارتهم، ولماّ وصل بوعزيز إلى دور المحلّة خاف من الترّك وهم وقوف قدّام الأخبية ونادى: يا يونس الأمان الأمان، أجرني من هذه الترّك، فقال له يونس

(1) أي درج الأسود وهو درج مجلس النواب اليوم.

وهو يضحك : لا تخف لا تخف، ودخلوا به إلى الوسطية وأنزلوه في خباء خزنادار ودارت به الأشرار وهو في القيود والاغلال، ومن الغد رحلت المحلّة وجعلوا بوعزيز في كريطة والحديد في رجليه والخيل دايرة به.

وقصد يونس تونس وسمعت الناس فمن مكذّب ومن مصدّق إلى أن دخل يونس باردو ودخلت الكرّيطة إلى إن وقفت عند بيت باش حانبة، فأنزلوا بوعزيز وأدخلوه البيت، [وبات بالبيت] ومن الغد جعلوا له بنكا وحطّوه عليه تحت حيط البيت بحذاء الدروج لأجل تراه النّاس ويرتفع الشك، وصوّبت النّاس أفواجا أحرارا وأعلاجا، يهنّون في الباشا وولده يونس أكابر وأصاغر من مدينة تونس، ونظروا بأعينهم بوعزيز وشاهدوه وارتفع شكّهم وتعجّبت النّاس في قوّة سعد هذا السلطان، وما أعطاه اللّه من الإقبال ومساعدة الزمان، إلى أن انقلب وصكّ ورمح الخوّان وتفرج في بوعزيز الحاضر والباد، اجتمع يونس وأبوه وتحدّثوا في قتل بوعزيز على أيّ حالة يقتل، فاتفقوا على قتله في رحبة القصبة، بعد أن يطوّفوه ويدوروا الشوارع والأسواق وافترقا على هذا.

ومن الغد ركب يونس في حوانبه، ودخل تونس يدور في نواحيها وأمر الباشا أن يركّبوا بوعزيز على بغلة ويركب وراءه بعض الصبيانات ويدخل به تونس، وتجتمع عليه الحوانب ويدوروا به في الأسواق والبرّاح يبرّح : هذا جزاء من يعادي السلّطنة ماله إلاّ الذّبح والمشنقة، ودخلوا بالشّيخ بوعزيز،

وحضر أجله ولم ينفعه هروب ولا فزيز، ونادى عليه البرّاح : كم ظلموا، كم أخذوا، كم غزوا، كم قتلوا، كم عروا، كم رحلوا، كم نزلوا كم [420] غنموا راحت أعمارهم في المظالم واللّه وليّ الانتقام «وسيعلم الذي ظلموا أي منقلب ينقلبون»(1) لا يؤمنون بمكر اللّه، بل «في طغيانهم يعمهون»(2)، اليوم تجزون بما كنتم تعملون(3) «فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا : هل نحن منظرون أفبعذابنا يستعجلون أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتّعون»(4) وداروا ببوعزيز الربّى والبطاح، وطلعوا به إلى رحبة القصبة وأخرجوا الحصان المهجور، لا يركبونه إلاّ في الأعياد مدّة من الدّهور وركّبوا عليه الشّيخ بوعزيز، صاحب المكايد والراي العزيز، وشدّوه على السرّج بالحمايل خوفا عليه أن يطيح أو يتمايل وقدموا عليه الترك بالايطاغنات وشقوه ورقات من رأسه إلى قدمه، ولم يبق فوق السرّج لحمه ولا عظمه، والتقطوا الترك لحمه ورفعوه إلى الشّوّايين فأنضجوها وأكلوها، وفي اعتقادهم أنهم بردّوا غيظهم في حميّة [بيهم] وسلطانهم وانطفت نار الحنانشة بعده، ولم يقم أحد من ولده مقامه ولا أخذوا له ثارا ولا أثاروا عليه غبارا، ولا حسبوا عارا متيمة عياشة

---

(1) قرآن : سورة الشعراء، الآية 127.
(2) قرآن : سورة الأعراف، من الآية 186، وسورة يونس الآية 11.
(3) اقتابس من القرآن : إنما تجزون ما كنتم تعملون، سورة الطور 16.
(4) قرآن : سورة الشعراء، 204 ـ 207.

الوجقين غشاشة وبرد دم والدهم وراح ولفظته الأرض وساح،ولا يشابه والده إلا الفكرون، واللّه أعلم بغيبه وكان قتل بوعزيز سنة ستّ وخمسين ومائة وألف [1156] على ظنّ منّي، ومن يعلم تحقيق مثله في أيّ عام فالله يرحمه ويلحقه بالطرّة ويضرب [عن الظن]، فاللّه يستره.

ذكر علي بلهوان وجماعته فيما طمع فيه ولا لحقه

وقتل جماعته، ولولا خروجه لكان حضرهم أجله، وجاء وقت الشتّاء وخرجت المحلّة ورحل يونس ينزل حلّة بعد حلّة ضابطا أمر السلطنة، يخافه أهل المترفهة، فإذا سمع بأحد له مال نقّص من ماله له وترك ما تاكل العيال [421] وأولاده ويقول : عجبت لمن له مال ما يكفيه في المعيشة وهو طالب وحارص للزّيادة والذّخيرة، وبعث قوّاده وخلّص خطياته ومجباه وعوايده، ولما امتلات صناديقه من عند من لا يعرفه ولا يضرفه رجع إلى تونس وقابل والده، ودخل داره، فإذا ارتاح من التّعب دفع إلى خزانة والده مجبا رعيّته وياخذ يونس ما غصب.

وكان علي بلهوان رجل تركي عجمي طويل أبيض مقبول الصّورة مصارع للاقران، لا يصارعه أحد في حلقة الميدان، ومن بلغ هذه الغاية في قوّة الجهد سمّوه الترك بلهوان، وتفرّد في وجق تونس واشتهر عند الباشا ويونس فإذا ورد العيد صوّب لباردو هو وجماعته وتصارعوا بمنظر من الباشا ومنظر

من يونس، بجهد جهيد وهم عرايا من اللبّاس في السرّاويل، فبعد صراعهم يعطيهم الباشا وأولاده عوايدهم من شاع خبره في مدينة تونس ورمقته العيون، فأعجبته نفسه انه هو الجوهر المكنون.

قيل: كان جمع مالا وهو عازب في بيت فندق لا يتزوّج ولا يجمع عيالا فطمع في أمر لا يصل إليه، ولا هو من رجاله ومواليه، فأخذ يثقب في سدّ ذي القرنين[1] فكلّ صاحب وقرين فإذا كشف سرّه لأحد من أبناء عمّه، فإذا ساعده حلّفه ولا زال يجمع في الطّماعة إلى أن التمّت عليه جماعة، قيل يزيدون على الثلاثماية، وتواطؤوا على أنّهم في الليل يصدمون على القصبة فإذا دخلوها وحازوها بمدينة تونس، ملكوها، وما عسى أن يفعل الباشا ويونس وهم خارجون في باردو عن مدينة تونس، فاتفقوا على ليلة يجتمعون فيها، ويبلغون مرادهم ووردت تلك الليلة واجتمعوا وتسلّحوا وقصدوا رحبة القصبة ووقفوا، فقال أحدهم: إذا دخلتم القصبة فما تاكلون؟ وبماذا تقاتلون؟ ليس فيها خزانة من القمح ولا من البارود [422] المتّخذ من الملح، بل تحصروا فيها ليس لكم طاقة على الحصر، فتلقوا بأيديكم إلى التّهلكة فياخذكم الباشا «أخذ عزيز مقتدر»[2] ولا يفلت منكم من يعيد الخبر، فمخروا فيما بينهم وقد تحيّر بلبالهم، وقالوا: نمضوا إلى باب فلان رجل كبير، صاحب رأي وتدبير، يدبّر علينا في هذا الأمر الخطير، وهو ساكن في

(1) ذو القرنين هو اسكندر الكبير، انظر تعليق رقم 3 ص 62.
(2) تضمين من القرآن من سورة القمر، الآية 42.

بيت فندق بجامع القصر، فتسرّبوا واحدا في عقب واحد والوقت مشطر الليل، فلما رأى الذي جعلوه بأيّام هذه المهلكات، وأصحابه قد وقعوا في الشتّات، انخنس من بينهم وتسوّر الحيطان، ورمى نفسه من قريب المكان، ومشى إلى أن وصل ونادى على العسّاس فجاوبه فقال له: خذ الاذن لي في الدّخول، أنا تركي عجمي لابدّ لسيدي يونس عندي ما نقول. وكان يونس لا ينام من الليل الا قليل القليل، فذهب العسّاس ونادى قريب سراية يونس بعض الحرّاس، فقدم إليه فأخبره فرجع وأخذ الاذن ودخل على يونس وحادثه، فقفز من مجلسه ونادى خزنادار وصاحب طابعه وخواص مماليكه فأمرهم أن ياتوه بباش حانبة الترك، فوقف بين يديه وهو يرتعد، فقال له يونس: اجمع حوانبك ولا تزهد وابعث لحوانب الباشا ولا يبقى منهم هنا أحد.

وقيل هذا التركي الذي صوّب إلى باردو، مشى عند النّوبة وقد حلّت الأبواب وضربت النّوبة، فوصل إلى باردو وهو مقفل البيبان، فنادى العسّاس وقد قرب ذهاب الملوان[1]، وأظنه هو هذا الصّحيح، فأجابه العسّاس: مالك؟ قال له: كلّم لي بعض حوانب الترك اتكلم معهم الخ...

وأمّا علي بلهوان فإنه ذهب إلى ذلك الرّجل الكبير هو وجماعته، ووصلوا إلى الفندق فضربوا بابه فحلّوا لهم الباب وقال بلهوان علي لعسّاس الفندق: أرني بيت بابا فلان فأراه

(1) الملوان: الليل والنّهار أو الدهر.

البيت، هذا كلّه وقد تفرّق أكثرهم وهربوا، فنادى بلهوان عليهم [و]على الرّجل فخرج له فأخبره بجمعهم، وقال له : دبّر علينا. فما [423] زاده كلمة، ورجع إلى بيته وغلق بابها في وجهه وتركه واقفا، فخرج علي بلهوان من الفندق فما وجد معه إلا قليل أصحابه، فعلم أنّه إن قعد أو هرب في زاوية فإنّه مقتول، فقال لأصحابه : من ساعدني منكم فليرافقني ونخرج من مملكة هذا الرجل وإلاّ إن مكثنا هنا قتلنا كلّنا وجماعته كلّهم بعددهم، فخرج وخرجوا في إثره، يا ستار يا ستار، إلى أن خرج من تونس ودخل في الزّيتون، وساروا في أجدّ ما يكون من العجلة، وما طلع عليهم النّهار إلاّ حيث أمنوا وتركوا الثّنايا الظّاهرة. وترقّبوا وساروا وبعدوا عن العمارة وفيهم كثير من هو عارف متدرّب، فما أمنوا وأخذوا راحة إلى أن علموا أنّهم بعدوا عن ما يلحقهم من كثرة القوم، وقصدوا بعض النّزالي من العرب وأمروهم أن يخبزوا لهم الخبز وهم وقوف، فخافت أهل النّزلة منهم وفي الحين حضر ما طلبوا فأخذوا وساروا إلى أن وصلوا الحنانشة فارتاحوا عندهم ثمّ شيّعوهم إلى قسنطينة ورجعوا ووصل علي بلهوان وجماعته إلى قسنطينة ودخلوا مع ابناء عمهم وأمنوا من عدوهم.

فهارس المجلّد الأول